رواية

نسرين أكرم خوري

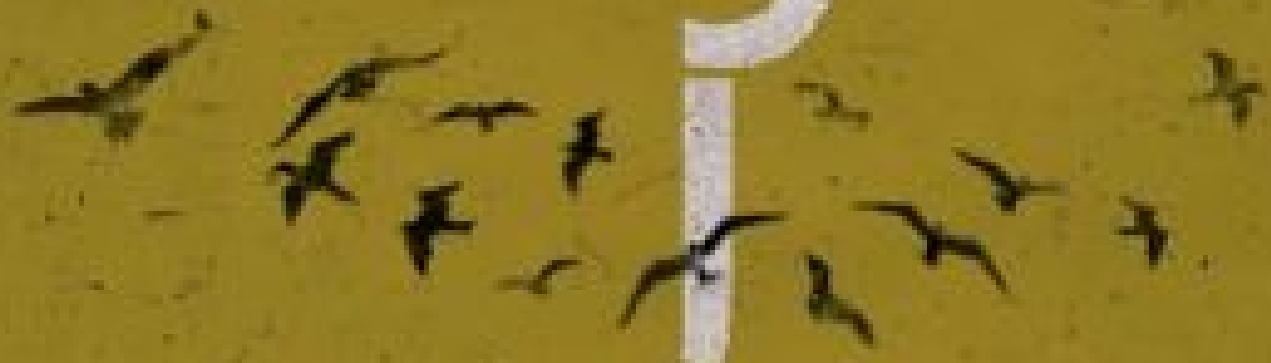

واري قنديل

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

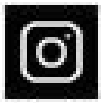

Almutawassit

الإهداء:

إلى ضهيب

قرية فنيدق/ شمال لبنان/ أيلول ٢٠٣٤

"لا تسحبني من يدي في اللحظة الأخيرة، لتمنعني
من الزحيل،
لا تدعني أغادر بهذا الشكل"

كوستاس مونتس

لم أدخل مقبرة في حياتي، لا أهل أزورهم هناك، رغم أن جميعهم أموات. بقيت أراقب من البوابة، توقّعت أن يكون قبره طرفيًا، هو الّذي يكره من الأمور أوسطها. من اختار للقسم الأخير من حياته مثل تلك العزلة، لن يرضى بأقلّ منها لموته. أيضًا سيكون الطريق أقصر لو أنّهُ غير رأيه، وقرّر تبديل المكان، أو العودة. الأهمّ من ذلك كلّه أن يتيح لنظراته الصعود بيُسرٍ وصولًا إلى قمّة جبل عارومة، واتّخاذ القلعة[1] شرفةً، تطلّ منها على قلب سوريا، كما خطّط تمامًا. من بين الغرباء الملتفين حول القبر، استطعتُ تمييز المرأة بشكلٍ جيد، تكاد تتطابق مع الصورة التي رسمتُها لها، وعلّقتُها في مخيلتي، وكأنّما لم تمرّ عليها عشرون عامًا. راح قلبي يخفق بشدّة، ويداي تتعرّقان، لم أعرف ما الّذي انتصر في، حزني العظيم؟ حبّي للمرأة؟ أم غيرتي منها؟

عجزتُ عن الحركة، كنتُ مغروسةً في التربة مثل شاهدة قبرٍ نسوه خارج الأسوار، حين اتّجهت المرأة نحو البوّابة المعدنية، مطأطئة الرّأس، بقامتها الصغيرة، وفستانها الأسود المطبّع بورود بيضاء ضخمة، كعبها يطرقُ أحجار الممرّ، ويتردّد رجع الصّدى في قلبي. توقّعتُ أن تتجاوزني، ولا تنتبه إلى وجودي البارد مثل معدن الرّفش الّذي حفر القبر، ثمّ أهال التراب فوق حبيبها، مثل أغنيةٍ عاطفيةٍ، كان يدندنها الحفّار في أثناء ذلك. كان جسدها يبدو ماشيًا باتّجاهي، بينما رأسها يسقط شيئًا فشيئًا في عالمٍ آخر، حين وصلتْ إليّ رفعتْهُ قليلًا، ومن دون أن تحدّق فيّ تمامًا، كلّمتني:

- أنتِ ثريا، صحيح؟
- أجل.

- نلتقي غدًا عند الواحدة ظهرًا في المقهى ذاته. سلام.

انزلقتُ داخل التربة أكثر، وكأن حفّار القبور بصق الأغنية، وبدأ يدفنني على رأسي. نزلت دموعي مثل سكاكين من نار، تحزّ صقيع وجهي، لم أعد أشعر بأطرافي، ظننتها امّحت، قلبي لا يخفقُ بشدة فحسب، بل صرتُ كلّي هذا القلب. انفصلتُ عفا حولي، لم ألحظ كيف؟ إلى أين؟ برفقة من؟ غادرت المرأة. لا أعلم كم بقيتُ على تلك الحالة: شاهدةُ قبرٍ على شكل قلبٍ ينبض، تتأمل القبور التي داخل السور. لوهلةٍ ظننتُ أنني أشاهد القبور من خلف نافذةٍ تجري على زجاجها حبات المطر. كانت موزعةً بشكلٍ منظّم، شغلني كيف فكّر الناس بتنظيم أمرٍ عبثيٍ كالموت، تخيلتُ الممرات بين القبور خطوطًا لرقعات لعبة XO وربما احتاجوا أنس، كي يربح أحدٌ ما. على أيّ حال، إن موت أيّ إنسان هو فوزٌ لغيره بطريقةٍ ما. أغضبتني الفكرة، لا، لا، أنا غاضبةٌ من شيءٍ آخر، نعم، إنها تلك الورود الضخمة على فستان المرأة، التي صارت تكبر أكثر داخل رأسي، وتكاد تلتهمه، رأسي الذي يتوجّب عليه استيعاب ما حصل قبل قليل أو كثير، فقدتُ إحساسي بالوقت. الآن أنا متأكدة من شيءٍ واحد: المرأة هي غيم حذاد. حقيقة عصفت مشرّعةً أبواب عالمٍ من الأسئلة: كيف عرفتني؟ وX أقصد أنس، هل حدثها عني؟ هل كانت موجودةً في حياته كلّ تلك الفترة؟ والمقهى؟ بالتأكيد هي تعني حيث كنا نلتقي أنا وحبيبها .. أقصد حبيبي، بل حبيبنا. هل تعرف كلّ شيء إذًا؟ لماذا لم تظهر سابقًا؟ لماذا الآن بعد رحيله؟ وما الذي تريده مني؟ أنا من بحثتُ عنها طويلًا، في آخر الأمر، تجدني هي، وتطلب رؤيتي! شعرتُ بالخجل من نفسي، وأنا أفكّر فيها، بينما أقف على بُعد أمتارٍ منه، بعض تلك الأمتار فوق التراب، والباقي تحته. لا، لا، عليّ أن أعترف: أنا غاضبةٌ لأنه رحل، فقط لأنه رحل. غاضبةٌ إلى درجة أنني غادرتُ - كالعزة السابقة - من دون أن أودّعه. غاضبةٌ لأنني لا أستطيع أن أمسك جسده بيدي، وأشمّ رائحته لعزةٍ، وأنا أهزّه بعنف، كي يقول إنه أحبني، أو كي لا

يقولها ويبقى. فجأة ارتعبتُ حين تذكرتُ أن الهواء لا يستطيع النفاذ إليه الآن، أنس لا يثق في أيّ شيء لا يتنفس، غيم تعرف ذلك، كيف سمحتْ لهم بتكفينه ودفنه؟ تخيّلي لجسده الّذي أحبّ باردًا وملفوفًا بالقماش الأبيض، دفع بصرخةٍ مدوّية مني "لاااا" خرقتْ سماء لبنان، وربّما وصلتْ سوريا، وصلتْ بيتي الّذي لا أعرفه هناك، وخبتْ في إحدى زواياه.

****

طوال اليوم وذهني مثل دولاب هامستر يدور فيه اسمي "ثريّا"، كما سمعتُه بصوت غيم، من دون أن يتعب، أو يصل إلى مكان. كان عليّ أن أوقفها، وأشرح لها كلّ شيء. هذا ليس اسمي، كنتُ أنوي البحث عنه، أقصد اسمي، لكنّني بحثتُ عنك بدلًا منه.

"ثريّا" هو الاسم الّذي أطلقته عليّ ماما ساتي، أمّي بالتبنّي، لا أعرف أمًّا غيرها. هي تقول إنها اختارت لي اسمًا عربيًّا، كي تحافظ لي على هويّتي قدر المستطاع. بذلتْ جهدًا كبيرًا، كي تُبقيني على علاقةٍ مع جذوري الّتي ترقد في مكانٍ ما من قاع البحر المتوسط. وُجدتُ عام ٢٠١٤ محاطةً بعددٍ من الجثث، ومستلقيةً فوق خشبة عائمة على بُعد أميال من ميناء لارنكا في قبرص، حيث تمّ نقلي إلى الشاطئ، لم يعثروا على ناجين سواي، يقولون إنّ بقائي حيةً كان معجزة حقيقية. افترضوا أنني في الخامسة من عمري، استنادًا إلى فحوصات، أخضعوني لها، كي يُثبتوا لي تاريخ ميلاد، صارت ماما ساتي تحتفل به كلّ عام، وبقيت شموع ميلادي الحقيقي بانتظار من يطفئها في البلاد القريبة البعيدة. أذكر أنّني كنتُ أتنقّل من طبيب إلى آخر. ماما ساتي تقول إنني كنتُ صامتة، فقط في الليل أستيقظ، وأصرخ "ماما". حينها كانت ماما ساتي موظّفةً لدى الصليب الأحمر، اهتمّتْ بحالتي، وتابعتها قبل أن تصير أمّي. أحبّتني كثيرًا، وسعت إلى الإسراع بإجراءات التبنّي الصعبة، كي لا أوضع في أحد مخيمات اللاجئين، أو في ملجأ أطفال،

على أفضل تقدير. حاولَت في البداية أن تعثر لي على أقارب، من خلال وضع صوري في الصحف والمواقع الإلكترونية، لكن، من دون جدوى. صارت تعرضني على أطباء نفسيين، علّي أقول أيّ شيء يشير إلى ماضيّ، وبلا فائدة أيضًا. فقط في الليل، أستيقظ، وأصرخ ماما. بعدها بسنةٍ، كنتُ قد شُفيتُ من الزضوض في وجهي ومعظم أنحاء جسدي، ومن الكسور في مرفقيّ، وفي ركبتي اليسرى، إلى اليوم توجعني ركبتي حين أتعب أو أبرد أو أحزن. أيضًا اعتدتُ على ماما ساتي، وأحببتُها، بدأتُ تخرج مني كلمات يونانية، التقطتُها منها، دخلتُ المدرسة، وتعلّمت اليونانية والإنكليزية. مزة جعلتني ماما ساتي أخوض تجربةً قاسية باصطحابي إلى مخيم اللاجئين في كوفينو، أذكر أنني تجوّلتُ بين مهاجع مطلية بألوانٍ فاتحة، كلّ ما أذكره أنها فاتحة جدًا، شعرتُ أن باستطاعتي تمرير يدي عبر الجدار، لو أردتُ. تركتني وحدي بين الأولاد، لا أعرف ربما ظنّت أنني بواسطة اللعب مع الأطفال السوريين والفلسطينيين قد أستعيد لغتي. أتذكّر الصبيان والبنات كخيالات تركض وتدور وتقفز، أسمع أصوات ضحكٍ عالية، لها صدى، أشبه بالّتي تخرج من فيلم رعب، أو الّتي تسبق وقوع الجريمة في الأفلام البوليسية. هربتُ منهم، لا أذكر ذلك، ولا أذكر لم، ماما ساتي تقول إن موظّفةً وجدتني، وأعادتني إليها. ماما ساتي هي من أخبرتني أنني أتيتُ من بلدٍ، اسمه سوريا، توجد فيه حربٌ، لذا أنا هنا الآن. هم كانوا متأكدين من أنني سوريّة، لأن ما وجدوه من وثائق مع باقي الفرقى يُثبت جنسيتهم السوريّة، لم يجدوا أوراقًا تخصني. حاولَت ماما ساتي أن تروي لي قصة الفرق بطريقةٍ لطيفة، مزةً تقول إنّ حوريّةً شقراء خبأتني في حقيبتها، ثم أعطتني لها، لأنني لم أحبّ الحياة داخل حقيبة، ومزةً تقول إنني فتاةً قويّةً حتى البحر خاف مني. لم تذكر شيئًا عن الله وحكمته في الموضوع، سمعتُ هذا النوع من الكلام لاحقًا من أناسٍ آخرين. في الحقيقة، لم يتردد في بيت ماما ساتي اسم الله، أو

الإشارة إلى أي دين، مع أن جدها كان كاهنا في كنيسة القديس لازاروس الأرثوذكسية، لم أذق في حياتي "حريرة لعازر" التي كانت تحضرها جدة غيم. في البداية، لم أطرح الكثير من الأسئلة، ماما ساتي تقول إنني نمت في ليلةٍ طفلةً صامتة، واستيقظت ماكينة أسئلة. أنا لا أذكر شيئا من هذا. ماما ساتي امرأةٌ سمراء طويلة القامة، قويّة البنية، ليست سمينة، لكنّ عظمها تخين، وذات تقاطيع وجه كبيرة وقاسية، يزيدها غموضًا وريبةً شعرها الأسود الفاحم الطويل، والمفرود دائمًا متروكًا على طبيعته المجعّدة. أعتقد أنها كانت مثاليًا ناصعًا، علّمتني باكرًا ألّا أحكم على الناس من أشكالهم. قبل أن تتبناني ببضعة أشهر، كانت قد انفصلت عن زوجها، بسبب خللٍ في العلاقة الجنسية بينهما، حسب ما فهمتُ لاحقًا. حين كبرتُ صرتُ أنتبه إلى أنها مثليّة، وأخفت وجود علاقاتٍ عاطفيةٍ مع بعض صديقاتها الحميمات، لكنها لم تصرّح لي بذلك، وأنا لم أسألها، لطالما حرصنا على خصوصية علاقاتنا العاطفية والجنسية. خفتُ أيضًا أن هذا سبب بُعدها عن عائلتها. فقط أختها لورا كانت تزورنا، مرةً سمعتُها تنقل لها رسالةً شفهيةً من باقي أفراد العائلة، يسألونها فيها إن كانت تنوي تعميدي، ماما ساتي أجابتها بهدوء: "وماذا لو كانت الفتاة مسلمة؟ ليس من حقّنا، حين تكبر تقرر بنفسها، لن يزعل يسوع، فليطمئنوا." وضحكتا. بسبب انشغالها بي، تركتْ عملها في الضليب الأحمر، لكنها صاحبةُ أموالٍ طائلة ورثتها عن والدها، وظّفتها في تجارة العقارات، لذا نعيش حياةً مرفهة في لارنكا وسط جادة بياله باشا، في بيتٍ كبيرٍ من طابقين، بسقف قرميدي مائل، أسفيه البيت الأبيض، لأنّه مفروش بالجلد والكتان السميك الأبيض، جدرانه وأسقفه مطلية بالأبيض الناصع، الحمامات من السيراميك بلونٍ أبيض مُطفأ ومنقوش يدويًا، أما سيراميك المطبخ، فلونه شمعي، بياض المنزل تكسره قطع الأثاث المصنعة من خشب الورد العنابي وخشب الجوز الداكن، بالإضافة إلى الجرار الفخارية الموزّعة في كلّ الغرف، ماما ساتي

مهووسةً باقتنائها، تجد في منزلنا أشكالًا ومقاساتٍ مختلفة منها. بعد أن اندمجتُ في المدرسة والمجتمع الصغير لماما ساتي، والمختصر بصداقات قليلة والخالة لورا، أي عندما صرتُ في الثامنة أو التاسعة من عمري، صار يتردّد إلى منزلنا مدرّسون للّغة العربية. كانوا يقولون لماما إنني سريعةٌ بتعلّم اللغة رغم صعوبتها، ولم أحتج جهدًا كي أستطيع ببراعةٍ لفظ الحروف الثقيلة. أوّل مدرّسٍ كان لبنانيًا، أتى إلى قبرص كي يعمل في شركة تأمين بحري، أحببتُه كثيرًا. اسمه علي، شاب بدين، وله كرشٌ كبيرةٌ، كنتُ أجدها ظريفةً. كان لـ مستر علي وجهُ طفولةٍ أسمر، وخفّة ظلّ، جعلتني أترقّب مواعيد دروسه بلهفةٍ. بقي يدرّسني لمدّة سنتين ونصف، أطول فترةٍ تردّد فيها مدرّسٌ عربيٌ إلى منزلنا. ربّما لأنني أحببتُه وهو أيضًا أحبّني، كنتُ أرى ذلك داخل عينيه الصغيرتين الشديدتي اللمعان. كنتُ ألاحظ ارتباكه عندما يحين موعد قبض أجرة الدروس، وفي مرّاتٍ كثيرة، يحاول الرّفض. لكن، لا مجال للتغلّب على ماما ساتي في أيّ جدال. كنتُ أقول لـ ماما ساتي إنني أحبّ مستر علي، لأن عينيه تلمعان. غيم أيضًا أحبّتْ جود بسبب لمعان عينيه. بعد أن أصبحتُ مقبولةً إلى حدٍّ جيّد في العربية، تحوّل القسم الأكبر من الحصّة إلى أسئلةٍ، أوجّهها له، أغلبها كان يدور حول بلده لبنان، وبلدي سوريا. أخبرني أنّهما متجاوران، وحدّثني عن زياراته الكثيرة سابقًا إلى حمص والشام. كان يقول إنه يحبّ في حمص "حلاوة الجبن" عند العاصي في شارع الدبلان، والمفطوطة عند الجلبجي في حي الحميدية. الآن فطنتُ إلى أن مستر علي كان يزور حي غيم، هل صادفها هناك؟ هل لاحظتْ لمعان عينيه؟ هل أحبّته أيضًا؟. كان يقول: أكلة المفطوطة لا تجدينها إلاّ في حمص عند الرابعة فجرًا. كان يحبّ أيضًا تناول الهريسة في مدينة النبك بين حمص والشام. أمّا في الشام، فأحبّ شاورما أبو العبد في شارع ٢٩ أيار، والكنافة عند نبيل نفيسة، والكوكتيل عند أبو شاكر في الصالحية، وطبقًا البوظة الدقّ العربية عند

بكداش في سوق الحميدية. كان يتحدث عن ذلك بفرح وفقد من يتكلّم عن حبّ قديم رحل. مستر علي يربط سعادته بالطعام، كان يقول لا تصدقي الشاورما التي تجدينها هنا، هي نسخة مشوهة عن تلك. كان يتكلّم بجدّية وشغف بالغين. دوّنت تلك الأسماء على دفتر الدروس، حين رآها مستر علي، أخبرته بأنني سأزورها حين أكبر. ربّت على رأسي بحزنٍ، وأشاح بوجهه عني. كان يتجنّب الحديث عن الحرب، ويقول إنني صغيرة، ونلتُ حصّتي منها، وعليّ نسيانها. لم أفهم حينها معنى "حصّة من الحرب"، لاحقًا عرفتُ أنّ لكلّ إنسان ينتمي إلى ذلك البلد قصّةً حزينة، وهي حصّته من الحرب. البعض أخذوا كثيرًا من الحصص، أمّا من ليس لديهم حصّة، فهم الأشرار في الحكاية الكبيرة. شعرتُ بالرّضى، لأنني أنتمي إلى الأخيار. لم أفهم أن أهلي وذكرياتي غرقوا كي أوضع في هذه الخانة. زعلتُ كثيرًا حين أخبرني في آخر زيارة بأنّه سيعود ليعمل في مكتب الشركة في لبنان. أذكر أنني بكيتُ، وهو أيضًا عيناه لمعتا أكثر، بسبب الدموع المترقرقة. وهذا جعل الأمر أشدّ قسوةً. هكذا جزبتُ لأوّل مرّة رحيل شخصٍ أحبّه. كان يؤلمني في مكانٍ عميقٍ هذا الخواء تجاه فقدي الكبير في الماضي. لا صورة لأمّي أو أبي أو ربّما إخوتي تطفو في الذّاكرة، وكأنّ كلّ شيءٍ دُفن مع ركّاب المركب عام ٢٠١٤. بعد الأستاذ علي لم أحبّ أيّ معلّم، كان واحدهم يبقى شهرًا على الأكثر، وأطالب بتغييره. كنتُ أشعر بأن علاقتي بهم نفعية، أنا كي تتحسّن لغتي، وهم من أجل المال الوفير الّذي تدفعه ماما ساتي لهم. كانوا من جنسيّاتٍ مختلفة: عراقية وفلسطينية ولبنانية وسورية. الأسئلة التي كنتُ أطرحها عليهم بخصوص سوريا كانت تحظى بإجاباتٍ سطحيّة وغير مقنعة ومتناقضة فيما بينهم، الأمر الّذي شتّتني أكثر. بعد أن تمكّنتُ من اللغة العربية جيّدًا، طلبتُ من ماما ساتي إيقاف الدروس نهائيًا. كنتُ حينها في الثانية عشرة. من وقتها صرتُ أتابع ما كُتب عن سوريا في الإعلام والكُتب ووسائل

التواصل الاجتماعي. ذلك كلّه فاقم شعوري بالضياع، صرتُ وكأنني أتأرجح على حبلٍ معلّقٍ بين قمم جبال تروودوس، وما من حقيقةٍ تمدّ يديها، لتتلقّفني. تدريجيًا انقشعت الغيوم في رأسي، لتسطع فكرة الذهاب إلى هناك، إلى حيث أنتمي. حين صرتُ في السابعة عشرة، فاتحت ماما ساتي بالموضوع. شهقتْ واضعةً يدها ذات العروق النافرة على صدرها، لم أرها شاحبةً بهذا الشكل من قبل، عيناها كبرتا محاولتين ابتلاعي أنا وتلك الفكرة المدفرة. لم أخشَ تهديداتها المبطنة، بأنني لو ذهبتُ، قد أعود وأجدها جثةً هامدة. خفتُ فقط من تحوّلها إلى هذا الشكل بسببي. أرجأتُ الموضوع، وتجنبتُ الحديث عنه. لكن، بعد ثلاث سنوات، اتخذت قراري بالذهاب من دون أن أقول شيئًا لأيّ أحد.

في صغري حين علمتُ أن اسم "لارنكا" قادمٌ من القبور الكثيرة الموجودة تحت تربتها، فكّرتُ بأن أهلي أيضًا صاروا جيرانًا للأموات الّذين أعطوا للارنكا اسمها، وأعطوني حياةً جديدة، حياةً لم أتخيل أن أقف فيها اليوم شاهدةً قبرٍ بركبةٍ معطوبة، توزع الزجل الوحيد الّذي أحبّته، من دون أن تضع على قبره باقة من الأقحوان والزنبق الأبيض، كما يفعلون في بلادها، أو من الآس كما يفعلون في بلاده التي كانت بلادها. شاهدة قبرٍ تغصّ بكلمة "بلاد" كلّما حاولت ردّها إلى أهلها.

---

*) قفة جبل عارومة معروفة محلّيًا باسم (قلعة عروبة).

أوراق غيم حداد - الاختطاف

حمص/ ٢٠١١

أواخر ٢٠١١ في تشرين الأول أو الثاني، لا أذكر تمامًا، أنا متأكدة من أن ذلك حصل قبل كانون الأول. في ذاكرتي، ترتفع أشهر كريسماس الأعوام المنصرمة كاللصاقات الملوّنة التي نعلّم بها صفحات الدفاتر والكتب، مؤذنةً دورها ببراعةٍ، كفواصل زمنية: قبل تزيين الشجرة، بعد فك الشجرة. نزيّنها في ٤ ديسمبر من كلّ عام، يوم عيد القديسة بربارة، نحتفل به عادةً بشكلٍ مشابه لاحتفالات الهالوين الغربية، أطفال الحي يتنكّرون ويخرجون إلى الشوارع والحفلات، جورجيت تسلق القمح، ترش على وجهه السكّر المطحون وجوز الهند، تزيّنه بالزبيب والمكسّرات وخبيبات الحلوى الملوّنة، نسقي الطبق بربارة، نفسه يقدّم عند الاحتفال بخروج أوّل أسنان الطفل، ويسقى حيتها سنونية. كنتُ آكل وجه الضحن فقط. بالتأكيد أمّي جورجيت تحفظ هذين التاريخين بدقّة، بالأحرى تحفظ أحدهما، الحادثة الأولى لم تسمع بها إلى اليوم (لطالما كنتُ متكتّمةً في المنزل، وكان ذلك يضايقها. أخبرتكم بأنني فتاة صامتة؟). أتحدّث هنا عن حادثتي خطف طائفي، تعرّضتُ لهما، تفاصيل الحادثتين ليست بغرابة ما أنقذني منهما. أدين لاسم أمّي بنجاتي (هذا بافتراض أن صفة "الناجي" تنطبق عليّ). اسمي كما تعلمون غيم حداد، هل ذكرتُ كنيتي سابقًا؟ هي لا تعني أيّ شيء، أقصد من وجهة نظر الشخص الّذي يفتش عن انتمائك المناطقي أو الطبقي أو الطائفي (وهو الأهم)، يعني من وجهة نظر معظم أفراد الشعب السوري اليوم، وربّما من وجهة نظر العالم بأسره (أكاد أموت من الضحك). اسم والدي (فارس حداد) اسمٌ حياديٌ أيضًا، حسنًا خانتني الحميدية، ولكن هذا لا يؤكّد بشكلٍ قاطع انتمائي إلى الطائفة، ولا إلى الديانة حتى، تلك التي يشير إليها اسم أمّي بقوّة. في المزة الأولى، كنتُ في السرفيس الأبيض (أم كان لونه كحليًا؟، لا أستطيع التحديد) شاردةً أترنّح بين الصحو والغفو، أظنّ أننا كنّا على أطراف المدينة حين زعقت الفرامل كابحةً معها سيل أفكاري. توزّع عددٌ من الرجال الملثّمين حول السرفيس، موجّهين فوّهات أسلحتهم إلى النوافذ (بنادق روسية غالبًا). أحدهم فتح الباب بعنف، وصرخ فينا "هوياتكن بسرعة". أخذها معه، غاب قليلًا، ثم عاد، ونادى على أربعة أسماء (ربّما خمسة) كي تنزل. ثم أمر السائق

بالذهاب بسرعة قبل أن يطخ الكل. في طريق العودة تعالى صوت النحيب، وفاحت رائحة بول، لا أعرف من خاف إلى هذا الحد، هل هنالك أحد في العالم يخاف أكثر مني؟ حين أروي هذه الحادثة، أرويها كأنني شاهدتها داخل شاشة ما، وليس كما كنت فعلًا أحد أبطالها، أبطالها؟ لا، كنت مجرد كومبارس، أدوار البطولة هي للقتلة والقتلى فقط. المهم لا أستطيع استعادة حالتي حينها، كنت كالنافذة، أحدهم فتحني وأغلقني ووجه فوهة بندقيته علي، هل نستطيع معرفة ما أحسّته النافذة؟ لا، طبعًا. أستطيع بصعوبة تذكر أحاديث متداخلة، فهمت منها أن المخطوفين من الطائفة السنية (ربما هذه المرة كانوا من الطائفة العلوية، وفي الثانية من السنية، أيضًا لست متأكدة) فعلٌ ورد فعلٍ، أو ربما رد فعلٍ على فعلٍ، ثم رد فعلٍ على رد الفعل، لا أدري ماهية الفعل أو رده، خطف أو تكسير محلات أو تصفيات أو تمثيل بالجثث، لا أعلم، هذه الأحداث التي كانت تحصل في حمص صارت كالخيوط المتشابكة من الصعب أن تفصلها عن بعضها البعض، من الصعب أن تفهم شيئًا أو تؤرشفه، على الأقل هذا صعب بالنسبة لي. حافظت على صمتي، ولم أخبر أحدًا بالأمر، بدوت تمامًا كنافذة سدوا فمها بعوارض خشبية. في المرة الثانية، علم أهلي بالموضوع، تقريبًا تكرر المشهد (بعد أسبوع أعتقد)، بعد الحادثة الأولى، لم أعد أشرد، بل على العكس، كنت يوميًا أترقب تكرار المشهد، لا أعرف كيف استطعت الخروج من المنزل، وأنا أعلم أنني سأتعرض لذلك مرة ثانية، هي أمور لا تستطيع أن تكون على يقين منها، لكنني كنت متأكدة! ربما أخجلني الهروب من أمر قدري. لكن، كيف يكون قدريًا وأنا أنتظره؟! ويحصل أيضًا؟! أصلًا في ذاك الأسبوع، كنت كالمنوّم مغناطيسيًا، أحدهم يحزكني، ويجعلني آكل وأنام وأمشي وأجلس في الحافلة التي تخرج يوميًا نحو احتمالات خطفها الوفيرة، وهذا الذي يتحكم ليس إلا أنا المنوّمة مغناطيسيًا، وأحدهم يتحكم بها ليس إلا هي .. إلخ. طيب، كنت أقول إن أهلي علموا بالموضوع، كان كبيرًا، والجثث المرمية في الشارع لا تحتاج صوتي، كي يدلّ عليها. في هذه المرة أنزلونا من الحافلة، صرنا كلّنا نوافذ بفوهات بنادق موجهة إلى ظهورنا، وجوهنا مقابلة لجدار في حيّ، لا أعرفه، أمام عيني خُط اسم "أروى"، ركّزت فيه، وألهيت نفسي عن انتظار الموت بالتفكير بصاحبة الاسم، هل تخيلت أن يتطاير دم فتاة على اسمها؟ فكّرت أيضًا بالشاب الذي كتب اسمها، هل قبلّها؟ هل أصبح قاتلًا؟ سمعت ثلاث طلقات، أجل أنا متأكدة هذه المرة، طاق .. هدوء .. طاق .. هدوء .. طاق، ثم اقترب رجلٌ مني، وسألني: "أنت مسيحية؟" كنت أود أن أجيبه "لا، أنا

نافذة مثلهم"، لكنني قلت له نعم، (الذي لم أقله هو "نعم أنا فرق العملة، أنا العدو المؤجل، أنا الرقم الذي يُحذف بعد الفاصلة"). طلب مني أن أتلو له "أبانا الذي في السماوات"، للحظةٍ كنت سأسأله: هل تريدها على الطريقة الأرثوذكسية؟ أم الكاثوليكية؟ لكنني تلوتها بصوتٍ خافت مرتجف، سمعت صوتي يرتجف، ولا أعرف كيف، بشفاهٍ مهتزة، بصق المسامير وتحرر من العوارض الخشبية، وخرج، إنها قوة الخوف، لستُ أنا من قال الكلمات، الخوف فعل، هل الخوف كاثوليك؟ لا أذكر. كانت آخر مرة أعود فيها من المشتل، أو يُغلق عليّ أي شيءٍ يتحزك على دواليب في شوارع حمص، باستثناء السيارة التي خرجتُ بي من المدينة، ولم تُعدني بعد. حتى بعد أن عشتُ في اللاذقية التي تُعدّ مدينة آمنة نسبيًا، تجلبتُ ركوب وسائل النقل العامة، وفي المرات القليلة التي ركبتُها، صرتُ أنتظر من سيوقف الباص، وينزلني، كنتُ مؤمنةً بأن المرة الثالثة ستكون الأخيرة، وسيفقد اسم "جورجيت" فعاليته، بعد أن تتمّ تصفية الأسماء الأخرى.

أيام وادي قنديل - اليوم الأول

وادي قنديل/ سوريا/ شباط ٢٠١٤

رحتُ أراقب مشيته من الخلف، تلك التي توحي دائمًا بعجلةٍ في الأمر، لرجلٍ يعرف تمامًا الوجهة الصحيحة. رمى عقب الشيجارة في صفيحةٍ على بُعد مترين مني، وعاد مبتسمًا يسألني:

- متى تكفّين عن ذلك؟ أتتوقّعين أن تجدي بعد ما يستحقّ أن تُهدَر من أجله هذه النظرات؟

حزكث كتفي برفقٍ مَن يهدهد لملاكيه المدثّرين بملاءةٍ تحجب الحسنات والسيئات على حدٍ سواء:

- لا أعرف رجلًا غيرك يدخّن هذا الصنف، أخاف إن التقيتُ واحدًا أن أحبّه.

نظر إلي بلؤم، زمّ شفتيه الجميلتين حابسًا شتيمةً، كادت أن تنفلت، ثم فردهما مغيرًا الموضوع:

- المشكلة أنني أحبّك، يا بنت، وإلاّ فما الّذي يجبرني على احتمال سماجة أصدقائك؟

- هم أصدقاؤنا، وليسوا أصدقائي فقط.

أخرج لفافةً جديدةً، رفعها أمام عينيه، ونظر إليها، كما لو كانت حزمةً سيبقر بها بطونهم:

- لا يهمّني أحدٌ سواك، إن لم يأتوا قبل أن أطفئ هذه السيجارة، نذهب وحدنا. لولا أهميّة ما اتّفقنا عليه سابقًا، لما انتظرتُهم دقيقةً واحدة، بالمناسبة، كم الساعة الآن؟

- ما حاجتنا إلى السّاعة بوجود جملتك الشهيرة "حين تنتهي السّيجارة"؟!

وصول ميسم وعروة قاطع ضحكنا. مثل عذاءٍ خاسرٍ يكلّم منتظريه عند خطّ النهاية، شرغث ميسم تلهث

وتعتذر، محفلةً نفسها مسؤولية التأخير، بسبب كثرة الجرحى في المستشفى إثر الصاروخ الذي أصاب البارحة بناء وسط المدينة (تعمل في المستشفى طبيبةً متدربة)، ثم اقتربت نحوي، وسلّمت بحرارتها المثقدة دومًا.

ضحكةُ ريحان لعلّعت في الكراج معلنةً قدومها برفقة صالح وجنى. وسط جلبة الترحيب والعتب والتبرير وصل السرفيس الذي سيقلّنا. جفعنا الأمتعة على المقعد الخلفي، جلس أنس قرب السائق، وتوزّعنا على المقاعد التي تفوح من جلدها رائحة تاريخ من السفر. أرخيت رأسي على كتف ميسم مستسلمةً لمزاج الطريق: هواءٌ يدخل من شباك السيارة ينكش شعري، ويُحدث خشخشةً في أكياس الخضار، الإصغاء لموسيقى، هي مزيج من زمامير مجانية وقرقعة محزك الحافلة والأغنية الزخيصة التي تنبعث من مذياعها، التوقّف لشرب قهوة سريعة ورديئة من كشك على جانب الأوتستراد، مراقبة أشجار متنوعة تهرول عكسنا، تُسابقها لافتات وأسهم مهملة، كما لو كانت تشير إلى قرىً مهجورة، نظرة قلقة أتركها عند حادثٍ بسيطٍ على طرف الطريق وتجمّع الرجال حوله، نظرات أخرى تتقفّى عبارات على الجدران، وتترك وردةً على جملة "يا سلوى، يا بنت الكلب، بحبك" كُتبت على منصّف الطريق السريع بخطٍ يقلّد الوداع، نظرة تألف العزلة تصفر داخل محطةٍ وقودٍ مقفرة، نظرات تتدحرج مع حبات بندورة تفلّتت من شاحنة، المفضلة لديّ تلك النظرة الساهمة المنتصبة هناك بين الغيوم، على رؤوس الجبال البعيدة الغامضة. فكّرتُ بأن آخر ما نهتمّ به نحن - محبي الطُرُقات - هو الوصول. أغمضتُ عينيّ قليلًا متجاهلةً حديث ريحان الصاخب، ضحكات البقية وتعليقاتهم الساخرة، وقلّبتُ مطوّلًا أمر تجاهلنا قصة الصاروخ، لم يخطر لنا أن نسأل عن عدد الضحايا حتى، صار هذا الحدث اعتياديًا إلى حدٍّ كبير، لم نتعامل معه إلاّ بصفته أحد أسباب تأخر ميسم. ما عنيته هو موقفنا كجماعة، وليس موقفي كفرد، اسمه "غيم".

منذ بداية الأحداث في مدينتي حمص عام ٢٠١١، أخذتُ قرارًا بالحفاظ على آدميتي مسلّحةً نفسي بالخوف. كنتُ أتخبط وحدي بين جدران حيرةٍ معتمة حين رأيتني داخل مرايا متقابلة أتكاثر مجموعة نساءٍ ينتظرنني أن أقول شيئًا، أن أخرجهنّ إلى ضوءٍ ما، أصدرتُ كحّةً كصافرة لانطلاق الخطاب:

- أن تعشنّ ظروفًا غير طبيعيّة، هذا لا يعني تحوّلكنّ إلى نواشز، أصوات الرّصاص وإن كانت بعيدةً إلاّ أنّها تقول شيئًا، أنتنّ تسمعنّ ما تقوله بوضوح، لا تُنكرنّ ذلك، إنّه الموت! هل يعقل أن تتأقلمي أنتِ وهي مع وجوده خارجًا؟ يحصد أرواحًا تسكن في مكانٍ قريب، في مكانٍ بعيد، لا فرق، تعلمنّ أن مفاهيم البعد والقرب قد تغيّرتْ، هذا البعيد قد يكون على مسافة شارعين وحسب. فليكن الخوف هو السكّين التي تضعينها تحت وسادتكِ، لم نعد نملك غيره، يا رفيقات، وليكن خوفًا مسنونًا يذبح. تصفيق.

لا أدعي أنني شجاعة اختارت أن تلبس ثوب الخوف الضيق، لتتبختر به خلف المتاريس، لا، أنا جبانة تاريخيًا، أحيانًا أحاول أن أحصي الأمور التي لا تخيفني، أرتعب، أكاد لا أجد شيئًا. لكن، هنا وعيي موافقٌ على هذا الخوف، سفيئه "الخوف المشروع". الناس، أقصد الجماعة، يرون أننا كي نستمرّ هنا علينا التأقلم، التأقلم الّذي يقصدون به القبول بالموت شريكًا في المواطنة.

وصلنا حاجز التفتيش، أيقظتني ميسم، كي أبرز هويتي، حين أعادوها إليّ، تأملتها طويلًا، وخاصةً خانة العلامات الفارقة، مستغربةً أنها ما تزال تشير إلى "تاءٍ"، بعد أن عبثتُ بها أصابعٌ لا تُحصى خلال السنوات الماضية.

انعطفنا نحو الطريق الترابي، على جانبيه مرّت أشجار اليوسفي ببطءٍ عبر النافذة، الطريق متعرّج، والحافلة تهتزّ، فتصعد وتهبط معها حتى أشجار السّرو والبلّوط

الضخمة التي تلف جذوعها بمعاطف من اللبلاب، حاكتها الشئون الطويلة. تجاوزنا أحراشا مبتهجةً بصفرة ليمونها وبرتقالها الشهي، لتلاقينا أشجار الزيتون الكئيبة، وكأنها للتو ودعت يسوعها، نهر زغرين يجري بخجلٍ داخل سريرٍ ضيق، بالكاد يُصدر صوتًا، بسيقان القصب الخفيفة ونباتات المكنس المهتزّة على طرفيه يحاول التخفّي، ربما خجلًا من شكله الّذي صار أقرب إلى ساقية. طفتْ على وجهه طحالب مثل آثار كدماتٍ قديمة. الصّبار يعمل سورًا شوكيًا لمساكب السّبانخ وكرات الملفوف المصطفة كالعساكر ضمن أرتالٍ منتظمة. ثمة بقرةٌ وحيدةٌ في البعيد تمضغ العشب المبتلّ، ترفع رأسها نحونا، وتخور برفقٍ، بدتْ وحمةً مرقّطةً على جلد المشهد. الزمن في هذا الطريق الترابي يبدو أطول، لكن، بطريقة جيدة، وكأنّه – مثلي - لا رغبة لديه بتجاوزه. البحر يظهر ويغيب، ذلك الطفل الأزرق يقفز ببهجةٍ وهو يلاقي زوّاره القادمين من بعيد. مثل سجّادةٍ ملفوفةٍ راح الشاطئ ينفرد مع اقترابنا، حتى وصلنا إلى آخر نقطة، تستطيع الحافلة دخولها، خلف الشاليهات التي سننزل ضيوفًا عليها.

استقبلتنا فتاةٌ بيضاء نحيلة، تلف رأسها بشالٍ بنفسجي اللون مطبّعٍ بأزهار خضراء صغيرة، ترتدي فستانًا طويل الكمّين، زيتي اللون من الصوف المشبوك، يصل إلى الأرض، به مسحةٌ من أوروبا، واضحٌ أنّها اشترته من البالة، واضحٌ أيضًا أنه أكبر من مقاسها بنمرتين، لذا بدت وهي تتحرك داخله مثل سمكةٍ تتخبط في مقلاة. تتكلّم بسرعةٍ، وكأن عليها حشر أكبر عدد من الكلمات في آذان مستمعيها. سرنا خلفها، وهي تشرح لنا عن الشاليهات ماسكةً حلقةً معدنيةً كبيرةً وصدئة، تجمع عددًا من المفاتيح، تدور سبابتها داخل فراغ الحلقة مثل سجّانٍ في جولة تفقّد. شعرتُ بشيءٍ خاصٍّ تجاه هذه الفتاة ذات اللهجة الحلبية القحّة. ليس صعبًا أن تُدرك أنّها نازحة. اللهجة لم تعد تشير إلى أصلك فقط، بل إلى أسباب وجودك في المكان أيضًا. استغربتُ أنّها تلفظ

حرف القاف مفخمًا بشكلٍ يُشبه لفظ أهل الجبل له، أول مرّة أسمع شخصًا يتكلّم الحلبية بقافٍ واضحة.

صحيح أن أنس غادر المدينة قبل ما يزيدُ عن خمس عشرة سنة، لكن، يحتاج الأمر أن يُمسك الهاتف، ويكلّم أحد أفراد عائلته، أو أن يلتقي شخصًا كحنان حتى تبدّل كلماته ثيابها البيضاء الخفيفة، وترتدي القمباز الحلبي. غريب كيف يمكن للمُدن أن تختفي وتترك آثارها عالقةً على ألسن أبنائها أنّى ذهبوا.

أحبّ في هذه المنطقة محافظتها على حالتها البِكر، لم تعبث بها يد البشر تاركةً ندوبًا بيتونية على صفحة وجهها الفاتنة بعد، كما فعلت في أماكن أخرى، فما يطلق عليه اسم شاليه ليس إلاّ شقّة بسيطة، مبنية كيفما اتّفق. وقع خيارنا على شاليه كبير مؤلّف من غرفتَي نوم وصالة. صالح وجنى اتخذا لمنامتهما كوخًا خشبيًا صغيرًا ملاصقًا للشاليه، وهذا أعجب الجميع، لا أحد منّا يستطيع الشعور بالرّاحة، بينما أحلام صالح تشاركه السّقف ذاته. ريحان أو ريشة -كما تحبّ أن نناديها - رمتْ حقيبتها في منتصف الصّالة، واستلقتْ على الأريكة، من دون أن تناقشنا في الموضوع. أنس اختار لنا الغرفة الدّاخلية، لأن لها شبّاكًا، هو يمقتُ الأماكن التي لا يدخلها الهواء، يقول "كيف نسلّم أنفسنا لشيء لا يتنفّس؟". يحاول عروة دائمًا إظهار زهده بالأمور المادّية، أمّا ميسم، فتراعي رغبات الآخرين عمومًا، ورغباتي أنا خصوصًا، إلى حدٍّ يجعلني أرتبك، لذا كان من الطّبيعي ألاّ يعترضا على الغرفة الوسطى ذات الجدران الكتيمة والرّطوبة الواخزة.

نظّفتْ ميسم الحمّام، وعقّمته بهوَسها المعتاد (أتخيلها دومًا تحمل قارورة الدّيتول كمسدّس على خصرها)، بينما فردتُ بسرعةٍ ما جلبه أنس من بقالة في المطبخ، فكمّية الطّعام لا تتجاوز ما يحتاجه اليومان اللّذان اتّفقنا على قضائهما هنا.

كان الطقس بارداً بشكلٍ مقبول مع نسمات خفيفة تعطي شعوراً لذيذاً، البحر ارتدى طقمه الكحلي الأنيق، كأنه ذاهب لحضور عرس، خلعتُ حذائي الجلدي وجوربي، وسبقتُ أنس إلى أول الماء، حيث أحب أن أمشي وتغور قدماي في الرمل الزمادي المبلول، لتأتي الأمواج برغوتها التي تفور، ثم تهدأ، وتأخذ إغفاءةً عليهما.

- أخ، الماء بارد. أنس .. هل نفعل الصواب؟ أنا خائفة.
- لا تخافي، فقط اكتبي.
- طيّب، انظر إلى السماء، لا شيء يوحي بقدوم العاصفة.
- العواصف الحقيقية لا تعترف بالمواعيد، مثل الحب الحقيقي يهب دوماً في مواقيت مخالفة لكلّ توقّعاتنا عنه. أمّا تلك العلاقات التي تنبأنا بها وأسميناها حبّاً، فليست إلاّ وهم الحب، أو فلنقل هي رغبتنا بالحب. الأمر ينطبق على كلّ أنواع العصف.
- لا أدري، لم أفكّر سابقًا في الأمر، دومًا في الحب أنسى فكرتي السابقة عنه، تتلاشى تمامًا، وأنجرف بكلّيتي إلى حيث يشاء، وفي كلّ مرّة يزيل آثار كلّ ما سبقه، ويصير كأنه الحب الأوّل والوحيد الّذي لن يهزّه شيء. ثمّ ينسحب منّي بسهولة نسل خيط من كنزة، من دون أن يترك تغييرًا مرئيًا، لذا تجدني لا أشعر بالحنين لأيّ رجل غادر حياتي.
- أنتِ مخيفة.
- لا، لا، معك الأمر مختلف. لا أعرف كيف سأصيغ ذلك بعبارة لائقة، ولكن جوهر الأمر هو أنك لا تُبكيني.
- ها؟ ربّما أفعلها.
- غليظ.

- على كلّ الأحوال قد تكون العاصفة مجرّد شائعة لا أكثر. لا أفهم كيف نحتفظ بالقدرة على التّصديق في هذا البلد؟ هم يكذبون علينا حتّى في حقيقة وجودنا، ونحن ندرك ذلك، إلاّ أننا نصدّقهم إن حذّروا من الخروج ظهرًا بسبب حدّة الشمس. ما تزال للطّبيعة هيبة، تُكسب المنافقين مصداقيّة.
- الأغرب بالنسبة لي هو أن النّاس ما يزالون يخشون غضب الطبيعة أكثر من أيّ شيء آخر. هل تذكر ما فعلته إشاعة حصول زلزال مدمّر أعتقد عام ١٩٩٩؟
- هاهاها، كان الأمر كوميديًا جدًا، هرع النّاس بملابس نومهم إلى الشّوارع والحدائق والبراري. نحن شعب مسكين بحقّ.
- أجل مساكين جدًا، أعرف امرأةً أعطت طفليها منوّمًا يوم الكسوف، خوفًا عليهما من الخروج والتّحديق في عين الشمس التي ستسلبهما نظرهما برأيها.
- أناس بهذه البراءة، كيف يستطيع الوحوش تشريدهم وقتلهم وسلبهم حياتهم البسيطة؟
- آخ.. هذا يفضي إلى ما أردتُ قوله: البشر مخيفون أكثر من أيّ كارثة طبيعية. لو خيّرتُ بين أن أموت وأنا أدور داخل دوّامة وبين أن يحزّ عنقي رجلٌ، لاخترتُ أن تبتلعني الدوّامة بالطّبع.
- أنتِ لا يمكن أن تموتي. هذه حقيقة.
- همم. لم؟ آه، صحيح، ستخلّدني أعمالي الأدبية التي لم تُنجز بعد. هل أموت من الضّحك الآن؟
- لا، أقصد أنتِ غيم، وليس اسمك الّذي أحبّه أيضًا.
- ما في بوسة؟

****

مضى أول يوم سريعًا، ما بين تحضير سندويتشات من الجبنة البلدية البيضاء والزعتر الحلبي واللبنة والتهامها بسرعةٍ لشدة جوعنا، تبادل الأحاديث على الشرفة في أثناء شرب الشاي بالقرفة، تأمل الغروب، السير على الشاطئ، تجميع الأصداف والحجارة الملونة. كانت لتكتمل ملامح الأجواء البحرية المألوفة لولا تلك الثية التي حملتها معي (أو حملتني) إلى وادي قنديل.

أوراق غيم حداد - سينشيا

حمص/ صيف ١٩٩٩

معظم العائلات الحمصية لديها على الأقل قريب يسكن إحدى الأمريكتين، سينشيا هي حفيدة ماريانا (ابنة عم جدي) التي رافقتها برحلة من البرازيل لزيارة البلد الذي تنغرس في تربته شجرة عائلتهما، هكذا من دون أي إنذار أو رسائل متبادلة سابقًا، رن جرس البيت معلنًا وصول العجوز ذات الوجه الأسمر المغضّن برفقة صبيةٍ متوسطة الجمال، شعرها قصير، واسمها غريب "سينشيا". ماريانا نامت في بيت جدي، وسينشيا على سريري. لا أعرف لماذا قزحت سينشيا الآن قرع جرس ذاكرتي بشكلٍ مفاجئ، كما فعلت عام ١٩٩٩، ربما لأنها أول شخص رأيته وهو يكتب مذكراته، ثاني شخص هو أنا، الآن أفعل ذلك في وادي قنديل، ولا أعلم إن كنتم ستقرؤونني! كنت أتفاهم مع سينشيا بالإنكليزية، وأرافقها في مشاويرها. تبزع كلّ رجال العائلة لتولّي أمر سياحتها، تدفعهم تلك النية المضمرة بالزواج منها (هذه كانت أسهل طريقة للسفر، لم يعد الأمر في متناول الجميع، كما كان على زمن والد ماريانا). في أحد المساءات، كنا نمشي في شارع القوتلي (يفصل بين الساعتين القديمة والجديدة) بمحاذاة محال الضرافة والحلويات تحت فندق قصر رغدان الأثري (سينشيا أغرمت به)، انتقلنا إلى الضفة الثانية من الطريق بناءً على طلبها، التقطتْ لها صورةً عند الزاوية أمام بناء المتحف ذي الطراز الفرنسي (مبنى البلدية القديمة)، وصلنا ساحة السرايا، كنا مقابل الساعة الجديدة، قرب مقهى الفرح، سينشيا أحبت رائحة التبّاك المنبعثة منه، سألتْ أن ندخل كي تجلس في هذا المقهى الحجري الأسود ذي القناطر الخمس والرائحة البديعة، أخبرتُها بأننا لا نستطيع، لأنه مقهى للرجال فقط. فتحتْ عينيها الصغيرتين على اتساعهما (بقيتا صغيرتين)، ولم تناقشني، اقترحتُ عليها تجريب النرجيلة في مقهى الزوضة المجاور له، جلسنا في جناحه الضيقي (قسم العائلات)، تسلّل الزمل الأحمر إلى أقدامنا من صنادلنا المفتوحة، وأكلنا فتة حمّص بالسمن البلدي. أخبرتُها أن جدّي (قريب جدّتها) حضر حفلًا لمحمد عبد الوهاب في هذا المقهى. في الليل، أخبرتني سينشيا (كانت متوغكة) أنها كتبتْ في مذكراتها: "في سوريا ثمة مقاهٍ لا تستطيع النساء دخولها، احذروا أكل صحن الفتة كاملًا مهما كان شهيًا"، أزعجتي

ألها لم تذكر قصة جذي وحفل عبد الوهاب. بعد سنوات، صرتُ أرى سائحاتٍ يجلسنَ تحت الشماسي على طاولات الرصيف التابعة لمقهى الفرح ذاته، وأتذكر سينشيا مع وخزة ضمير خفيفة. مرّةً اصطحبناها إلى السوق المسقوف، تمشينا على الحجر المرصوف، تحيط بنا من الجانبين محلات الأقمشة وبسطات الملابس الداخلية التي تعرض مفاتنها للمارّة (سينشيا وجدتْ ذلك غريبًا)، مررنا بسوق العطّارين، لفّتنا روائح متداخلة من البابونج والورد الجوري والتوابل والعطورات، اشترينا قوارير صغيرة، تحوي زيوت القرفة والنعناع والزنجبيل، وقفتْ سينشيا رافعةً رأسها نحو خطوط الشمس القادمة من إحدى فتحات قباب السوق، مغمضةً عينيها الصغيرتين، كأنّها تعبّ ما استطاعت من المكان، قالت "سوف أحتفظ بهذه الرائحة في صدري إلى الأبد، سأسميها رائحة سوريا". من أحد المحال في سوق الأزرار والكلَف كانت تنبعث أغنيةٌ بصوت صباح فخري (يا مال الشام)، فَرَدتْ سينشيا ذراعيها، وصارتْ تفقّش بأصابعها، من دون تفكير وجدتُني أصرخ بها: no, stop please! ، ثم اعتذرتُ منها، وشرحتُ لها أننا لا نرقص في الشارع، هذا يُعد shame/عيبًا هنا. في الليل، كانت تكتب مذكراتها كالعادة، سألتُها: تكتبين ألهم في سوريا يعدون الرقص في الشارع shame ، صحيح؟ صارت تضحك، وقالت: yesss!!. اقترحتُ عليها أن نذهب إلى المسبح العائلي في حي الوعر، رفضت، لأنّها ظنّت أن لبس المايوه الّذي جلبته معها من البرازيل غير لائق لدينا (كان قطعةً واحدة، ظهره مكشوف بالكامل، يُربط خلف الرقبة بخيوط)، أخبرتُها بأننا نلبس البيكيني! وهذا فاجأها أيضًا. في شارع "أبو الهول"، قرب حمام الباشا، أوقفتْ سينشيا مجموعة نساء منقّبات، وطلبتْ منهنّ التقاط صورة معها، الغريب أنهنّ وافقن، وكنّ يضحكنَ كثيرًا من هذه الأجنبية التي تلبس شورتًا، وتريد أن تتصوّر معهنّ، هذا أحرجني. اليوم أجده طريفًا. سينشيا كانت تفزع من زمامير السيارات، تسد أذنيها بيديها، وتكشّر، فتصير شبيهةً بحيوان الكوالا، أذكر أنني سألتُ فارس: "أليست البرازيل من دول العالم الثالث أيضًا؟ لماذا لا يطلقون زمامير سياراتهم مثلنا؟" صار يقهقه عاليًا، وقال لي "تعي، هاتي بوسة"، من دون أن يُجيبني. الأحاديث التي كنتُ أحبّ فتحها مع سينشيا كانت حول فريق البرازيل، خاصةً أن زيارتها أتتْ بعد سنة من مونديال ١٩٩٨، حاولتُ كثيرًا معرفة رأيها برونالدو، إلا أنها لم تُعره اهتمامًا، قالت: "نحن نحب بيبيتو (مقلّدةً رقصة حمل الطفل الشهيرة التي اخترعها في مونديال ١٩٩٤)، ونكره روماريو المغرور" (لماذا تتكلّم بالسوء عن روماريو الّذي كان محرومًا من المشاركة في المونديال الأخير؟

شعرتُ حينها بأنها تملك قلبًا حاقدًا، ما جعلني أتوجس منها). اختفت أخبار سينشيا بعد أن سافرت، لم تتزوج أحدًا من رجال العائلة بالطبع، لم تصل إلى بريدنا رسالةٌ واحدة منها، ولا أي شيء، زيارتها إلى ذاكرتي الآن هي الوحيدة، زارتني ومعها رائحة سوريا التي كادتْ تتلاشى من هواء الذاكرة العاصف. سوريا؟ أشعر بالغرابة حين أخطّ هذا الاسم، صرتُ أتجنب كتابته حتى في سيرتي الذاتية (التي لم تعد تلزمني في شيء)، أفضّل أن أشير إليها بالبلاد، وكأنها بعيدة ومجهولة. المؤلم أنها كذلك فعلًا "بعيدة ومجهولة".

حمص/ ١٩٨٧-٢٠١١

في زحمة أحداث الأيام السابقة، نسيتُ أن أحدثكم عني، أقصد عن تلك الفتاة التي ما أزال أحمل هويتها داخل حقيبة يدي. الفتاة التي لم أعد أشبهها بأي شيء، أو ربما بالشكل قليلًا، هكذا يردد كلّ من حولي، كما لو كانوا سرب ببغاوات دائمًا يحبون تكرار الأمور ذاتها، ومن بينها أن شكلي لم يتغير. لكنهم أخبروني أشياء مزيفة كثيرة، لم لا يكون هذا أحدها؟ ليس مهمًا الآن: "غيم" اسمٌ صغيرٌ لفتاةٍ من أبوين بسيطين، وصلت في عربة عام ١٩٨٧ إلى مدينةٍ وديعةٍ من العالم، مدينة سيذكرها العالم كثيرًا بعد ربع قرن من وصول تلك العربة، مدينة كانت تتحرك بهدوءٍ وسط بلدٍ يُدعى سوريا. وصول غيم حصل بعد سبع سنواتٍ من زواج والديها ومخاضٍ شاق، لذا صارت الفتاة حدثًا عظيمًا في حياة فارس حداد وجورجيت معتوق. يبدو أنني (أقصد تلك الفتاة) عرفتُ باكرًا جدًا أن خروجها إلى الحياة سيكون أكبر أخطائها، لذا لا تفتشوا عن الندم داخل جيوبها. لم تكن مجرد ابنة، بل حدثًا عظيمًا، كما أخبرتكم، الأمر الذي سيجها بوحدةٍ شائكةٍ، إلى اليوم تدميها بطرقٍ مختلفة. الاسم الصغير الغريب ظلّت أمها تحوكه وتكزه طوال أعوام الانتظار السبعة، إلى أن زارتها في المنام طفلةٌ مدثرةٌ بالغيم كنبوءةٍ تحققتْ بانتفاخ بطن الأم. جورجيت قضتْ لفاشها تروح وتجيء مقرّبةً أذنها الصغيرة (التي أورثتني إياها) من أنف رضيعتها (التي تبقى معظم الوقت نائمة) كي تطمئن إلى صعود وهبوط أنفاسها. كانت تلك محاولاتٍ يائسة من غيم لإيهام الحياة بأنني غير موجودة. حياة غيم عبقتْ برائحة الشمع الذائب أمام صور العذراء مريم المعلّقة على جدار ممرٍّ طويل، تجري عتمته بين غرف المنزل، والموضوعة فوق تلفاز غرفة المعيشة، على شوفنيرة غرفة النوم الكبيرة، بين قطع الكريستال خلف الدرفات الزجاجية لدريسوار الصالة، وعلى رفوف مكتبة غرفة النوم الصغيرة التي ظلّتْ شاغرة لسبع سنوات. جورجيت لم تتوقّف يومًا عن إيقاد الشموع وابتكار النذور لكلّ القديسين الذين تعرفهم، لا تحتاج سببًا كي تناجيهم، صاروا أصدقاء دائمين لربة المنزل التي قسمتْ حياتها بين ابنتها وتلاوة المسبحة الوردية. لم تتوقّع أن تخذلها الصلوات، لتنفرط حبات حياة عائلتها بعد سنوات. رافقت الصغيرةُ أمها إلى كنائس حمص

وأديرتها، بمناسبة أو من دونها. كنيسة "أمّ الزنّار" شهدت توهان غيم في شوارع اللغة السريانية العتيقة، كانت تُطأطئ رأسها، وكأنّ التاريخ بجلاله واقفٌ قبالتها، يتلو عليها وصاياه التي أحبتها، ولم تفهمها. الترانيم البيزنطية في كاتدرائية "القدّيسين الأربعين شهيدًا" أشعرتْها برهبةٍ شديدة، كان جسد الفتاة الطريّ يرتجف تحت وطأتها. في كنيسة "الزوج القُدُس" كان الأمر مختلفًا، التراتيل الكاثوليكية كانت الألطف والأكثر قربًا من هشاشة الصغيرة، عبدتْ لها طريق أوّل صداقةٍ في حياتها، صداقة الطفل يسوع. ظلّتْ حتى أواخر عام ٢٠١١ تُداوم على قداسات الأحد، الشهر المريمي وشهر قلب يسوع، كانت تشدّها إلى هناك رائحة البخور مرافقةً انصهار صوتها مع جموع المصلّين، الكنيسة المكان الوحيد الّذي أطلقتْ فيه حنجرتها بالغناء، هي الّتي لطالما بدت للآخرين كترنيمةٍ عالقةٍ على حجارة كنيسةٍ مهجورة. أوّل فكرةٍ هزّتْ طفولتها كانت "مخافة الله"، لماذا عليها الخوف من صديقها، ذلك الطفل الّذي تغفو حوله الخراف؟! ليتبين لها لاحقًا أنّ على هذه الفكرة تحديدًا تقوم الأديان كلّها. الخوف بأدقّ جزئياته بقي يلاحقها كظلّها، ويكبر معها، مع أنّها لا تعرف إن كانت تُعَدّ مؤمنةً على طريقة الكنيسة، أو على أيّ طريقة أخرى، هي تعرف فقط أنها أحبّتْ التراتيل والطفل يسوع ومريم التي تشبه جورجيت في تمثال سيدة فاطيما، حتى سنّ الـ ١٦وفي شهر أيار من كلّ عام كانت تلبس الثوب السماوي الطويل رابطةً الحزام الأبيض المجدول حول خصرها النحيل، مردّدةً:

"يا مرآة العدل
يا كرسي الحكمة
يا وردةً سرّيّة
صلّي لأجلنا[...]"

وفي سرّها: يا للشعر!

بعد أن غادرتْ حمص، رفضتْ استعادة أي شيء يمتّ بصلةٍ إلى طقوس حياتها السابقة، بما في ذلك الكنسية منها، وانطفأتْ جوقات المرتّلين حولها. لم تدرك مدى تعلّقها بحمص حتى أطلقوا أوّل رصاصةٍ على جسد المدينة. لم تلحظ سابقًا الرابط الوثيق الّذي يكبلها بالأمكنة، وأن تلك الأمكنة سرقتْها من الناس، وجعلتها تمعن في وحدتها أكثر. حتى حين تحاول اليوم المرور على قصص حبها، يتلاشى الرجل (الحبيب في القصة)، ويصير الغزل متبادلًا بينها وبين أرصفة الشوارع، طاولات المقاهي

ومقاعد الحدائق. لو رأت جود وزيد مصادفةً في الشارع لن تعرفهما، إلاّ إن بقي لمعان عيني جود يقطع كسكّين حادة، كما يفعل في ذاكرتها. هي تذكر غيرة أولاد المدرسة من شلّتهم الصغيرة التي أسموها "ثلاثي أضواء المسرح" على اسم فرقة الاستعراض المصرية الشهيرة (كانوا يسمعون بها من أهلهم). في ذاكرة غيم تحضر بوضوح باحة مدرسة "القدس" الابتدائية بالصفوف المتحلّقة حولها، وبحجارتها السوداء المرصوفة (ككلّ تقاسيم وجه المدينة القديمة)، بشجرة الأكاسيا الضخمة التي تُزيّن في كل عيد ميلاد بألعاب، جليها الطلاب من بيوتهم. الباحة في ذاكرتها صارتْ هي بطل قصة الحب الأول هذا. فيها أحبتْ جود حين لمعتْ عيناه، فيها أحبها توءمه زيد، واندلعت تلك المعركة التي خرجوا منها بمريولٍ مخزوقٍ لـ زيد، وآثار قلم رصاص، شكّ في خد جود، وأول كدمات تركها الحب في قلب غيم. المعركة التي قضت على شلّة "ثلاثي أضواء المسرح" إلى الأبد. كلّ وجوه الطلاب والمدرّسات والمدير والآذن "عفو أبو أحمد" غير ظاهرة في شريط القصة الذي يَدار مرارًا في ذاكرتها، فقط مراييل صغيرة مقطّعة إلى الأحمر والأبيض، أخرى أكبر منها بمقاس مقطّعة إلى الأخضر والأبيض، مراييل مختلفة المقاسات مقطّعة إلى الأزرق والأبيض، كلّ تلك المراييل تركض وتلعب، تقف في أرتالٍ، كي ترنّد الشعار، تعزف النشيد الوطني في الصباح، تتفرّق داخل الصفوف ذات المقاعد الخشبية ومدافئ الحطب (استُبدلت صوبيات مازوت لاحقًا) والألواح الزيتية اللون وعلب الطبشور الأبيض والملوّن، وبممحاةٍ إسفنجية، يتسابق الطلاب إلى نفض الطبشور عنها بدفْعها بجذع شجرة الأكاسيا، ما جعلني أدرك أنّ الكلام الذي ننساه يخرج فيما بعد على هيئة أغصانٍ غضّة، وهذا صار يواسيني قليلًا في صراعي مع الذاكرة (الذي تشهدون وقائعه الآن). هذه كانت أوّل خطوةٍ في طريق حياتها العاطفية الموحل، عبرتْه على هذا الحال: لا تُغرَم بالآخرين، بل بتفاصيل تخصّهم، أو بما رغبتْ أن تراه فيهم. أحيانًا تفكّر بأنّها فضّلتْ مواصفات، ثم انتقتْ لها صبيةً أو رجالًا. بسبب هذين التوءمين أوّلًا، واهتمامات والدها الكروية ثانيًا، كانت حتى سنواتٍ قريبة (التغيير طال كلّ شيء بعد الـ ٢٠١١) متابعةً جيدةً لكرة القدم، تحفظ أسماء اللاعبين والمدرّبين، تناقش في أخطاء الحكّام (كما يفعل الصبيان)، وتشتري أعلام فِرَقها المفضّلة: البرازيل، والكرامة الحمصي. منتخب البرازيل في حمص مثل الكرامة، تُولَد وأنتَ تحبه. كانت تشجّع "الكرامة" خفيةً عن أفراد عائلتها وسكّان الحي الذين بغالبيتهم يشجّعون غريمه "الوثبة". الفِرَق الرياضية مقسومةٌ بشكلٍ طائفي في كلّ المُدُن السورية

(الجميع يعرف ذلك، ولو أنه كان يحصل بشكلٍ غير معلَن) رغم أن لاعبيها قد لا ينتمون إلى طائفة مشجعيها. لطالما حيرتْها هذه الفكرة. لم تشجّع الكرامة كردّ فعل أو ما شابه، وليس لأنه الأقوى في المدينة تاريخيًا، ربّما كانت تعدّ هذا النسر الأزرق (كما يُلقَّب) الرئة التي تتنفس منها المدينة بعد كلّ لعبة. في الوقت نفسه، كانت تفرح في المرّات القليلة التي تكون الغَلَبة فيها لفريق الوثبة، هذا يمرّ في سياق تعاطفها الدائم مع الضعيف، الدور الّذي أجادته جيدًا، هي تذكر بوضوح إحدى تلك المرّات التي حصل فيها ذلك (عام ٢٠١٠ ربّما) وتُرجمت خسارة فريقها بغضبٍ هائل، انتشر كوباءٍ بين صفوف جمهوره دافعًا عددًا كبيرًا منهم إلى الهجوم على الحي الّذي تقطنه غيم، أعمال الشغب وصلتْ إلى تكسير في السيارات والمحالّ. ٢٠٠٦ السنة الألمع في تاريخ الكرامة، انتهت بدموعٍ، هطلت من عينَي غيم حين خسر في المباراة النهائية لدوري أبطال آسيا، شعرتْ بشيءٍ يتكسّر داخل قلبها، يحيّرها أمر هذه الأشكال من الحزن والأسباب الغريبة التي تقف خلفها: لعبة، مجرّد لعبة. في العام نفسه، احتضنتْ ساحات المونديال قصّة حبٍّ قصيرة الأمد لقلب غيم مع يمان الّذي يكبرها بعام، كان كالمراهقين، يلبس كنزة فريق البرازيل الصفراء طيلة أيام الشهر، وكانت تجد ذلك ظريفًا. تعرّفتْ عليه قبل بدء المونديال حين اشتركتْ في مراهنات على النتائج بغرض التسلية، وكان يمان أحد منظّميها. طبعًا كانت خساراتها فادحةً، لأنها تترك لعاطفتها القيام بالمهمّة، فمثلًا تدعُ فريقًا يفوز، لأنه من دولةٍ تتأهّل لأوّل مرّة في تاريخها، وتؤمن أنها بذلك تساهم بإسعاد شعبٍ ما، مع أنّ جلّ ما فعلَتْهُ هو خسارة المال. لم يعلق في الذاكرة من يمان إلّا رقم ٩ المطبوع على ظهر كنزته (الرقم الّذي يحمله نجمها المفضّل رونالدو البرازيلي)، هل حقًا أحبّتْ يمان؟ أم أحبّتْ الرقم ٩؟ هاتان القصّتان لم تكونا الوحيدتين، ولا يمكن اعتبارهما الأكثر تأثيرًا في حياة غيم، حتى آخر علاقاتها قبل الـ٢٠١١ لا تذكر منها إلّا طولها، ربّما سنتان؟ أكثر بقليل؟ أم أقلّ بكثير؟ لا تستطيع تأكيد أي شيء عدا أنّها كانت الأطول زمنيًا، لكنّها خاوية، الريح تصفر في الحيز الّذي تشغله من الذاكرة، العناكب ملّت شباكها التي نسجتْها هناك، وهجرتْها. مرّةً سألتْها "جنى" كيف يمكن أن تُطلق صفة حبّ على هذه العلاقات العابرة كلّها؟ فاجأها السؤال، لم تدخل يومًا في علاقة إلّا تحت مسمّى الحب، كانت صادقةً حين أحبّتْ، وصادقةً حين تألّمتْ، وصادقةً حين نسيتْ. "لم تمرّ في حياتي قصّة عابرة، ربّما العابر الوحيد فيها هو الرّجل، لأنه رحل، أمّا القصّة، فبقيت تسكن بيوتًا، عمّرتْها في رأسي" هكذا أجابتها. أحيانًا تتخيل مَن غادروها وقد ركبوا

جميعًا في تلك الباخرة التي تُبحر دومًا نحو غرقها، لا يمكن أن ينجو أحدٌ منهم مهما فعل. السنة الماضية وصلها إيميل من رجلٍ، كان العابر في إحدى تلك القصص، يطمئن على أحوالها بعد الزواج، وألحقه بإيميلات محشوة بالغزل والحنين، لم تستغرب أن يحاول رجلٌ من الماضي العودة إليها، كثرٌ فعلوها قبله، وفي كلّ مرة كانت ترفض، الأمر الوحيد الذي توقّفت عنده هو تذكيره لها بأن قُبلتها الأولى كانت معه. لحظة! لا تظنوا أن شيئًا تحرك في مشاعرها، أو أنها لمست شفتيها، كما يحصل في الأفلام، أو استعادت طعم تلك القبلة الأولى ودهشتها. لم يحصل شيءٌ من ذلك. الذي أذهلها حقًا افحاء ذكرى بهذه الأهمية من السجلات المكومة في رأسها، لا تذكر متى! لا تذكر أين! وبالتأكيد لا تذكر مع من! هي متأكدةٌ من أنها لو سُئلت: مع من كانت قُبلتك الأولى؟ ستجيب بلا تردد: مع أنس عبد الرحيم. وستكون صادقةً في هذا أيضًا!

**) من طلبة مريم العذراء، تُرتّل ضمن صلوات الشهر المريمي (أيار).

أيام وادي قنديل - اليوم الثاني

وادي قنديل/سوريا/شباط٢٠١٤

انتهزتُ فرصة خروج الجميع بعد الإفطار، ودخلتُ الصالة، فرزتُ كتُبي وأوراقي على الرّفين السفليين لطاولة التلفاز المعدنية، اخترتُ من الخارج كرسيًا وطاولةً مهمَلَين، ليكونا بمثابة أثاثٍ لغرفة مكتبي الوهمية المتنقلة عكس اتجاه الأصدقاء، بين الشرفة وغرفة النوم والصالة. في أثناء ذلك، عرّجتْ عليّ حنان، كي تسأل إن كان يلزمنا شيء، وساعدتْني في استكمال أعمال الـ"إنتيريور ديزاين". شعرتُ بالأسى حيال حياة هذه الفتاة اللطيفة والذكية، هي الآن تجلب حجرةً، تضعها تحت إحدى قوائم الطاولة كي تتوازن، بينما عليها أن تكون جالسةً على مقعدٍ دراسيٍ مستوٍ، والمعلومات تسقط كالأحجار في بئرٍ عميقٍ داخل رأسها. حدستُ القلق الذي يقف خلف أسئلتي المواربة، فأخبرتْني بأنها تحضّر في المنزل لامتحان الشهادة الإعدادية، ستقدّمها بشكلٍ حرٍّ، بسبب ظروف النزوح التي اضطرّتْها إلى ترك المدرسة عام ٢٠١٣. ثرثرتْ مطوّلًا عن حلب وعائلتها، وعن حزن أمّها الدائم، بسبب بُعدها عن بكرها سندس المقيمة في تركيا الآن، قالت: "حين تناديني أمّي باسم سندس لا أزعل، ولا أصحّح لها، لن أشارك الحياة تجريد أمّي تلك اللحظات المسروقة من الوعي، اللحظات التي تستعيد بها ابنتها".

تعاطفتُ مع حنان، رغم أنّها وفكرة إثارة الشفقة مثل السمك واللبن، تمنيتُ لو أملك القدرة على فعل شيءٍ لتحسين وضعها، ووهبها حياةً كالّتي عشتُها حين كنتُ في مثل عمرها: داخل بيتٍ دافئٍ، تحصيلي العلمي هو أكبر همومه. حنان أحبّتني أيضًا، وأبدَت اهتمامًا واضحًا بالكتب، وبالّذي أفعله خلف مكتبي الجديد، رأيتُ الشغف يتدحرج على دروب العشب الطويلة الممتدّة داخل عينيها الواسعتين.

****

عند العصر، سرتُ مع أنس نحو المنطقة التي يلتقي فيها نهر زغرين بالبحر مشكّلَين دائرة ماءٍ هجينة، قلتُ له: لو أنجبنا يومًا، فسيكون لأطفالنا طعمُ هذه الدائرة الفريدة.

أطفال؟ طفلةٌ واحدةٌ تكفي. تابع وهو يزيح خصلة شعرٍ عن وجهي:

لطالما رغبتُ بطفلةٍ ضئيلة الحجم، تكفيني يدٌ واحدة لضمّها، وبهذا أحصل على عناقين في آنٍ واحدٍ كلّ مرّة. طفلةٍ بخدودٍ سمينة متورّدة دائمًا، وأنفٍ صغيرٍ يحمرّ عند البكاء مثل الشخصيات الكرتونية، وبأذنين بالكاد تبرزان من وجهها المدوّر، فأقرّبها منّي كي تسمعني بوضوح، طفلة تغيب عيناها المبطّنتان عند الضحك، ليصير وجهها التعريف الوحيد للفرح. أريد "كروكي" لك.

- ألا تخشى وجود بكّاءتين في بيتك؟ عليك أن تفرشه بالقوارب.

أجبته محاولةً إخفاء ارتباكي خلف مزحةٍ سمجة. ضمّني بقوّة:

- لن أحتاج القوارب، لديّ جدائلكما الطويلة.

- ما في بوسة؟

هذه الأحاديث العاطفية تُكسبني أرضًا بديلةً، أستطيع على سطحها الاستمرار بالحياة، لها مفعول ما كنتُ أحسّ به حين تُزهر نباتاتٌ داخل أصص، اعتنيتُ بها، كنتُ أقول يكفي أنني أعيش من أجل أن أسقي نباتاتي، كنتُ أظنّ أنني قبضتُ على معنىً لتعاقب الأيام، أقصد حين كنتُ في البيت البعيد. أما في الفترة القاتمة الممتدة منذ لحظة الخروج وحتى وجدتُ أنس (أو ربّما وجدني)، فقد راودتني فكرة الانتحار كثيرًا، صرتُ أرسم سيناريوهات عديدة لها، أردتُهُ أن يكون رحيلًا هادئًا، بلا صوتٍ أو رائحة أو لون، هكذا ببساطة أعود من حيث أتيتُ، اخترتُ الأحجار التي سأثقل بها جيوب قميصي بعناية مَن تنتقي الفاكهة، رحتُ أفكر بتاريخٍ، يكون وقعه غير مؤلم، لا أذكره الآن، لكن، أذكر أنني دوّنته في مكانٍ ما، لا أذكر المكان أيضًا. كلّ شيءٍ كان جاهزًا، ما عدا قدميّ اللتين كانتا أجبن من القيام بتلك الخطوة نحو الماء. ما ساقني إلى ذلك الحيز الأسود من الشعور هو اللاجدوى التي كانت تتفشّى أنّى التفتُّ، نباتاتي بالتأكيد ماتت في ذلك المشتل الموجود في بقعةٍ منسيّة من العالم الآن، وكلّ كلوروفيل الأرض لن يتمكّن من تمرير الأوكسجين

إلي.

****

اتفقنا على تأجيل حفلة الشاطئ إلى ليلة الغد، نحتفل بعيد ميلاد ريشة، و نختم بها رحلتنا، آملين أن تسكت الرياح، لتغني نحن "سنة حلوة، يا جميل". صحيح أن ريشة لم ترق لي يومًا، إلا أنها كانت حجةً جيدةً لإقناع الأصدقاء بالقدوم إلى وادي قنديل في هذه الفترة العاصفة من السنة. من الغرابة أن يصير حدثٌ كهذا (ولادة شخصٍ لن تحبه) درجةً في سلّمٍ عليك أن تصعده لبلوغ حلمك. هذا ليس غريبًا فقط، بل وضيعًا أيضًا. الأنكى من ذلك أن هذا السلّم مسنودٌ على جدران الحرب، لذا سيهتزّ كثيرًا، ومع كلّ هزّة، ستسقط منك قيمٌ جديدة. صارحتُ أنس بهذا الصراع الدائر داخلي:

- أشعر بالذّنب تجاههم، لا أدري إن كانت سرقة حياة الناس أمرًا جائزًا.
- الكتابة في الأصل ليست إلاّ عملية نهب منظّمة للحياة، على الكتابة أن تكون جريمة كاملة. اكتبي، ولا تفكّري في ذلك.

***

في الشاليه، توجد مدفأة واحدة صغيرة، بوشيعتين، إحداهما معطّلة، تبدو حين نشعلها مثل وجه قرصان، بالكاد تُدفئ نفسها، لذا ارتأينا تمضية هذه الليلة الباردة في المطعم الذي تشرف عليه عائلة حنان أيضًا، هناك توجد مدفأة حطب، يتحلّقون حولها كلّ ليلة، كي يشاهدوا التلفاز. اعتذر منا الحاج أحمد (والد حنان) عن النواقص في مطبخهم، لم يتوقّعوا قدوم زبائن هذه الأيام. تستطيع أن تميز في صوته حشرجة من تُرك لوقتٍ طويلٍ واقفًا بين الحياة والموت، يكلّمك وهو يرسل نظراتٍ غائمة في الفراغ. لوهلةٍ ظننتُ ظهره مكسورًا وهو منحنٍ كلّ الوقت أمام المدفأة، يحزك

الحطب بعصا، للنار تلك القدرة على إضاءة المجاز. والدة حنان استأذنتنا، كي تذهب إلى النوم ممسكةً بياقتي كنزتي ولديها الصوفيتين، كأنها تشدّ حصانين من لجاميهما نحو الحظيرة. الأشجار داخل عيني حنان رقصت فرحًا بقدومنا، احتفت بنا بتحضير المشروبات الساخنة. ضحكنا كثيرًا في هذه الليلة، ضحكنا مثل من ينتظر كارثةً.

هوامش ترنا لوكاس

١)

للألعاب وجه مرين، يظهر في حياة كلّ طفل، ويرافقه إلى حين. لطالما شبهتُ ما حصل معي بوقوف جورج دائمًا حارس مرمى لفريق الصف، وذلك لأنه بدين، وحجمه يغطي قسمًا كبيرًا من المرمى، هي لعبة يحبها، ولكنْ لها مظهرًا قاسيًا، إن راقبناها من مدرجات الملعب مثلًا. الجمعة قبل أن أنام كنتُ أقف على السرير، أصفّ الوسائد كدرج يوصلني إلى خارطة سوريا المعلّقة على الجدار فوق رأسي، أغمض عيني، وأمرّر إصبعي على الخارطة ببطءٍ شديد، تاركةً لحدسي مهمة إيقافي، أفتح عيني، وأقرأ اسم المنطقة التي استقرّ عندها إصبعي، أقول: أنا وأهلي أتينا من هنا. أنشغل كامل الأسبوع بالبحث عن وضع تلك المنطقة قبل ٢٠١٤، أرسم تصوراتٍ لشكل الجحيم الّذي دفع بأهلي إلى رمي أنفسهم في الماء محاولين إخماده. تشكّلتْ لديّ بيانات رعب، تخصّ كلّ منطقةٍ، وقع عليها إصبعي. بعد أن أخذنا في مادّة الرياضيات درس الاحتمالات، صرتُ أطوّع البيانات لحساب احتمال لكلّ مكان. مرّة استبدلتُ بالوظيفة مثالاً محلولاً من اللعبة، وقدّمته لمدرّس الرياضيات، بكى المدرّس. في اليوم التالي، أرسلت المعالجة النفسية بطلبنا أنا وماما ساتي. لم تخبرني ماما ساتي ماذا قالتْ لها المعالجة، لكنني رأيتُها تبكي، ماما ساتي امرأة قوية، لا تبكي عادةً، الغريب أنني رأيتُ المعالجة النفسية تبكي أيضًا، وهذا ما لم أره سابقًا، ولا حتى لاحقًا. قلتُ إذا ما

أفعله يسبب البكاء للناس اللطفاء، أوقفت اللعبة، وكتمت صراخ أهلي على الخارطة.

كانت أمي جورجيت تحزن، لأنها لا تستطيع أن تقدم لي أختًا، كانت تقول "الأخت عزوة"، حاولت أن أجد في صداقاتي القليلة تلك الأخت التي لم تُنجبها أمي (كما يقولون). جورجيت كانت تغار كثيرًا، بالطبع لم تصرّح بذلك، لكنها وجدت دائمًا ما تنتقده في صداقاتي، أو مشاريع صداقاتي. كنتُ أعي تمامًا أن هدفها من ذلك الاستئثار بصداقتي، عقلها لم يكن يفكر في ذلك بصوتٍ عالٍ، أو يخطط له، أو فلنقل عقلها لم يصرّح لها بتلك النية المضمرة، النية التي كانت تحركها من دون أن تعلم. لقد عرفتْ هذه المرأة أكثر مما عرفتْ نفسها، أحيانًا أفكر بأنني أصلح لأن أكون أمها. هي تتباهى بحسن قراءتها لكلّ ما يجول في داخلي، دائمًا تقول "أنتِ كتاب مفتوح، بالنسبة إليّ"، تقتها هذه تتكئ على وضوح الزوية المفترض من حيث تطلّ عليّ أمًا مفرطة في الثقافي لبيتها عمومًا، ولي خصوصًا، إلاّ أنها في حقيقة الأمر تجهلني كلّيًا، أو تعرف عني ما سمحتُ لها بمعرفته وحسب.

ذاكرتي تتعاملُ مع الصداقات بشكلٍ مشابهٍ لتعاملها مع القصص العاطفية، تدفنُ أسماء كثيرة، وتنتقي ما يحلو لها، لتنفض التراب عنه، من دون مبرّر مفهوم (بالنسبة لي على الأقلّ)، قد أدرك الأسباب لاحقًا، فمن يدري؟ ومَن يدري إن كان هنالك "لاحقًا"؟ فوضى كبيرة داخل رأسي، أتخيل أنني لو فتحته، سأجد ما يشبهُ خزانة ملابسي في المراهقة (كانت جورجيت توبخني من أجل ترتيبها). أن أرسم مخططًا بيانيًا بين مراحل حياتي والأصدقاء الذين مرّوا عليها، هذه هي المهمة المستحيلة. لكنني متأكدة من أن صداقاتي كانت قليلة، هذا كان قرارًا فرّخ عن أمرٍ، مهما حاولتُ لا أستطيعُ نسيانه، أو حتى تجاهله. حسنًا، أنا هنا أتمنى أن أنسى، ولا أقدر، وأحيانًا لا أرغب. الذاكرة أيضًا لا تترك لك خزينة قتل ما تريد، الذاكرة دكتاتور، ليس بمقدورنا الثورة عليه، أو لا أعرف؛ ربما تُعدّ الكتابة شكلًا من أشكال هذه الثورة، قد تقلب كلّ شيء، قد تطيح بكامل الرأس أيضًا. كنا في الصف الثامن، أي الثاني الإعدادي (١٣ ربيعًا) حين هربتْ صديقتي منار إلى لبنان، وتزوجتْ خطيفة من رجلٍ، لا أعرفه، وصلني الخبر الذي شبّ كحريقٍ، وانتقل من بيتٍ إلى بيت. منار لم تُطلعني على

الأمر رغم أننا على مدار سنتين كنا نلتقي في المدرسة، وخارجها في المكالمات الطويلة، في تلك الأيام كان من الممكن أن أقضي ساعة أو أكثر في اتصالٍ هاتفي، اليوم لا أتحمل رنين الهاتف. جورجيت لم تصدق ذلك. أهل منار صالحوها بسرعةٍ، فهي صغيرة، وأهل الشاب قد رفضوها، بعد أن رجع إلى ثكنته (كان عسكريًا). أخبرتني أنهما أمضيا ليلتهما الأولى في البانيو، أسئلةٌ كثيرةٌ ازدحمت في رأسي: هل خجلتِ؟ هل استمتعتِ؟ هل تألمتِ؟ هل نزل منكِ دمٌ كثير؟ لكنني لم أسألها شيئًا. رحتُ أفكر بهديةٍ لها، الأمر حصل فجأةً، لا نتوقّع أن تتزوج صديقاتنا في هذا السّن المبكر، لا أفكار مسبقة لهدايا الزواج. لم أتخيل أنني سأهديها خيانةً. بعد أيامٍ قليلة، تطلّقتْ منار، هذه المرة هي أخبرتني بذلك "بهالكم يوم عند أهلي ندمت وحسيت إنو لازم كفّي دراستي، وما إترك البيت". جورجيت قالتْ "سمعت إنها ما تكلّلت، هربت معه، أخد اللي بدو ياه منها، ورجع زتّها ببيت أهلها، الله يعينن عهالمصيبة" لم أخفْ من نبرة جورجيت الحاسمة، وهي تكمل: "من اليوم ورايح ما تحكي معها"، لم أقرّر حتى أن أخونها، أن أتركها كما تركها الزجل. لكنني لم أدافع عنها، اكتفيتُ بالصمت، لم أتصل بها بعد ذلك، هي أيضًا لم تفعل، ربما لو اتصلْتُ مرةً، لما حصل ما حصل، ولحظيتُ بصداقاتٍ كثيرة، تملأ وحدتي الشاسعة، لكن هذا غير مهم، المهم هو أنني لم أتصل. منار تركت المدرسة، وخرجتْ من حياتي مُخلِّفةً مكانها حفرةً سوداء، أرمي فيها كلّ صداقةٍ تطرق بابي، صرتُ أخاف، أخاف أن أقع في التجربة مجددًا، أخاف رؤية ظهري مبتعدًا داخل عينٍ عزيزةٍ دامعة. أعتقد أن الأمر استمرّ على هذا النحو (زملاء، معارف، أشخاص عابرون، بلا صداقات متينة) حتى وصلتْ جنى. التقيتُ بها عام ٢٠٠٥ في رواق كلّية الهندسة الزراعية في حمص، كنتُ مرتبكةً وضائعةً، أشبهُ الصغيرة في مدرسة القدس الإبتدائية بمريولٍ مقطّعٍ إلى مربعاتٍ بيضاء وحمراء واقفةً في صفٍّ طويلٍ من صراخ الأطفال، باحثةً عن ثوب أمي الّذي انفلت من يدي لأوّل مرة. اقتربتْ مني فتاةٌ بشعرٍ خرنوبي معقوص للخلف على شكل كعكة، وعينين مشدودتين نحو الأعلى، ومشيةٍ سريعة ذات خطوات ثابتة، كانت تبدو كفرَس، تعبر الأيام، وتدلف منها الحياة. سألتني عن القاعة الثالثة، ترافقنا إليها، وإلى كلّ القاعات والمدرجات والمخابر والمقاهي والمشاوير طيلة عامٍ كاملٍ من الزمالة التي صارت صداقة. صرنا ندرس معًا قبل الامتحانات، إمّا في غرفتها المستأجرة في شارع الحضارة القريب من الجامعة، أو في بيتي. مرّة جمعتنا الصراصير من أجل حلقة بحث، جنى قامت بالمهمة وحدها، هي لا تخاف الصراصير مثلي، تفاخر بأنها أخطر

مجرمة عرفها عالم الصراصير بسلاحها الفردي الخفيف "الشبشب"، تدرّبت على ذلك خلال الشهرات الصيفية في فسحة بيتها السماوية. في العام الدراسي الثاني، رجعت جنى إلى الشام، لتكمل السنوات الأربع الثانية في جامعة دمشق، أما أنا، فبقيت مكاني، أبذلُ رفاق الدراسة مثلما أبذلُ أفلامَ الحبر حين تنشف، مكتفيةً بجنى صديقةً تتحزك بخفةٍ بين مفاصل يومياتي. صداقتنا لم تتعب من الـ١٦٠كم التي كنا نقطعها ذهابًا وإيابًا في طريق حمص- دمشق. بعد ربيع التهجير (٢٠١٢)، أنقصناها كيلومترات جديدة في طريق اللاذقية - دمشق.

جنى أطلقت صرختها الأولى من دون والد يقبض حبلها السري، أو يؤذن في أذنها اليمنى، فقد توفي في حادث سير، بينما هي تركل بطن أمها بقوة من الداخل، أمها تقول إن جنى كانت تبدو مستعجلةً كي تخرج وتراه نمزة. لذا صارت تفتش بين الرجال عن واحدٍ يشبه ذاك الوسيم المتأهب دومًا لمغادرة إطارٍ خشبيٍ معلّقٍ في صدر الغرفة الكبيرة من بيتها المخفي في حارة اليهود (يقع في زقاق صغير مغلق من حي الأمين). لم أجد في صالح ما يشبه تلك الصورة عدا الشريطة السوداء في زاويتها، والتي أتخيل واحدةً مثلها تلف حياة صالح الكنيبة.

جنى تقول إنها أحبت حمص واللاذقية أكثر من الشام. ليس مألوفًا سماع كلام مشابه من فتاة دمشقية الأصل والنشأة، والدة جنى إلى الآن ترد في أحاديثها جُمَل من قبيل "فلان من جوة السور". للأمانة ليس مألوفًا سماع كلام مشابه من أيّ أحد. أنا نفسي كان الحلم الدمشقي منتصبًا كالزمخ في رأسي حتى سنوات قليلة، الآن لم يعد عندي متسعٌ لأيّ حلم مكاني، صرتُ أحاول فقط استعادتي من الأماكن، أو استعادة الأماكن مني. لم يعد عندي متسعٌ إلّا للعدم الفسيح.

جنى ترى أن الحياة والناس خارج الشام أبسط، كانت تسخر من ذهولي الدائم في شوارع العاصمة، كنتُ أقول لها "حين أمشي في الشام أشعر أنني أمشي داخل متحف كبير، ولا أقصد فقط النسيج الأثري على امتداد الشام القديمة، بزواريبها وأسواقها وعمارتها البديعة، بل دمشق كلّها، بما فيها من عشوائيات تتوارى خلف الشوارع الفارهة، بالأصالة التي لا تغادر هذه المدينة، كما تفعل في حمص، تخيلي مدينة تتغير ملامحها كلّ فترة، ومن دون مبرر، أهلها بالكاد يتعرفون عليها" كنتُ أقول ذلك قبل أن تأتي الحرب، وتقتلع هذه الملامح كلّها من وجه المدينة، لتغرزها عميقًا في داخلي. جنى كانت ترى أن النظام في سوريا عمل على دمشقة البلد، لذا

صرنا نفكّر هكذا، ولذا صار حلم كلّ الشباب السوري القدوم إلى دمشق، حيث فيها وحدها تُفتَحُ الفرص ذراعيها لهم بالتوازي مع الانكسارات. كانت جنى تقول لي أيضًا: "أفضلُ ضواحي الشام أكثر تُشعرك بأنك غريبةً، تمامًا كما أنتِ أنّى ذهبتِ. الأحياء القديمة تغشك بالألفة". وكنتُ أستغرب ذلك، الآن فهمته.

لطالما أغرمتُ باللهجة الشامية الثقيلة، وهي تخرج مُعتّقة من فم الخالة صفية (أم جنى)، هذه المرأة التي ترمّلت باكرًا، ولم ترضَ أن تُدخلَ رجلًا إلى حياتها (رغم ضغوط أهلها)، كرمى لـ جنى. والّتي دافعت عن حقّ ابنتها في ألا تكون محجّبة في حيّ يُشار به إلى الفتاة السافرة بالبنان (لا تُضايَق، ولكن، تلتصق بها صفة "البنت اللي بلا حجاب"). الخالة صفية التي تمنع رفع موسيقى التلفاز والمسجّلة في بيتها خلال شهر محرّم احترامًا لطقوس جيرانها الشيعة، هي المرأة ذاتها التي لم تتقبل بعد سكنها في حيّ شعبي (وفقًا لمقاييس الدمشقيين)، تظلّ تُذكّرك بأنهم لا ينتمون إلى حيّ الأمين "هاد مو إلنا، هاد للشيعة واليهود والفلسطينية. نحنا من الصالحية"، وحين تُسأل عن مقرّ سكنها، تجيب بشكلٍ موارب "بالشاغور، بس نحنا بالأصل من الصالحية". تفرد لك مقتنياتها من الأغاباني والبروكار والدامسكو، وتخبرك قصة جدها "الالاجاتي" بفخر "كان حرير الشام يطلع من عنده، وكل نوالة الشاغور يشتغلوله". البيت الّذي تسكنه جنى مع أمّها عبارة عن مرداب، يفضي إلى ثلاث غرف ومطبخ وحمام موزعين حول فسحة سماوية صغيرة، تتوسطها بحرة، تشعر في الفسحة وكأن بيوت الجيران تهمُّ بالنزول، لتشرب الشاي معك. كان هذا البيت حصّة والد جنى من ميراث والده. من المرجّح أنّه كان لعائلة يهودية، لأنّ له مواصفات منازل اليهود التي يكون لها بابان: واحد مفتوح على الزقاق، والآخر على جهة أخرى (في بيت جنى تلحظ مكان الباب الثاني، وقد سُدّ ببلوكات إسمنتية ناشزة عن الجدران الحجرية)، وتكون المنازل داخل أزقة مسدودة، كانت سابقًا تُغلَق بأبواب. في زقاق بيت جنى عدد من البيوت المهجورة والمقفلة بانتظار عودة أصحابها اليهود. (في هذا الزقاق تحديدًا تعرّفتُ على أنس حين كان يعمل على تحقيق صحفي حول يهود سوريا بعد الـ٢٠١١. لذا يُعدّ أوّل شارع شقّ في مُدن قيامتي). والدا جنى سكنا المنزل على أمل أن ينتقلا إلى حيّ آخر بعد فترة، لكن الحادث أنهى حياة الأب، وترك زوجته وطفلةً لم يرها، يكملان حياتهما في هذا المنزل. كانت تُضحكني المفارقة: نحن أولاد المُدن الأخرى نشب حالمين بأن نسكن في بيت عربي قديم في مثل هذا الحي المتقاطع مع سوق مدحت باشا

العريق، بينما الخالة صفية عاشت عمرها فيه غير راضية.

جنى كانت أكثر مرحًا، لقد تغيرت كثيرًا في السنة الماضية، أي مُذ وقعت في حب "صالح خليل"، خطواتها خفتت، وارتخى شعرها من الخيبات المتلاحقة التي أثقلها بها. ألوم نفسي على علاقتها بصالح، وأتمنى أن أعود وأمحو اليوم المشؤوم الذي رافقتني فيه إلى مكتبة دار الكتابة في شارع أنطاكية في اللاذقية (صاحب الدار هو "عروة الزين" صديق صالح وحبيب ميسم)، خرجنا من هناك بكتاب جيد لي، وبداية قصة رديئة لها.

"صالح خليل" ليس محبًا للعزلة وحسب، بل يعمل كحارس أمين لها. كانت لمحل التصوير الذي ورثه عن والده شهرة واسعة في اللاذقية، لكن، مع موجة التكنولوجيا التي جرفت عالم التصوير بعيدًا عن غرف التحميض، فقد المحل زبائنه، الناس صاروا بحاجة إلى صور سريعة بلمسات فوتوشوب، تخفي عيوبهم، وتطمس آثار الزمن، وهذا ما رفض صالح خوضه، هو يرى أن الثورة الرقمية تدفع الكرة الأرضية إلى حتفها بشكلٍ أسرع. حتى إنه يعيش بلا بريد إلكتروني. يقول إنه قضى عمره داخل صندوق أسود، يحاول التقاط صورة شمسية واحدة للحياة وهي تبتسم، ولم يفلح. أعتقد أن عزلته قادمة من طفولته البعيدة المخنوقة في ذلك الصندوق، حين اعتاد البقاء على مسافة عدسة من أوجه الآخرين. لم يغادر صالح حيه الآمن طيلة السنوات الثلاث الماضية. بينه وبين الحرب مسافة شاشة التلفاز، يلاحق الجثث في نشرات الأخبار، ويتقفى الأشلاء بين سطور الصحف اليومية المتوافرة. ربما الإجراء الوحيد الذي قام به ونفذ معلقًا بتلابيب الحرب هو أداء واجب التعزية في القرية التي يتحدر منها، والتي صارت أليوم صورٍ لشبانها الراحلين. حتى هذا الإجراء قام به مرة أو مرتين، ثم توقف، يقول إنه منكسر، ولا يستطيع أن يمشي مقصوم الظهر خلف نعشٍ مستوٍ. عروة يقول إن ذلك حصل مُذ سمع صالح بالمجموعة الشيشانية المسلّحة التي وقفت على تخوم قريته، ولسبب مجهول لم تدخلها. أهل القرية يقولون إن مقام أحد أولياء الله الصالحين قد رُد عنهم مجزرة وشيكة، صارت النسوة يخرجن فجر كل يوم جمعة حافيات نحو الضريح، يجلسن هناك، ويبكين. أهل القرى المجاورة يقولون إن هذه القصة ليست إلا إحدى خرافات تلك القرية غير الموجودة على الخارطة، يقولون: هل كان الأولياء نائمين حين ذُبح جيرانهم في بلوطة والحمبوشية؟

صالح يجعلك تتخيل أنه الضحية رقم ١ لهذه الحرب، يشعرك بأن البلد يتحظم بين أضلاعه هو تحديدا. لطالما وجدت كل ذلك سطحيًا، ففعليًا لم يتغير شيء في حياة هذا الرجل، لم يشارك يومًا بأي عمل ينقد أو يوافق، لم يفقد بيتًا أو عزيزًا، لم يقدم شيئًا لمنكوب حقيقي. فقط كان يتعلق بالشريط العاجل الأحمر ظانًا نفسه أحد ركابه. خروجه من المنزل يكاد يقتصر على زيارات رتيبة إلى مكتبة عروة، من هنا نشأت صداقتهما. فصالح بعد أن هجر غرف التظهير، وجد ملاذه داخل الكتب، وفي المزات النادرة التي يحاول فيها التحرك بعيدًا عنها يبدو شخصًا غير متكيف، أعتقد أنه ينعم بالسلام بين الصفحات، هناك لا أحد يحكم عليه، وكل النساء تحبه رغم عيوبه ومعاملته السيئة لهن. للأسف في الواقع التقى بـ"جنى" التي تشبه نساء الكتب، ما جعله متمسكًا بها بأسوأ طريقةٍ ممكنة، مثل ذئب لا يستطيع العيش من دون فريسته، ومن شدة مكره لا تكف هذه الفريسة عن ملاحقته. حين خرجت أول مظاهرة في اللاذقية آذار ٢٠١١ كان صالح في إحدى تلك الزيارات للمكتبة، بشكله المعتاد مرتديًا الجينز الزمادية والكاميرا معلقة حول رقبته. اجتمع المتظاهرون في ساحة شيخ ضاهر القريبة من المكتبة، وصارت الأصوات تتعالى. أقفل عروة المكتبة، وترافقا إلى الساحة. بما أنني سمعت القصة نقلًا عن عروة، لا أستطيع تصديق الشق المتعلق بذهابه إلى الساحة، أتخيله قفز بخطواتٍ كبيرة وسريعةٍ متسللًا إلى بيته في سوق الضفن (لطالما استغربت وجود بيوت سكنية في أسواق اللاذقية، إلى حد أضيع به المعلم التجاري للسوق. بالتأكيد هناك من يسكن في سوق الناعورة، أو في شارع الدبلان في حمص، ولكنني لم ألتقِ به يومًا، لذا فكرتي عن الأسواق أنها منزوعة السكان). المهم قصة عروة تقول إنه وصالح ذهبا ليشاركا في المظاهرة، عروة كتب لاحقًا في صفحته على الفيسبوك عن حماسه ورغبته بالوقوف إلى جانب الشعوب المسحوقة، لولا الهتافات الطائفية التي سمعها هناك، وأعمال الشغب، ونظر كثيرًا للمحبة والتسامح والتعايش والحوار ورفض العنف. صالح يكذب رواية الهتافات الطائفية وأعمال الشغب، يقول إن المظاهرة تلك كانت أعظم مشهد رآه في حياته، وإنه لم يتخيل أن تحظى اللاذقية بيومٍ كهذا. عروة يقول إن هدف صالح كان إخراج كاميرته أخيرًا من علبتها الجلدية، ليصور هذا اليوم التاريخي في حياة المدينة، ليكون من صانعي أرشيفها الحديث. إلا أنه جبن ورجع إلى بيته، من يومها، لم يعد يعلق الكاميرا في رقبته.

من يسمع أحاديث عروة يظنه أحد أفراد جزيرة غامضة، لم يكتشفها

الزجل الأبيض بعد، ولم تطأها الأديان أو تعشش داخلها فكرة المال. يغالي في إظهار مثاليته، وخاصةً في منشوراته على الفيسبوك. صار في السنوات الأخيرة نجمًا لامعًا، له متابعون كُثرٌ ينتظرون إطلالته عليهم كلّ يوم، وهو يعاملهم كمعلّم. أحاول تخيل ما سيحلّ بحياة هذا الشخص فيما لو انهارت فجأةً وسائل التواصل الاجتماعي، وفقد هذه السطوة المحلّقة في فضاءٍ افتراضي، أكاد أسمع الصوت المدوي لارتطام حياته بصخرة الواقع، وأرى تفتتها. عروة لم يلازم حيه وبيته وربما غرفته كما فعل صالح، بل ظلّ يخرج كلّ يوم إلى دار النشر الصغيرة التي يملكها في شارع أنطاكية، ويسافر بنفسه إلى دمشق وبيروت لإبرام العقود وشراء الورق والحبر وكل المعدّات اللازمة. تعثر عمله في السنوات الأخيرة لأسبابٍ كثيرة مثل المخاوف الأمنية وغلاء الأسعار وتراجع سوق الكُتب. فقوّض عمل الدار الّذي صار مقتصرًا على طباعة كتيبات الشركات، وحوّل صالتها الرئيسة إلى مكتبة تحمل الاسم ذاته "دار الكتابة". الحق يقال: القدر أسدى خدمةً لميسم حين فاز عروة على صالح في ماراثون حبها، لكن، رغم علاقتها المستقرة معه لم تُمحَ مسحة الأسى من وجهها. من يرى هذه الفتاة يدرك تمامًا أن قلبها كان ساحة لتصارع كثيرٍ من الرّجال، هي تملك قامةً طويلةً، بتفاصيل جسدٍ منحوتة بشكلٍ مذهل، لونها حليبيّ صافٍ، يتدخل اللون الزهريّ قليلًا حين يجلس على كرسيي خديها، وكثيرًا حين يصبغ شفتيها الممتلئتين. قماشة صوتها الزهيفة توحي بأنها امرأةٌ جاهزةٌ للحبّ. نظرة الحزن التي ترمي الآخرين بها تطرّي قلوبهم مهما قسَت. حزن ميسم ليس حديثًا، هذا أوّل ملمحٍ التقطته منها قبل سنوات طويلة في حمص، حين تركَت عائلتها الكبيرة في مدينة السلمية، وأتت لتدرس في كلّية الطّب البشري، لم تأخذ علاقتنا شكل الصداقة حتى عدنا والتقينا في اللاذقية، هي من أجل متابعة الاختصاص، وأنا من أجل إكمال تمثيلية الحياة. حين تغمرني سكينتها أفكر بأنها وُلِدَت كي تصير طبيبة أطفال، لو كنتُ طفلةً، لادّعيتُ المرض فقط كي يعاينني عسل عينيها. أنس دائمًا يُلمح لي بأن ميسم مغرمة بي، أتضايق، وأطلب منه الكفّ عن ذلك. حزن ميسم تعزّز في السنوات الأخيرة. مشاركتها سرًا في أعمالٍ إغاثية تخص النازحين جعلتها على تماسٍ دائمٍ مع قصصهم المأساوية، تستطيع بسهولةٍ رؤية عذاباتهم تفيض منها.

ربّما كانت فكرة الحروب قائمةً على دكّ الذاكرة، الأمر الّذي حمّل الفنون بأدواتها البسيطة عبء النهوض بتلك الذاكرة. "هزمتك، يا موت، الفنونُ جميعها[***]"، وكان ذلك يسيرًا، لكن، حين يصير الأمر لشدّة قربه أبعدَ من الموت ذاته، تصير المهمّة عسيرة. مريض الألزهايمر يبدأ بفقدان ذاكرته القريبة وتصارع ذاكرته القديمة بالبقاء حتّى مراحل متأخّرة من المرض، المرعب هنا أنّ الحرب عملت معي بآلية غريبة، آلية معاكسة حين بدأت بحجب الأماكن التي تُخزَّن فيها ذكرياتي البعيدة، وتركتني عالقةً داخل متاهة، لا أملك إلّا الكتابة أفتّش بها عن نفسي. لا أحمل همومًا كبيرة بخصوص هزم موتٍ أو حربٍ أو حتّى هذه الذبابة التي تطن، أريد فقط أن أقفز خلف جدار الحصار، وألملم ما استطعتُ من غيم موزّعٍ على خمس وعشرين سنةٍ عاديّة.في الوقت نفسه كانت تقلّد الألزهايمر حين تحطّمُ كلّ مكانٍ جديد يجرّب وضع حجر أساسه في رأسي، لذا طوق نجاتي الوحيد أيضًا هو الكتابة. لا أنظر إلى فعل النجاة إلّا كأمرٍ آني، ينتهي حين آخذ ذكرياتي، وأهرب بها من غرفةٍ إلى غرفةٍ إلى غرفةٍ في هذه المتاهة، ونقعد داخل كرتونةٍ بعيدةٍ عنها، هذا كلّ ما أريده.

اليوم طرق باب ذاكرتي صوت "مخول"، فاستفاق فيها الحي قابقًا كلّ ما علق في الثقوب المحفورة في أرضيتها، الثقوب التي بمقاس الأيّام البعيدة. "مخول" من أشهر شخصيات الحارة، رجلٌ كلّ شيءٍ فيه كبير، جسده ضخمٌ مثل مارد، يملك فكّي تمساح، عدستا نظّارته كقعر كوب حليب، إن حصل وصافحك بكفّه، ستحتاج وقتًا كي تعثر على يدك بعدها. لكنّ ما يميزه بشكلٍ خاص هو صوته الجهور الّذي تعرفه آذان كلّ أبناء المنطقة، كانوا يقولون إنّ حباله الصوتية مصنوعة من الفولاذ. تعدّدت المهن الّتي مرّ عليها، لذا زار صراخه كلّ البيوت. حين عمل خضريًا كان الحي يستيقظ على صوته وهو ينادي: "لا تشلّحه بيشلح لحاله هالدراق"، "ع المكسر، يا جبس"، "خاين، يا طرخون"، "آخر إيامو الموز". وغيرها من أساليب التسويق القديمة التي لم يعد يستخدمها أحد، أحيانًا كان ينادي على أنواع خضار وفواكه غير متوافرة لديه، وكأنّه فتح المحلّ ليبيع صوته

وحسب. حين افتتح ورشة دهان مع أبنائه، صارت شتائمه المنهالة عليهم تُزعج أكثر من رائحة الثنر في حال كان رائقًا يصبح الموضوع أصعب، إذ يبدأ بالغناء، كانت أغنيته المفضلة "بيني وبين حبايبي جبال". اليوم أفكر بأنها كانت نبوءة أو فألًا سيئًا جعل جبالًا تتصاعد بين أبناء الحي الذين تفرقوا في بلاد الأرض. من خلال مهنته كسائق تاكسي كان يعرف كل الأخبار. لن تلحظ اختلافات كثيرة بين سيارته ومحل خضراواته، لم يتخلّ عن المنشفة التي يبلّلها ويلفها حول رقبته، علّق على البلّور الأمامي لسيارته عناقيد عنب بلاستيكية، لونها أحمر قاتم، تهتز قربها تعاويذ مختلفة (عين زرقاء كبيرة، عبارة "ما شاء الله" مذهبة، وكف فضي). تتدلى من مؤخرة سيارته فردة حذاء صغيرة وعتيقة لدرء الحسد، خُط على البلّور الخلفي "بالله، سلّملي عليهم" (جملة مأخوذة من أغنيته). لم يكن يكتفي بتجميع قصص وأخبار الناس، بل ينشرها أيضًا مع تعديلاته عليها، وقد يختلقها. حصل مرّة أن كنتُ عائدة في المساء إلى المنزل، كان شارع بيتنا مُضيئًا وضوء البلدية مطفأ (كالعادة)، هرولتُ بسرعة خوفًا من دزاجة هوائية يعتليها شابان، حدستُ أنهما يتبعانني، صادف ذلك مرور مخول بالتاكسي الصفراء الشهيرة. أطلق زمورها وهو يبطئ قربي، فط رأسه من الشباك قائلًا بحمصية فخة: "عمي غيم، حدي عم يضايقك؟". ابتسمتُ له: "أهلين عفو، لا، أنا متيحة. اتفضل لعنا". ما أخاف الشابين، وجعلهما يغيران طريقهما. بعد أيام، انتشر خبرٌ في الحي: غيم، ابنة فارس حداد، رآها مخول تبكي وتستغيث في أثناء ركضها في الشارع هربًا من زعرانٍ، يحاولون التحرش بها، حين رأته نادته "عفو مخول، مشان الله، ساعدني"، فنزل من سيارته، وأوسعهم ضربًا! مخول كان غشاشًا أيضًا، من المعروف أن أجرة سيارته أعلى من غيرها، ودائمًا لديه حجج جاهزة ومقنعة في حال اعترضتَ على ذلك. في محل الخضراوات، كان يتلاعب بالميزان، في ورشات الدهان يستخدم أنواعًا رخيصة من الطلاء. على الرغم من غشه وكذبه والضجيج الذي يُحدثه حوله، بقي تلك الشخصية التي إن حضرت في الذاكرة تُعيد إليها كلّ تفاصيل الحي منشورةً على حباله الصوتية، الحي بشوارعه وزواياه وزعرانها ومعاكساتهم، بصباياه الفاتنات، محالّه، مقاهيه، بثرثرة نسائه، شائعاته السريعة النمو، بطلّاب مدارسه وقططه الكثيرة، ببيوته النظيفة وصندوق بريده الأحمر الذي لم ينجُ أحدٌ من ضرب رأسه به. هذه التفاصيل التي تُثيث رأسي طيلة السنتين الماضيتين، لتلتصق في قعر تلك الثقوب، ولا تترك مجالًا لصناعة أي ذاكرة مكانية جديدة. لهذا قررتُ أن أكتب، أردتُ أن أبتكر لي ذاكرةً لا

يصيبها عطب، ذاكرة مكتملة، مثالية لامرأة، لم تعد ترغب بشيء. ثقة أمور تجلس في كواليس حياتك السابقة، ثم تختار أن تعود إليك حاملة معها كل تلك الحياة دفعة واحدة، حتى لو فارقت هذه الأمور نفسها الحياة. نسيت إخباركم أن مخول توفى قبل عام نتيجة جلطة دماغية، كأن هذا لا يعنيني مادام صوته يمتلك القدرة على الخروج من خلف الكواليس.

***) من قصيدة "جدارية" للشاعر محمود درويش.

أيام وادي قنديل - اليوم الثالث

وادي قنديل/سوريا/شباط٢٠١٤

أفقتُ على صوت إطلاق نارٍ كثيف، ظننتُ أنّ الأمر كالعادة يحدثُ في ليل الشوارع التي زُتِّقت في حمص، وتفتقت قُطبها في أحلامي ذات اللمبات المكسورة. لكن، لا، هذا حقيقي، هو دائمًا حقيقي. رأيتُ أنس جالسًا على طرف السرير، سائدًا ذقنه بكفّيه المتشابكتين، كان رأسه كتابًا مفتوحًا، لم أستطع فكّ حروفه.

- أنس، شو عم بيصير؟
- صباحو حُبّي، قومي لنشوف.

رافقتهُ إلى الصالة، ميسم وعروة لحقا بنا. جذبَتْ ريشة الوسادة، و بحركةٍ عصبيةٍ غطّتْ بها وجهها. ازدادتْ كثافة الرصاص، صار الصوت يعلو ويعلو، لوهلةٍ ظننّا ما يحصل عملية غزوٍ بَحريّ لشقّتنا، اتّجهنا - نحن الأربعة - نحو الشبّاك بحركةٍ واحدة بدَتْ متفقًا عليها، لم نُبصر أي شيءٍ يعكّر صفو البحر الهادئ. خرج عروة إلى الشرفة، ميسم حاولت ثنيه عن ذلك خوفًا من رصاصةٍ طائشة. راقبناه من وراء الزجاج يتلفّتُ يمنةً ويسرةً، صانعًا من كفّه مظلّةً لعينيه مثل بحّارٍ يرسل نظراته نحو خط الأفق، ثم عاد يلوي فمه على شكل قوسٍ مدلّيًا شفته السفلية الضخمة، فكّرتُ أنّه لو شعر بالحيرة أكثر للامستْ شفته الأرض.

- غالبًا رصاص تشييع.

قالت ميسم، ووافقها عروة الرّأي. بقيتُ أحدّق في أنس منتظرةً منه كلمةً أو إشارةً تُفهمني ما الّذي يحصل. هدأ الرصاص قليلًا، تجرّأ صالح على الخروج من الكوخ برفقة جنى، دخلا شقّتنا بحثًا عن تفسيرٍ ما. ذهبتُ إلى المطبخ كي أعدّ القهوة، توقّعتُ أن يتبعني أنس، لكنّه لم يفعل.

لم يخرج البدوي الّذي في داخلنا كي يركن الفنجان جانبًا إلى حين تلبية طلبه، بل شربه مطمئنًا إلى أنّ ما حصل أمرٌ عابر. غدر بنا المضيف، وعاد الصوت بقوةٍ أكبر، رافقًا معه جلبتنا. ضربت ريشة الأرض بالوسادة كأنّها تسحق حشرة أزعجتها لوقتٍ طويل، صرخت بنا:

- هي هيبيي شو هذا؟ منشان كوم فشكي؟ شو كان صار فيكم لو قضتولكم يوم بجرمانا والقذايف عم تشتي فوق روسيكم؟

كان باستطاعتي صفعها، وتفريغ كامل غضبي داخل خدودها الفارّة، لكنّ تركيزي كلّه كان معلّقًا بأنس، وبفرابة ما يحصل عن هذه المنطقة الوادعة. اقترح أنس على عروة مرافقته في جولةٍ على الشاطئ لتقضي الأمر. حاولت ميسم الاتصال بالمستشفى مثل كلّ يوم لتفقّد حالة مريضٍ تُشرف عليها، لم تقدر، فقد وجدت هاتفها خارج نطاق التغطية. قُلنا قد يكون الخلل المعتاد في الشبكة، بسبب سوء الطقس أو انقطاع التيار الكهربائي أو بلا أسباب مفهومة. الخبرة التي حصلتها في حمص جعلتني أدرك أن انقطاع الشبكة مؤشّرٌ لخرابٍ قادم. الأصوات استمرّت بالتناوب ما بين اندلاعاتٍ مجنونةٍ، وتوقّفاتٍ مفاجئة. عاد أنس وعروة بالحيرة التي خرجا بها، وباتّفاقٍ جديدٍ على اللحاق بالصوت حتّى الوصول إلى مصدره وسبر مدى خطورة الأمر، وإن كان يستدعي حزم أمتعتنا والرحيل قبل أن يتفاقم. زاد الاتّفاق من ذهولي، لأنّه يناقض هدف الرحلة الّذي يعرفه أنس جيدًا، وهو عزابه أيضًا. توجّه إلى الغرفة كي يبدّل ملابسه، أخيرًا انفردتُ به.

- أنس، شو عم بيصير؟ عن جد، يمكن نرجع؟!

- ما تخافي، رح يضلّ كل شي على حاله. أنتِ ركّزي باللي رح يصير، وبس.

- ما عم إفهم، وأنت عم تخبّي عنّي. ما تعمل هيك،

قول أي شي، وريحني.

اقترب مني، وأمسك وجهي بيديه الكبيرتين، بحرص من يحمل كرةً بلورية في داخلها عالمٌ كاملٌ سينهار لو وقعت.

- كلّ اللي رح يصير كرمالك وكرمال الزواية. ثقي بي. ولا تسأليني أكتر.

طأطأتُ مذعنةً إليه، بينما ارتفعتْ آلاف الرؤوس في داخلي.

ذهب أنس وحده بعد أن أقنع عروة بأهمية بقائه معنا، بحجة أن صالح ليس أهلًا للثقة.

جلستُ وحدي على الشرفة مثل كلب منزلي يترقب رائحة خطوات صاحبه العائدة، شاردةً عن كلّ ما حولي، جنى قالت شيئًا حين مرّت بي، لا أعلم ماذا قالت، ولا بِمَ أجبتها، أعلم أنها ضحكت، وهذا أغضبني أكثر. ريشة خرجت أيضًا. تجاهلتني، وذهبت تتمشى واضعةً السماعات في أذنيها. فكّرتُ في أن الموسيقى حلٌ ناجعٌ دائمًا. تذكّرتُ المشهد الشهير من فيلم " The Shawshank Redemption" حين يشغّل "آندي" أغنية، ويبثها عبر مكبرات الصوت للسجناء، مرّتْ أمامي نظراتهم تلك إلى السماء، بينما الموسيقى تهطل عليهم مثل مطر الصيف. "هذا هو جمال الموسيقى: لن يستطيعوا أخذها منك" هذه الجملة جعلتني أفكر برفع صوت أغنية ما قابعةٍ داخلي، لكنني لم أستطع، أنا الآن أريد أن يعود أنس فحسب. ميسم وعروة يعدّان طعام الإفطار لصباحٍ عاديٍ في قريةٍ ساحلية، لا تتوقع أن تزورها حربٌ، وتشاركها موائدها. وضعا على الطاولة أمامي صحون جبنة بيضاء منقوعة بماءٍ مغلي، كرات لبنة مغطسة بالزيت، أقراص شنكليش، حبات مكدوس، وخضراواتٍ مقطعة. أكثر ما وترني هو الدقة في مقاييس شرائح البندورة والخيار. تركتهم، وهربتُ من شكل حياةٍ، ليس فيها كرسيٌ شاغرٌ ينتظر أنس. صوت

ميسم الخفيض يناديني، ولا أرد. رحت أزجي الوقت بالسير على الشاطئ، كنت خائفة من الأصوات، لكن غضبي كان أكبر. التفيت حنان، كانت مضطربة وهي تسألني عن الأستاذ أنس، أخبرتني عن قدومه قبل ساعتين إلى شقتهم برفقة عروة، وعن القرار الذي أصدره والدها بعدم الابتعاد عن الشاطئ حتى يسود الهدوء. كان الخوف يرن مع بحة صوتها، وشبح التهجير الثاني يحوم داخل هواجسها. تربعنا على الرمل بصمت، هي جامدة كقالب بوظ، تفكر في شيء ما، ربما يكون أختها سندس، أو بيتهم في حلب، أو مدينتهم مارع. أنا أحزك الرمال، وأجمعها على شكل كثبان، وأهدمها، ثم أعيد تجميعها، وهكذا. لم أنتبه إلى تزامن وصول أنس مع مرحلة البناء أم التخريب، ربما هدمتها وأنا راكضة نحوه. دومًا كانت تثيرني لعبة تشييد القلاع الرملية على الشاطئ من قبل أطفال يتنافسون على حكمها، ليأتي طفل مسرع من بعيد، تلمع في عينيه تورة، ويطيحها بضربة رجل واحدة.

شهقتي عند رؤيته أيقظت البحر. يا إلهي، إنه في حالة مزرية، ثيابه معفرة بالرمل والطين، من قميصه المشروط تظهر آثار الخمش على كتفه، الغرق يبلل وجهه. كان يبدو كناج وحيد من معركة، أو كالخارج لتوه من بين فكي تمساح. جلس على أول درجة من درجات الشقة، وتجمعنا حوله. ناولته ميسم قارورة ماء باردة، كرع كل مائها. التقط أنفاسه بصعوبة:

- عند مفرق القرية تقريبًا، اشتد الصوت، علمت أنني صرت على تخوم مصدره. ظهرت مجموعة رجال مسلحين، عددهم خمسة أو ستة. سدوا الطريق، كلموني بطريقة سيئة. حاولت أن أشرح لهم أننا هنا بداعي السياحة، ونرغب بمعرفة مدى خطورة الوضع، لا أكثر. بينما أهم بإخراج بطاقتي الصحافية، هاجمني أحدهم، وهو يبصق شتائمه علي، كأنني قاتل والده، ساندته البقية، صرت كرة، تناقلوني بينهم

بالرّكل والضّرب والشباب. تخيّلت أنني سأعود إليكم مجرّد إصبع في فم كلب سلوقي. لولا أن رجلًا - خمّنت أنه قائد المجموعة - تناول بطاقتي من الأرض، وأمرهم بالتوقّف في الحال. ربّما خاف أن يتورّط مع وسائل الإعلام، أو ما شابه. طلب منّي العودة من حيث أتيت مهدّدًا بلباقةٍ بقتل كلّ من يفكّر في الاقتراب. قال إن الوضع يزداد سوءًا كلّما تقدّمنا أكثر، ولا سبيل لخروجنا من هنا، إلى أن ينتهي كلّ شيء، لم يُطلعني على ماهية هذا الـ"كلّ شيء" وأنا لم أسأله طبعًا. المضحك أنّ الرجل كان يتكلّم بكلّ جدّيّةٍ، وهو يؤكّد أنّ غايته من هذا هي حفظ سلامتنا. كما ترون آثار السّلامة واضحة عليّ.

ختم أنس حديثه بنظرةٍ تقول بوضوح: ها قد بدأت روايتك.

****

قرّرنا أن نتعامل مع بقيّة هذا اليوم مثل من يتأمّل وجه امرأةٍ جميلة، من دون أن ترفّ عينه على أطرافها المبتورة، عدّدنا ما حصل أعشابًا ضارّةً، اقتلعناها من أحاديثنا، آملين أن يتلاشى ذلك الـ "كلّ شيء" دفعةً واحدة كما ظهر. تصرّفُنا هذا نموذجٌ مصغّرٌ عن طريقة التعاطي مع الأحداث في بعض المُدن والأحياء: يقترب الخطر، بدايةً يُعالَج بالإنكار، يقترب أكثر، والتّجاهل لا يهتزّ له جفن، وهكذا حتّى يصل الخطر، ويجلس في عقر الدار، حينها تكون فرص النجاة قد انعدمت، ليجد النّاس أنفسهم أمام خيارَين: البقاء مع موتٍ يشاركهم الأسرّة، أو الهرب ببقجةٍ، كدّسوا فيها آمالًا بالعودة.

لم تكن لتنكسر رتابة إيقاعنا الأشبه بماءٍ ينقّط من حنفيّة معطّلة، لولا تدخّل ريشة، وتذكيرها لنا بحفلة عيدها، وزّعت المهام علينا:

- أنس وعروة، اجلبا أعواد الحطب وزيت كاز من عند

الحاج أحمد. ميسم وغيم قوما بتتبيل اللحم، وتجهيز أسياخ الشواء. جنى أعدي صحن الفتوش، ولا تنسي تحميص الخبز. صالح، افعل أيّ شيء، المهمّ اذهب، وعد بوجه غير هذا. وريشة سيقع على عاتقها وحدها القيام بأصعب المهام: تحضير لفافات الحشيش. أعفيكم من الكعكة، قد أشعل شيئًا آخر بدل الشموع.

وأطلقت ضحكةً رقيعة. استجبنا لأوامرها، وكأننا نضبناها قائدةً لكتيبتنا. مع هبوط الليل، صار كلّ شيء جاهزًا، تحلّقنا حول النار، ثلاث فتياتٍ ملفوفاتٍ ببطانياتٍ مثل حبات سوشي، بينما ريشة بشورتٍ قصير وكنزةٍ عارية الكتف، وجزمةٍ طويلة الساق، الستايل الّذي تذهب به إلى عملها في البار في جرمانا.

تولّى أنس الشواء، جلست قربه، أكسر له الغزق بالماء، أحبّ اجتراح تلك المعجزة البيضاء الصغيرة داخل كلّ كأس. الغريب أنني لم أتذكّر فارس.

ريشة تدوّز لفافات الحشيش بيننا، تُطلق مزحاتٍ بذيئة، وتسخر من فشلي في التدخين، سحبة واحدة تكفي كي أدخل في نوبة سعال، وتُصبغ عيناي بالأحمر. وصلّت جنى موبايلها بمكبّر صوت، وشغّلت مجموعةً من الأغنيات الشعبية الزاقصة، رافقناها بالغناء. بتأثير الكحول والحشيش طفقنا نرقص بشكلٍ جماعيّ وهستيري مثل أفراد قبيلة، تقدّم أضحيةً لآلهةٍ ما، ربّما الذّبيحة هي حياتنا التي تنزلق شيئًا فشيئًا داخل النار.

صالح تجاهل جنى في أثناء الزقص، كلّنا لاحظ استمتاعه بإذلالها، صار يتقرّب من ريشة ملامسًا خصرها بيديه في أثناء رقصها الماجن. كرهتُ ريشة أكثر من قبل، هل يعقل للئمالة أن تحوّل الإنسان إلى صديقٍ وضيع؟ فشلتْ كلّ محاولاتنا أنا وميسم لإلهاء جنى عن مراقبة المشهد، راحت تبكي خيبتها بعيدًا عن حلبة الزقص، ما جعل صالح يبدو أكثر فرحًا، ويرقص مثل

المنتصرين، ينحني نحو ريشة، يهمس في أذنها، هي أيضًا ترتد كلمات في أذنه، تمج من لفافتها، ثم تضعها في فمه، وهي تنفث الدخان في وجهه. كانا ينتشيان معًا في عالم بعيد عنا، وعن نحيب جنى. كانت لتستمر هذه المسرحية إلى الأبد، لولا شعور ريشة بالغثيان، تركت كل شيء، وهرعت إلى حمام الشقة، ثم انسحب صالح إلى كوخه، وخلفه جنى. انتهى العيد من دون أن نغني لصاحبته، أو نطير أمنياتنا الطيبة في أيامها القادمة. أطفأنا النار مخمدين معها هذا اليوم القاسي، نظفنا الشاطئ، وعدنا إلى الشقة مروزا بكوخ صالح وجنى، سمعنا تأوهاتهما، الشافل بعد ذلك كله ضاجعها أيضًا. توقف كل شيء، رشقة رصاص استمرت لثوانٍ، أو لدقيقة كاملة، خلالها جمد كلٌ منا في مكانه، التأوهات اختنقت، البحر حبس أنفاسه. هذه الزشقة تشبه رنات الساعة في قصة ساندريلا، خلعت عنا ثياب الاحتفال، وألبستنا الواقع الذي أنكرناه، لم نترك وراءنا أحذية زجاجية، بل خوفًا يلائم مقاس كل من يجربه.

****

وقفت أمام باب غرفتنا أراقب أنس وهو يحدق في السقف تاركًا أفكاره ترتطم برطوبته، لتسقط مبللة. أعرفها جيدًا أفكاره تلك التي لا تحدها أسقف، وتحتاج دومًا إلى سماء أعلى من التي نعرفها. فرد كفه، وطواه مثل بساط، كي أمشي عليه نحوه:

- للأفكار بناث يلعبن داخل رؤوسنا، يا للروعة! تخيلي لو كنّ ذكورًا، لصارت للنشاط الذهني طبيعةً خشنة، أن يغفو المرء وهو يعلم أن ثمة فتيات يجلسن على حواف نومه، ويحزكن بأرجلهن الناعمة ضياعه الزاكد، هذا أمرٌ يجعل النوم مغريًا.
- أنت منحازٌ للنساء بشكلٍ مفرط.
- جدًا. أعتقد أنه تأثير اللهجة الحلبية على شخصيتي،

ألم أخبرك سابقًا بأنها أكثر اللهجات ولعًا بالتأنيث؟ الجبل يصير جبلة، التلّ تلّة، الكباب كبابة، الفزوج فزوجة، البطاطا بتاتة، السكّين سكّينة .. وغيرها.

- جارتنا منى بعد أن تزوّجت شابًا حلبيًا، صارت تتبجّح أمام الجارات الأخريات بأن الرجل الحلبي يعرف كيف يحبّ. ما رأيك؟

- أنت الأجدر بالإجابة. بعيدًا عني، كلامها صائب. اسمعي .. والدي مثلًا لطالما تولّى المهمّات الصعبة المتعلّقة بتحضير المونة، من تقطيع قرون الفاصولياء، فرفطة حبّات البازلاء، حفر الباذنجان والكوسا والقرع بكمّيات كبيرة. كان يدّعي أنّه يتسلّى بذلك، وكنّا جميعًا ندرك أنّه يفعل ذلك، كي يريح أمّي. هذه كانت أداة تعبيره عن حبّه، يخجل أن يتّخذ من الكلمات وسائل نقل في تلك البيئة المحافظة.

- ما أحلاه! أضف لمعلوماتك: الرّجل الحلبي يعرف كيف يحبّ أيضًا.

- طبعًا، أمّي أيضًا، كان تطبخ لنا المسقّعة مرّة أو مرّتين في الأسبوع، بعد أن توفّي والدي، هجرت المسقّعة منزلنا. اكتشفنا أن أمّي لا تحبّ هذه الأكلة، أخفت هذه المعلومة طيلة حياة والدي عاشق المسقّعة.

- بحبّك. ما في بوسة؟

بعد فترةٍ قصيرة من خروجنا من حمص، مثل شائعةٍ في قرية انتشرت على صفحات التواصل الاجتماعي والمواقع والصحف صورة "أبو وليم" على شرفته المهدمة، أعتقد أنها قريبة من كنيسة "سيدة السلام"، كنّا نسميها الكنيسة الملونة، لأن لواجهاتها نوافذ كثيرة من الزجاج المعشق، في باحتها يوجد تمثال للعذراء مريم، أمامه صندوق تبرعات وشموع، البعض يقصد الكنيسة ذات الأبواب المفتوحة دائمًا، كي يشعل شمعةً ويصلّي أو يطلب شيئًا من مريم (التي لا تشبه جورجيت)، آخرون يعدّون الكنيسة نهاية مشوار الحارة (يبدأ من شارع الأظن، يقطع شارع الحميدية الرئيس باتجاه بحيرة الملجأ وشارع بستان الديوان، حيث توجد الكنيسة. من الممكن أن تراه بشكلٍ معكوس، حسب موقع بيتك منه). بحيرة الملجأ هي بحيرة صناعية، فيها نوافير، تخفي تحتها ملجأ قديمًا خارجًا عن الخدمة (حتى في الحرب، لم أسمع أنه استخدم كملجأ، يا لخيبته!) تُعدّ مركز المشوار، ونقطة علّام "بشوفك عند البحرة". يتوزّع حولها الشباب، وتمرّ أمام أنظارهم الصبايا ببطءٍ وغندرة، منذ زمنٍ طويل، توقّفت البحيرة عن نفث الماء، ولم أعد أراها مضاءةً. مثل طبيبٍ يكفّ عن مزاولة مهنته، ويستمرّ الناس في مناداته بـ "دكتور"، أحيلَت البحيرة إلى التقاعد، وبقي اسمها "بحرة الملجأ". غيم الصغيرة كانت تعدّها الدرجة الأخيرة في مقياس الحبّ "بحبك قد البحرة"، غيم الأكبر قليلًا كانت تحبّ حين تمرّ من هناك وتدفع النسمات رذاذ الماء من النوافير إلى وجهها، كانت تشعر بأنها زهرة تتفتّح بعد أن يلمسها الندى. المدينة مشهورةٌ بالهواء القادم من "فتحة حمص"، والّذي يلعب فيها على مدار السّنة كطفلٍ لا يتعب، لم أقدّر نعيم طقس حمص حتى سكنتُ اللاذقية، رطوبة الساحل جعلتْ مني شخصًا آخر، شخصًا يشعر أن أحدهم يمسك برقبته طوال الوقت، شخصًا يعيش وهو يختنق، كي أكون صادقةً، عليّ ألاّ أحمّل الطقس وحده مسؤولية ذلك، فمذ خرجتُ من حمص، ورأيتُ أشجارها المائلة، تحوّلتُ فعلًا إلى شخصٍ آخر، رياح المدينة لوتْ أعناق الأشجار كلعنةٍ أبديّة لساكنيها، لعنة تخبرهم أنهم يخطئون الوجهة كلّما غادروها. طيب، كنتُ أتكلّم عن صورة أبي وليم، وكيف بدا فيها رائقًا يلفّ رجلًا فوق رجلٍ،

مرتديًا بيجامةً كحليةً دارجة (بابا فارس لديه واحدة مثلها) قربه طربيزة مغطاة بمفرش زيتي، مطرز بخيوط ذهبية اللون (مفرش شائع في بيوت الحي)، كان كلّ شيءٍ في الصورة ليبدو طبيعيًا مألوفًا، لولا الشرفة المهدمة والدمار المحيط. ربما التقطت الصورة حين كنا في الحي، وانتشرتْ بعد خروجنا، لا أدري، فأنا منذ حادثة الاختطاف الثانية لم أغادر المنزل حتى الخروج الأخير، ربما كنا في الوقت ذاته نشرب قهوتنا، وفارس يرتدي بيجامته الكحلية لافًا رجلًا فوق رجل، إلاّ أن القذيفة أخطأت بيتنا، والكاميرا لم تجد لدينا ما يغري للزيارة. أحاولُ أن أشدّ قوس ذاكرتي بقوةٍ إلى الخلف، حتى أصل نقطةً بعيدةً تدفعني إلى الأمام. "إلى الأمام" عبارة ارتبطت بالأب فرانس (٧٥ عامًا)، الرّجل الطويل بشعره الزمادي، وابتسامته التي لا تنطفئ، والزرقة التي تترقرق خلف نظّارته (هل كان لون عينيه أزرق؟ أم هي رغبتي في الإبحار فيهما؟)، آخر الفرسان كما يسمّونه، لأنه لم يغادر الحي، وكأنه واحدٌ من أزقّته النحيلة، ذلك الرجل الهولنديّ الّذي عاش في سوريا منذ خمسين سنة، أي ضعف عمري تقريبًا، وما أزال أقول عنه هولنديًا! الّذي أحبّ حمص وأهلها، كما لم يفعل أحد، أبقى أبواب دير الآباء اليسوعيين مشرّعةً للجميع في الحصار، في العام الماضي (٢٠١٣) بدأ الجوع ينمو كالفطر في حمص القديمة، وعلى جدران الدّير الحجرية وشبابيكه الخضراء، فرانس لم يقطع قدّاسات الأحد واجتماعات الأربعاء لتناول الفطور وشرب الشاي المرّ (نفد السكّر من مطبخ دير الآب الحلو). من صورةٍ إلى أخرى، كان الأب يهرم أكثر، ويزداد شبهًا بالمدينة أكثر، وهذا يُرعبني أكثر، خطوط جبينه تصير أعمق، وكأنّما لتخفي داخلها كلّ آلام النّاس هناك. هو الشعرة التي تعلّقني بذلك المكان الآن، أقصد: شيء حيّ بغفازةٍ طولية، شيءٌ يخضني ما يزال موجودًا هناك، شيءٌ يدفع برجليه دزاجةً هوائية بين خراب البيوت في شارع أفرام برصوم (نسقيه شارع التوابيت، لأن فيه محلات توابيت تاطرس، هي أيضًا أقفلت أبوابها في الحصار، مع أنها كانت لتحظى بأعظم موسم عمل ممكن) بانحناءةٍ خفيفةٍ في الظّهر يقطع الشوارع التي يستطيع التنقّل بينها مجيدًا الدّور الّذي أعطي له كراعٍ أمينٍ للقلّة القليلة الباقية هناك.

> "١١ أنا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ
> نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. ١٢وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ، وَلَيْسَ
> رَاعِيًا، الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ، فَيَرَى الذِّئْبَ مُقْبِلاً
> وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ، فَيَخْطَفُ الذِّئْبُ الْخِرَافَ،
> وَيُبَدِّدُهَا"

(إنجيل يوحنا - الإصحاح العاشر)

لا أحبّ أن أشبهه بـ"الأمل"، فهذه مفردةٌ تُعذّب وتُنبئ بخيبة وشيكة وفدوية. لم تجمعني علاقة شخصية بفرانس، لكنني كنتُ أقول له "مرحبا" حين أصادفه في الطريق، مرّة اصطحبني صديقٌ إلى واحدة من الرياضات الروحية التي تقام في باحة الدير، أذكر أن النقاش الدائر كان عن الحبّ، لم أشارك (أخبرتكم أنني فتاة صامتة؟ صحيح؟) فقط أصغيتُ للآراء المتبادلة بين الأب والشباب والصبايا، شربتُ الشاي، ووضعتُ ملعقتي سكّر في الكأس الشفافة الصغيرة، كان كلّ شيء حلوًا، ولا يُنذر بأيّ خطر. "مَن أنتَ، أيها الحبّ؟" عنوان كتاب للأب فرانس، هذا السؤال الّذي أردّده كلّ يوم، وكلّ يومٍ أحصل على إجابة تحيلني إلى سؤال اليوم التالي: "مَن أنتَ، أيها الحبّ؟". "نحنا منحبّ الحياة ومنحبّ نعيش" هكذا وصلنا ما قاله من داخل الحصار (هل سيقتل الأب فرانس بعد شهرين من وجودي في وادي قنديل؟ هل سيبتسم لقاتله؟ هل سيقول له "إلى الأمام"؟ هل ستدوّي تلك الرصاصة صباحًا، بينما عصافير الدير تغرّد؟ هل ستزفّ العصافير المدينة نحو مثواها الأخير؟ هل ستنطفئ الابتسامة؟).

النقطة البعيدة التي سأدحرج ذاكرتي نحوها هي علاقتي بأبي وليم. كنتُ أجده يشبه القضاة في الأفلام الإنكليزية بلون البشرة الورديّ وتقاطيع الوجه وفروة الشعر البيضاء الكبيرة (منذ متى وهي بيضاء؟). كنتُ في السادسة من عمري، أو أكبر قليلًا حين دخل فارس المنزل، بيده علبة كرتون، فتحها، وأخرج منها علبة معدنيةً، تشبه المسجّلة، لونها فضّي، وفيها أزرار. أخبرنا أنها مشغّل فيديو سوني tv، صار يصطحبني إلى محلّ "أبي وليم" كي نستأجر من عنده أشرطة فيديو VHS سُجّلت عليها مسلسلات كرتون للأطفال (جونكر، فتى النينجا كابامارو، البطل خماسي الهداف رامي، أوسكار، وغيرها)، مسرحيات وأفلام مصرية، ومسرحيات دريد لحام ونهاد قلعي (غربة، ضيعة تشرين) كنتُ أحب نهاد أكثر و- مثل معظم الناس- أناديه "حسني البورظان". حين شاهدنا شريط مسرحية "كاسك يا وطن" انتظرتُ أن يظهر حسني البورظان على الخشبة، ولم يفعل، كم حزنتُ! كانت أجرة الفيلم عشر ليرات سورية على أن نُعيده بعد أسبوع، لكثرة ما أحببتُ "فتى النينجا" بقي الشريط لديّ أكثر من شهر، وحين حاولنا إعادته ودفع مستحقاته، رفض أبو وليم، وأهداني إيّاه، ظللتُ أعيد مشاهدة الشريط حتى تلف. كنتُ أطلب من جورجيت أن تحضّر لي طعام الشومن المفضّل لدى كابامارو، هي تضحك عليّ بالمعكرونة، ولا أصدّقها، حين صرتُ صبيّة، غزت الإندومي السوق، واكتشفت أن الشومن ليس أمرًا عظيمًا، ومعكرونة جورجيت أشهى. حين أذكر تلك المرحلة أشمّ رائحة السبيرتو، كنتُ كلّ يوم أمسك قطعة مبلولةً بالسبيرتو، وأمسح بها رأس الفيديو، كي لا يعطب (فارس علّمني هذا).

حفل زفاف والدي لم يحوّلوه إلى شريط فيديو، بل بقي فسجلًا على بكرة، مرّةً شاهدتُ الحفل معروضًا على جدار غرفة المعيشة عن طريق جهاز عرض قديم (استعرناه من الجيران)، أضحكتني بشدّة أشكال الأقارب حينها: الأصلع اليوم كان يبدو وكأنّه استعار رأسه من خروف، الكهول كانوا شبابًا، يرتون السوالف الطويلة، ويلبسون "الشارلستون"، النساء بحواجب دقيقة، تتطلب جهدًا كي تعتر عليها، وبفرر أطول من

كعوب أحذيتهنّ اللامعة. الفساتين – وللأمانة - كانت بديعة. بعد ساعة من مشاهدة الحفل، سألتهما بحزنٍ: "أين أنا؟" كانت الصّورة تميل، وأحيانًا تنقلب، لأنفلت بالبكاء "وقعوا بابا وماما"، هما يقهقهان، وهذا يغيظني، أبحث عنّي بين الحضور، من دون فائدة. إلى اليوم، كلّما أضعتني أجدني أتناول وجبةً داخل فيلم ما، ودمعةً متأهّبةً للخروج من عيني. حين أفكّر بجورجيت وفارس أحدس أنّهما لم يمارسا الجنس يومًا، هما بالكاد يتحدّثان، فكيف سيجمعهما سرير؟ لا أقصد أن ثقة قطيعة بينهما، أو مشاكل كبيرة، خناقاتهما في الحدود الدّنيا، بالمناسبة هما لم يخبراني يومًا بالسّبب الّذي أخّر قدومي سبع سنوات، يقولان مشاكل إنجاب، جورجيت تقول "هيك الله راد"، ولا كلمة أكثر، ولا أي شرح (هل يكون حدسي صائبًا؟ وهل هذا هو السّبب؟ من يدري؟). ليست جورجيت وحدها من تمزّر لي ذلك الضّقيع القادم من غرف نوم الأهل، الأمر شائع بين الأمهات اللواتي أعرفهنّ، لطالما حاولتُ التّفتيش داخل حدقاتهنّ عن نظرةٍ متوارية: نظرة امرأةٍ مارست الجنس يومًا، علّني أحزرنا من لعنةٍ سقتنا "جيل النّكبات"، جيل النّكبات الّذي يبدو كما لو أنّه أتى إلى العالم بطريقةٍ غامضة. لم تكن المناسبات الرومنسية حاضرةً في بيتنا، لا أعلم كيف صرنا نحتفل في ذكرى زواج فارس وجورجيت بالخروج للغداء أو العشاء. في صغري، كنّا نقصد مطاعم منطقة الميماس، تلك المطلّة على نهر العاصي، ونختار كلّ مرّةٍ أحدها "ديك الجنّ" أو "الأهرام" أو "أمير الندى" (الحماصنة يسقونه الميرندا، ولا أعرف كيف انتشر هذا الاختصار الغريب بين النّاس)، بعد أن كبرتُ، زادت الخيارات، حتّى صارت عندنا في الحي مطاعم ذات طابع تراثي جميل "بيت الآغا" و"جوليا دومنا" و"الدّار"، وافتتح في المدينة عدد من المطاعم التي لا تُقدّم الكحول، الأخيرة لا يمكن أن يدخلها فارس أبدًا. المكان الوحيد الّذي كان يقصده، ولا يقدّم العرق، هو مطعم الشّلال في شارع "أبي العلاء المعرّي" قرب سينما حمص (المضحك أنّني كنتُ أسمّيه شارع الشّلال)، كان يصطحبني إليه، نصعد الدّرج نحو الطّابق الثاني المخصّص للعائلات، جدرانه من السّيراميك، تملؤها الزخارف الإسلامية والحروف العربية المنقوشة بعناية (أو هكذا كنتُ أظنّها في صغري)، يطلب لي كوكتيل فواكه وشطيرة موز وعسل. لم أحبّ الموز أو العسل يومًا، لكنّني كنتُ ألتهم الشّطيرة بحبّ، لأنّ ذلك يُفرح قلب فارس الّذي يظنّ أنّه يقدّم لابنته شيئًا نفيسًا، في تلك المرحلة، كان الموز فاكهة ميسوري الحال في سوريا، بعض العائلات كانت تمنع أطفالها من أكل الموز في الشّارع، أو على الشّرفات حفاظًا على مشاعر أولاد الجيران المحرومين منه، أو درءًا

لصيبة العين. في المشاوير الصيفية الليلية، كان يصطحبني وجورجيت إلى شارع الغوطة (مستعيذًا بذلك طقوس السيران القديمة قبل ردم ساقية الزي الّتي كانوا يسبحون فيها، بينما تحيط بهم البساتين، حيث يقعدون ويحضرون المشاوي على الفحم). فارس، أنا وجورجيت نتمشى بين أشجار الأكاسيا والكينا والصفصاف الباسقة، في أيدينا سندوتشات شاورما من عند محلّ "الشاطر حسن" الواقع على ناصية الشارع، قبل سنوات (أعتقد في الـ ٢٠٠٦) حصل ما يشبه المجزرة في حق هذه الأشجار، واقتلعت كلّها وسط دموع الناس، ومن دون الاكتراث باستماتة معظمهم في سبيل منع هذه الجريمة، ولا بالشموع التي أشعلتها سدى. زرعت البلدية مكانها أشجاز الزنزلخت معطية مبررات لقيامها بتلك الجريمة، مبررات واهية، لم تقنعني أو تحدّ من المرارة التي غرقت فيها من جزاء ذلك، عزائي الوحيد حينها كان دراستي للهندسة الزراعية، علّني أفلح يومًا في إنقاذ شجرة أحبها.

أيام وادي قنديل - اليوم الرابع

وادي قنديل/سوريا/شباط ٢٠١٤

مثل خنجرٍ مسمومٍ أتت رشقة الرّصاص سريعة وحاسمة، لتنحر النوم. كرّرنا مشهد صباح البارحة، كما لو كنّا في بروفات مسرحية، صار الذعر مُتقنًا، حركاتنا أكثر خفّةً، وصول جنى وصالح أبكر. دخل صالح مثل مهرّبٍ يطارده الدّرك، لأوّل مرّةٍ أراه بلا جيليه رماديّة اللون، يلبسها فوق قمصانه دائمًا، كانت تخفي ببراعةٍ كرشه الّتي ظهرت الآن، شعره مُشعّث، الهالتان السوداوتان تحت عينيه كبرتا حتّى أوشكتا على الخروج من وجهه. جنى أيضًا كانت مضطربة، أظنّ خوفها رجع صدى لمشاعر صالح، لا أكثر. تأمّلتُ شكل عروة وهو يتمطّى، الشعر الأسود مفرودٌ على كتفيه، يداه ممتدّتان على طولهما، رأسه منحنٍ قليلًا، عظام قفصه الصدريّ برزت من تحت الفانيلة الرقيقة، كان خارجًا من إحدى الرّسوم التي تمثّل المسيح على الصليب، من دون ثقوبٍ تمزّز الشكوك أصابعها فيها. الإعياء منع ريشة من الصّراخ بنا. ميسم خرقت العرض الصّامت بصوتها الرّقيق:

- لم تعد الاتّصالات بعد.
- إذًا، فالأمر ليس عابرًا. (خاطبنا صالح بعدائيّة، كما لو أنّنا مَن يحتجزه هنا).
- فكركم الشباب الطّيبة كانوا عم يمزحوا معي؟ سوف نفكّر بطريقةٍ ما للمغادرة، حاليًا يجب ألّا نبرح المكان، حتّى نتأكّد من أن الطّريق صار امنًا. هل لدينا قناني مياهٍ كافية؟ أعتقد أنّ ماء الصّنابير هنا غير صالحٍ للشرب. على كلّ الأحوال، سوف أذهب إلى مطعم أبي حنان، كي أتفحّص مخزون الماء والخبز. من سيرافقني؟

رمى أنس كلماته حبّات حصى، مضغها قلقنا.

رافقناه أنا وميسم وعروة بعد أن ارتدينا المعاطف فوق البيجامات، بينما انسحب صالح وجنى إلى كوخهما،

أو جحرهما.

استقبلنا وجه حنان الجميل المبتسم أبدًا، وألوانها الّتي تصرخ ببهجةٍ تخفّف من وطأة الظرف المحيط.

- مية السلامة. حاول أبوي يتّصل بالسيد حيدر، كِنّي الموبايلات في شغّالة؟ التلفون الأرضي متشرّك من زمان، قال إشو؟ إي أسباب ماليّة.

رافقتنا باتجاه المطعم وهي تتابع ثرثرتها وتنقّلها بين المواضيع بسرعة شرغوف يقفز بين أوراق الأشجار الطافية، تبدو كما يقولون "مثل من ابتلع مذياعًا".

فهمنا منها أن السيد حيدر هو مالك الشاليهات، يأتي لتفقّدها كلّ فترة، أما الآن، فيلازم بيته في اللاذقية، بسبب العاصفة القادمة، لم يتوقّع أن يأتي مستأجرون خلال هذه الأيام. بينما عائلتها مضطرّة للبقاء، فلا تملك بيتًا يؤويها غير هذا، يسكنون مقابل ملازمتهم لشاليهات ومطعم السيد حيدر صيفًا شتاءً.

****

ظننتُ أنّ المسامير المدقوقة في الخشب ستقبعُها شدّة الصراخ الّذي يتفجّر كأسطوانات غازٍ بين جدران الكوخ، خرجتْ جنى، وانصفق الباب خلفها بقوّة، قرقعتْ توتياء السقف. ركضتُ وميسم نحوها، ارتمتْ عليّ، ضمّتني وهي تبكي، وتخبرني أنّ صالح يحمّلها مسؤولية ما يحصل الآن، اضطرب كثيرًا، وطردها، دفشها خارج باب الكوخ وهو يقول إنّه يقرف منها، ولم يحبها يومًا، وإنّ الشفقة هي ما جعله يرافقها إلى هنا. قالتْ: تخيلي بيديه اللتين أحبهما رماني خارجًا.

****

اعتدتُ أن أعدّ القهوة لأمّي وأبي منذ صغري، أحبّ رائحتها والتقاط اللحظة الأخيرة لرفع الركوة عن النار، التحكّم بتناوب فورانها وخمودها، كما لو أنّها صدر عاشقة، أحبّ الرغوة التي تطفو على سطوح الفناجين،

وبراعة الرسمات التي تتبدل مع كلّ سكبة. أحبّ حين تتسل البشارةُ البخث من بين الخطوط السود، أحبّ طقوس شرب القهوة: صباحًا قهوةً ثقيلةً، يرافقها لحنٌ خفيف، مساءً قهوةً وسط وأغنيات طربية، قهوةً آسنةً في المقاهي الثقافية. أحب كلّ ما يتعلق بالقهوة، عدا طعمها.

بينما أغلي القهوة، سمعتهم يتجادلون حول دعوة صالح لشربها، حين دخلت عليهم بالصينية المعدنية، كانت تنقصهم ريشة، بعد دقائق قليلة عادت، لم تنبس بكلمة، جلست قربي تشرب قهوتها المحلاة، شعرها مختلفٌ، منفوش نوعًا ما، لم أعطِ أهميةً لذلك، ولا للبقعة الحمراء المطبوعة على سمرة عنقها الدقيق. شبّت قشعريرةٌ في جلدي، وأنا أرى الشرر يتطاير من عيني جنى، تحوّلتا إلى فرنين، تحترق داخلهما صورة ريشة بالبقعة الحمراء المطبوعة على عنقها الدقيق.

****

رأيت حنان تركض على الرمل حاملةً مشايتها بيد، ولاقةً زرقةَ فستانها باليد الثانية، انحسر الشال عن رأسها، لم تلتقطه، رفرف محررًا شعرها الكستنائي الطويل، ليطير كفراشةٍ خرجت لتوها من الشرنقة، استمرّت بالركض، بينما آثار الدعسات تتكاثر خلفها. المشهد أهال التراب على الحفرة التي تتسلّق ذكريات حمص جدرانها، تركتُ القلم والأوراق على مكتبي في ظهيرة الشرفة، ونزلتُ مسرعةً إليها، أدركتني بحمرة تلطخ قرص وجهها المندى بحبات العرق مثل زهرة مطلع الفجر.

- يا خالة غيم عب يلحقني، خبيني كرمال الله.
- حبيبتي حنان روقي. مين؟
- ما بعرف. زلمة أصلع، عنده سكسوكة بشعة. بخاف منهم، يا خالة غيم.

- من مين بتخافي؟
- من الصلعان اللي بيربّوا سكسوكة.
- طيب، وينه؟ ارتاحي، ارتاحي، ما في حدا. بعدين نحنا معك.
- الحقّ علي، نبهني أبوي ما أبعُد، بس ما لقيث حالي إلاّ بالضّقاق الفاضي، طلع بوشّي الزّجال، لفيث، وركضث. وهو ورايي.
- مشي الحال حبيبتي راح.
- أنا بحبّك، يا خالة غيم، مارح أخلّي حدا يقرّب صوبك طاول، قسمًا بألله.

لم أتوقف عند غرابة جملتها الأخيرة، أدخلتها إلى الشاليه، كي تشرب الماء وترتاح.

حنان صارت تحبّ أن تتفرّج علي، وأنا أكتب، تقعي قربي مثل قطّةٍ أليفة من دون الإتيان بأيّ صوتٍ أو حركة. أهزبُ لها بَسَماتٍ حانية. أتأمّلُ ملامح وجهها الكبيرة وحركات يديها، كم تلائمُ يفاعة كاتبة. على خلاف ما يحصل حين أنظر في المرآة، جلّ ما ينعكس امرأةً صغيرة الحجم بشعرٍ فاتح مسترسلٍ وغرّةٍ تغطي الجبين الضيق، تفتش عن نفسها داخل الكُتب، أعين الرجال، الأغنيات، الأفلام والمرايا .. ولا تجدها.

على كرسي المكتب الّذي قرضة البرد، وأعاده إلى الصالة، تقلّت حدقتي بين أريكة ريشة الفارغة، السقف بطلائه القشدي المقشور، التلفاز المعطّل، كُتبي التي نقصت واحدًا، استعارته حنان، وبروازين اعشوشبا داخل عينيها، يحملان صورة المرأة الصغيرة الحجم، الغرّة تغطي جبينها الضيق، تعض على مؤخرة قلمٍ بأضراسها المعطوبة. بعد محاولاتٍ كثيرة وسقطاتٍ في وعورة الذاكرة، بركبتين فدماتين، نجحتُ أخيرًا بالقفز فوق جدار الحصار، ابتعدتُ كثيرًا، حيث عدتُ بالحب إلى

طفولته السحيقة. لكن الأسى الذي خيم فجأة على حنان دفعني إلى ترك تلك الذكرى متأرجحة داخل رأسي، كي أعود إليها لاحقًا.

- حنان؛ شوبك، يا روحي؟
- لا شيء، لا تشغلي بالك، خالة غيم.
- حبيبتي، هل ما تزالين خائفة من الزجل؟
- لا، لا، فقط تذكّرتُ أن اليوم هو الموعد الشهري لاستلام سلّة المعونات من مركز الجمعية في القرية المجاورة. أنا قلقة من أن يتصرفوا بحضتنا، بسبب تفويتنا الموعد.
- آه .. لا تقلقي، أعتقد أن آلية عمل الجمعيات والمنظمات الإنسانية عمومًا تحفظ حقّ النازح بمخصصاته. على كلّ الأحوال حين نخرج من هذا المأزق نرافقكم إلى هناك للتأكّد من استلامكم لها. في العادة، يذهب والدك؟
- أجل، لكن، أحيانًا أرافقه، أو أذهب برفقة أخوتي. أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، أحبّ الذهاب والاستماع للأحاديث التي تدور هناك.
- عفريتة! ما الذي يعجبك في كلام أولئك المساكين المصفوفين في طوابير طويلة؟
- البؤس.
- شو؟ البؤس!؟ ليش؟

راعني جوابها حقًا، كلمة واحدة كضربة مخلب قضت جناحي حمامة، ورمتها أرضًا، حمامة كانت تضع الطفولة خلخالًا في قدمها، والصبا إسوارةً في عنقها، محلّقةً في بالي نحو الحب.

- لا أعرف كيف أشرح ذلك، يا خالة غيم، سوف

أستعيد لكِ بعض حوارات حفظتُها من مشوار الشهر الماضي، علّها تساعدني.

مثلت لي تلك الأحاديث مقلّدةً أصوات أصحابها وتعابير وجوههم بإتقانٍ مدهش.

- أنتِ تملكين رأسًا ذهبيًا، يا فتاة! عليكِ توظيفه في كتابة السيناريو أو الرّوايات. لا تُضيعي هذه الموهبة. لكن، رغم براعتك التي سحبتني من الكرسي، كي أتجوّل بين تلك الصفوف البائسة، لم أفهم تحديدًا أين المتعة التي تجدينها؟ هي ليست متعة أعرف، أقصد ما الّذي يجذبك في هذا كلّه؟

- تلك الأحاديث وترافُقها مع إيماءات ينزّ منها نزق حارّ تجعلني أشعر بالانتماء. أعني تتحوّل الطوابير في تلك الساعات القليلة إلى بيئة، لا أشعر بالغربة فيها، كأنّني أقف حيث أنتمي. أعثر هناك على من يشاطرني شكل الحياة البائس، ولو اختلفت الأسباب التي جاءت بنا، ولو لم تجمعنا سابقًا المُدن والأحياء ذاتها.

- حبيبتي أنتِ، هذا مؤلم، لشدّة ما هو صحيح.

- خالة غيم رمز المفوّضية صار مطبوعًا على الهواء الّذي نتنفّسه، البطّانيات الرماديّة، كراتين المعونات، شوادر الشّاحنات وبسطات الخضار. وكأنّه علمٌ جديدٌ للبلاد.

كلّنا نمنا في ليلةٍ داخل بلدٍ كنا نعرفه جيدًا، أو خُيّل إلينا أننا نعرفه، لنصحو في بلدٍ آخر، اسمه: .UNHCR

هل يُعقل أن تخرج هذه الأفكار من رأس فتاةٍ في الـ١٥ من عمرها؟ فتاةٍ تنحدر من مدينة "مارع" في ريف حلب الشمالي المنغلق اجتماعيًا، قضَت أوّل عقد من عمرها في زواريب عشوائيات حيّ "صلاح الدين" في حلب، والعقد الثاني نصفه هربٌ من النيران، والآخر

يتخبط الآن كسمكةٍ على هذا الشاطئ. حين أكلّمها أبدأ متودّدةً بكلماتٍ كـ "حبيبتي، قلبي، روحي" كي أبعث بيننا ودًا وألفةً. بعد قليلٍ، يتبدد فارق السن، لأطرق مفرداتي بمفرداتها مثل كؤوس نديمَين يتبادلان الأنخاب. ما جرى في سوريا أطاح بالأعمار، لنصير كلّنا بعمرٍ واحدٍ منفلتٍ من عدّاد الأجيال، إنه عمر الحرب.

نامت جنى هذه الليلة في غرفتي، بسطنا لها فراشًا. تبادل أنس وميسم المنامة. ابتهجت ميسم، قالت بحماسٍ "ستكون سهرة فتيات، تُعيدنا إلى الأيام الخوالي". وبشة تبرمت من الفكرة، قالت ساخرةً إنها لا تطيق التواجد داخل تجمعات النسوان، وتفضّل غرفة عروة وأنس أكثر.

كان يومًا طويلًا وقاسيًا، أنهك جنى، وجعلها تغفو بسرعةٍ. تمددتُ كما الأيام السابقة ملاصقةً للحائط، مفسحةً لـ ميسم الحيز الذي يشغله أنس عادةً. أحزنني أنني سأنام من دون أن تطوقني يداه، ويدفن رأسه في شعري، من دون أنفاسه على زغب رقبتي، من دون أن أعود كمشة طينٍ، تركها الرب لأنس، كي ينفخ فيها. عمّ الهدوء الشاليه، ولم ينغص كلامنا الهامس في السرير الأحاديث الخافتة رافقها لعب ميسم بشعري، تحرّكه على شكل أمواجٍ، كأنّ يدها ريح. بعث ذلك في شعورًا لذيذًا. كثيرًا ما لمحتُ ميسم تبحلق في بطريقةٍ مربكةٍ، كنتُ أبرر ذلك بحبها لتتبع دقائق الأمور من حولها. فجأةً كالأرانب تقافزت من جحور ذاكرتي مزاعم أنس حول غرام ميسم بي، لتتحرّك في المسافة الصغيرة التي تفصلني عنها. أمرٌ خفيٌ شد جسدي للاقتراب منها شيئًا فشيئًا، حتى صرنا متلاصقتين. بالتأكيد هي شعرتْ بهذا الأمر الخفي أيضًا. أحسستُ بها تتلوى، لكن، بتؤدة، مثل نهرٍ هادئٍ في مجراه. خفتُ من هذا الأمر الخفي، من مزاعم أنس، من ميسم، ومن نفسي، ابتعدتُ عنها بعنفٍ، وكأنني أتحرز من مصيدة "أنا نعسْت. تصبحي على خير".

****

- يبدو أنه سيكون يومًا طويلًا، أوصلك حفيدي إلى المدرسة، لذا تأخرتَ في القدوم، وأنتَ، ما الذي أخّرك، يا .. عفوًا لم أتعرّف بالاسم؟

- ظافر، اسمي ظافر. في الحقيقة كان من المفترض أن يأتي ابني سعيد، لكن، في آخر لحظةٍ، جاءه اتّصالٌ من صديقه للعمل في ورشة بناء، عليه أن يلتحق بهم على الفور، وإلاّ اكتمل نصاب العمّال من دونه. ابني بارٌّ منذ صغره، كان من المتفوّقين في المدرسة، لكنّ ما حلّ بنا اضطرّه إلى ترك الدراسة، والعمل حيث تيسّر له، كي لا نموت من الجوع. اللعنة على أمراض القلب والسكّري والمفاصل التي تتقاسمني، لولاها لكان سعيد الآن في كلّيّة الهندسة كما حلم دومًا. لماذا لم يوصله أبوه إلى المدرسة؟ أقصد حفيدك.

- ابني فؤاد غرق وزوجته في البحر، كانا يحاولان السّفر إلى أوروبا عن طريق مهرّبٍ خدعهما. أخذ تحويشة عمرهما والمال الّذي استدانَاه. كانا يحلمان بالوصول إلى شاطئٍ آمن، وبعد أن يستقرّا ويؤمّنا حياةً جيدةً، أرسلْ إليهما حفيدي محمود. فؤاد، رحمه الله، أصرّ على أن يسمّي ابنه باسمي. الآن أنا وجدّته نعتني به. حفودة الصّغير يبكي كثيرًا في اللّيل، ويصرخ ماما، في باقي أوقات النّهار يبقى صامتًا.

- كعك، كعك، كعك، كعك.

- مشان الله، يا أخي، لا نريد كعكًا ولا بطيخ، نريد أن ننتهي بسرعة، ونعود إلى أولادنا. اليوم سيبقى أولادي وحمواي من دون غداء، إذا استمرّ التوزيع

بطيئًا بهذا الشكل.

- طوّلي بالك، خذي كمشة البزر هذه، وتسلّي قليلًا، فمشوارنا طويل. عادةً ما يكون صفّ النساء أقصر من صفّ الرجال، لكن، يبدو أنّ كثيرًا من الرجال صاروا يرسلون زوجاتهم وأخواتهم بدلًا منهم، إخص ع رجال هالأيّام، بلا نخوة. لو كان إخوتي معنا أنا وأمّي، لما كنتُ الآن محشورةً بين هذه الحشود، لكنّهم أصرّوا على ألّا يتركوا البيت خوفًا من نهبه، وأرسلونا بعيدًا عن الخطر هناك.

- شكرًا لكِ، زوجي بتزت ساقه إثر إصابتها بشظيّة حين كان عائدًا من عمله، وبعد فترة، تركنا البيت، وأتينا إلى هنا خوفًا من إصابة الأولاد. زوجي كان المعيل لأهله، أما الآن، فأنا أقوم بخدمات منزليّة هنا وهناك، كي نستطيع الصمود.

- سارة، سارة، ذلك الشّاب، هناك، إنّه ينظر إلينا، هل أعجبتْه؟ تسريحتي حلوة اليوم؟

- ألم تيأسي بعد، يا مجنونة؟ كلّ شهرٍ تجرّينني معكِ إلى هذا المكان البشع، على أمل أن تحظي بعريس. لم أسمع يومًا بسلّةٍ غذائيّةٍ فيها برغل وعريس. ربّما يكون في السلّة الضخيّة إلى جانب الصّابون ذي الرّائحة الكريهة. شعركِ في أحسن حال، والشّاب لا يعيرنا أيّ انتباه.

- هنا الفتيات لقمةٌ سائغةٌ، وضعهنّ الاجتماعيّ الجديد كسر أنوفهنّ المتعالية علينا سابقًا. تعلم أنني آتي، كي أحظى بغنيمة.

- ما أنذلك، يا زلمة! لا أعرف ما الّذي غيّرك هكذا. ثمّ إن وضعك المالي جيّد، ولستَ بحاجةٍ إلى الوقوف هنا، أمّا الغنائم التي تتحدّث عنها، فهي موجودةٌ في

مكانٍ آخر حتفا.

- وضعي المالي جيد، والحمد لله، لكنه لا يقارن بثراء أصحاب السيارات الفارهة الّتي - كما ترى - تصل بعدنا، ليكدّسوا في صناديقها ما نقف ساعاتٍ كي نحصل على جزءٍ منه. بعد أن فسخت هند خطوبتنا، كي تتزوّج رجلًا قميئًا، يؤمّن لها جنسيّةً فرنسيّة، صرتُ أرى كلّ الفتيات طرائد.
- لماذا تبكين، يا أخت؟
- قبل أن أخرج صباحًا، وصلَنا خبرُ تهدّم بيتنا في حلب، بعد أن سمعنا أنّه سُرِق منذ فترة. يبدو أنّني سأظلّ واقفةً في هذا الطّابور كلّ عمري.
- طوّلي بالك، بالمال ولا بالعيال. أترين تلك المرأة هناك؟ تلك المشّحة بالسّواد؟ هذه جارتنا أمّ توفيق، قبل مدّةٍ، عاد إليها ابنها الوحيد مقتولًا، فزرعت قرب قبره غصن شجرةٍ يابسًا، وصارت تسقيه كلّ يوم، لإيمانها بأنّه سينبت يومًا فوق التّربة الطّاهرة.

أيقظني العطش، للوهلة الأولى لم أستوعب أين أنا، ظننتُ أنني حقًّا كنتُ واقفةً في طوابير مركز المعونات التي تسلّلتْ من حديث حنان ظهرًا إلى منامي. لبستُ نعالي الإسفنجية، وسرتُ نحو المطبخ. لمحتُ من الممرّ أريكة ريشة فارغة. انطلقت رشقةُ رصاصٍ طويلةٌ هذه المرّة، جفدتني، وأيقظت ميسم وجنى وأنس. دخل عروة من باب الشاليه يلهث، وبعده بقليلٍ صالح. شغلَ بالَنا غيابُ ريشة، خفنا أن يصيبها مكروه. تعجّبتْ ميسم من وجود عروة خارجًا في مثل هذا الوقت المتأخّر، بزّر الأمر بأرقٍ أصابه، خرج يدخّن، كي لا يزعج أنس. قال إنّه لم يرَ ريشة، ولم ينتبه حتّى إن كانت موجودةً في الضّالة. لم يفشر وجود الموبايل بيده رغم انقطاع الاتّصالات. صالح أيضًا قال إنه لم يصادف ريشة في طريقه. وسط بلبلتنا والرّصاص المندلع دخلتْ ريشة، كانت منتشيةً

تترنّح، وتقهقه عاليًا، من الواضح أنها حشّشت كثيرًا. وقفت وسط الصالة، بعينين غائمتين، وجسد يتمايل كعود ريحان، ألقت خطابها:

- فتحت أزرار قميصي، وصرخت بهم: هنا صوّبوا عليّ، يا أوغاد، ها صدري أمامكم، أليس مغريًا أكثر من السماء الّتي تتقّبونها؟ تعالوا إن لم يعجبكم صدري، فلديّ أمورٌ كثيرةٌ ستحبّونها، أنها الفحل الفنخظ، صوّب فوّهة بندقيّتك هنا (مشيرةً بيدها إلى فرجها) أريد مضاجعةً حقيقيةً لمرّة، لكنك أجبن من ذلك. أجبن من ذلك.

وسقطت مغشيًا عليها.

هوامش ترِيا لوكاس

٢)

لم أفكر يومًا بإطلاع الناس على قصة الغرق، كيف أخبرهم قصةً لا أعرفها؟ سيبدو الأمر أشبه بإعلانٍ طُرقي، يمرون به سريعًا، يجعلهم يعصرون أعينهم لبرهة، ثم يتجاوزونه بأعينٍ مفتوحة. في إحدى جلساتي مع حنان أيار٢٠٢٩ مدت القصة رأسها، وكأي إرهابي قطعته بأعصابٍ باردة، ودحرجته بعيدًا عنا. لكن انتابني شعور بأن حنان تعرف القصة، كنتُ أشعر بأنها تعرف كلّ شيء عن كلّ الناس. مرةً نافستُ في المدرسة على بطولة مونودراما، لم أحبّ النص، كان يعالج مرض الاضطراب الوجداني ثنائي القطب بشكلٍ سطحي. رغبتُ بالدور بقوة من أجل المشهد الختامي: بانيو من الزخام وسط المسرح، تتعرض البطلة الممددة داخله إلى نوبة اكتئاب وابتهاج مختلطة، تُبقي رأسها داخل الماء محاولةً إغراق نفسها، ثم تُخرجه وهي تسعل وتضحك وتلعب بفقاعات الصابون، ينقلب الضحك إلى نشيج، ينكتم داخل الماء، وهكذا تناوب بين الغرق والنجاة حتى تُسدل الستارة. لم أفزْ بالدور، فكرتُ أن أجربه وحدي في حمام المنزل، أردتُ أن أستعيد ما أحسستُهُ في تلك القصة التي لا أعرفها، أن أطيل الغرق أكثر، كي أستحضر مشاعر أهلي حينها، أن أقارب لحظة مفارقة الحياة، لأعرف بمَ يمكن أن يفكر الناس وهم في "جفن الردى" على حد تعبير شاعر عربي. أنا لا أعرف أهلي، ربّما صرخوا أو اكتفوا بترديد الصلوات. رغبتُ بتجريب ماذا الّذي يفعله شخص لا يصلّي، هل سيتحوّل إلى مؤمن بأمر لم يفكر به سابقًا؟ أحدٌ ما قبل أن يموت وضعني على تلك الخشبة، الخشبة التي هي حقيبة الحورية الشقراء حسب رواية ماما ساتي. الحورية مستوى ثانٍ من الألوهة، لذا لو أغرقتُ نفسي الآن ربّما صلّيتُ لها، هي الآلهة الوحيدة التي أعرفها جيدًا، والّتي قدّمتْ لي مساعدةً، ولو داخل قصة وهمية. لم أجرؤ على فعل ذلك، ولم أحضر المسرحية. تابعتُ حياتي من دون العودة إلى حقيبة الحورية، الخشبة الصغيرة، مسرح الغرق والنجاة.

حمص/٢٠١٢

في شهري شباط وآذار أتحول إلى عصفورٍ مبلول في باله غابةٌ كاملة من الأشجار العارية. يحتلّ عقلي التفكير بأناسٍ يعيشون الآن ما عشته خلال هذين الشهرين من عام ٢٠١٢، أستطيع رؤية خوفهم بوضوح، أحفظ ملامحه غيبًا، ملامح من نوعٍ خاص، ليست للأمر علاقة بخطر الموت، أو أمورٍ بهذه السذاجة، بل هو مختلفٌ تمامًا (هذا لا يعني إنكار المخاوف البديهية)، أتحدث تحديدًا عن خوفٍ مرافقٍ لإحساسٍ مُهلِك، إحساس بأنك منسي، وبأن وضعك هذا قد يدوم إلى الأبد، والحياة بعيدةٌ جدًا، مع أنها في منطق الزمن قد تكون على مسافة ربع ساعةٍ منك. فكرة أن كلّ شيء سيستمر وأنت غير موجود، أنت الّذي ما تزال تتنفس الهواء ذاته، فكرة تثير هلع أي إنسان، (آسفة لا أستطيع إلاّ أن أستخدم تشبيهًا مكرورًا هنا) كما لو أنك مدفونٌ وأنت حي، تسمع زمامير السيارات وضجيجَ المارّة ونحيبَ زوجتك، ثم انقطاعَ نحيب زوجتك الّتي عادت إلى الحياة خارج أسوار مقبرةٍ، ما يزال قلبك يخفقُ تحت ترابها. كنتُ أقفُ من وراء بلّور شبّاك الصالة أراقب مرور سياراتٍ محمّلةٍ ببيوتٍ وأهلها، أراقبها كيف ترحل، وأنا واقفةٌ خلف بلّور الشبّاك، لا أحد يراني، لا أحد يلوّح لي، الكلّ يريد اللحاق بتلك الحياة الّتي على بُعد ربع ساعة. التفكير بأنني وحدي سأواجه ما يهرب منه الجميع، يا للرعب! لا يستطيع الإنسان إلاّ الإيمان بذلك، أقصد الإيمان بأن وجوده ضمن جماعة يشكّل عامل أمان له، هو ليس أمانًا فعليًا، لكن، فلنقُل الارتياح لتقاسم الكارثة مع الآخرين. أعرف أنْ لا منطق في ذلك، أصلًا المنطق أوّل الهاربين في ظروفٍ كهذه. الأسوأ في هذا كلّه هو أنك لا تستطيع رؤية نفسك على هيئة بطل حكاية، هربَ سكّانُها، وتركوه ينفرد ببطولته المطلقة، عقلُك يضعك أمام الحقيقة القاسية: أنت ضحيةٌ لأمرٍ تجهلُه، ضحيةٌ لا يسعُها الآن إلاّ محاولة نسيان أنها منسية، وأنّ ثمة حياة كاملة على بُعد ربع ساعة منها. كنتُ أيضًا أراقب الشارع الفرعي، وقد تحوّل إلى رئيسي، حظّهُ (أو ربّما سوء حظّه) حوّلَهُ جزءًا من طريق النجاة هذا، جعلَهُ أكثر حزنًا من قبل حين كان مجرّد شارعٍ

فرعي، تملأ وجهه الحفر. في الأيام الماطرة، كنت أصلُ المدرسة الإعدادية وبنطالي الكاكي مبقّعٌ بالوحل حتى ركبتيه، أنتظر البقع إلى أن تجف، أخرج فرشاة الثياب (لم أكن أنسى وضعها في الحقيبة بين الكُتب والدفاتر والمقلمة)، أحكُّ البنطالَ بقوةٍ حتى ينظف، وألعنُ الشارع الفرعي بحُفره. ضوءُ البلديّة دائمًا معطّلٌ في هذا الشارع، في المساءات التي أعودُ بها وحدي، كنتُ أعبره بسرعةٍ متلفتةً حولي، حتى أصل المنزل، أصفق الباب خلفي، أشرب الماء، وألعن الشارع الفرعي المعتم. كان هذا الشارع المفضّل للقطط (ترى ما الّذي حلّ بها الآن؟)، كانت تتزاوج في كلّ أشهر السنة، وكأنّ الشارع كرخانة كبيرة لها. هذا أيقظ في ذاكرتي الدار الملاصقة لبنائنا، كانت لعائلةٍ كبيرة، تربّي الحمام على سطحها، يعملُ الصفيرُ والكلمات غير المفهومة لجارنا وأولاده الحميماتية كموسيقى تصويرية لتلك الفترة من طفولتي. رحلَت عائلة الحمام من دون أن تترك ريشةً وراءها، أو فردة حذاءٍ عتيقة، أو نظرة تلصص أخيرة، وهُدِمت الدار أواخر التسعينيات، ارتفعت على أرضها بنايةٌ بثلاث شقق، الشقّة الأرضية صارت بيت دعارة. ربّما أعود إلى هذا لاحقًا، وأخبركم مطوّلًا عن التنهيدات التي كانت تصل عبر جدار غرفة المعيشة، الجدار المعلّقة عليه أيقونة المسيح الضابط الكلّ، التي تركع أمامها جورجيت بكثرة. ماتت صاحبة البيت قبل الـ٢٠١٠، وامتنع الناس عن شراء منزلٍ مشبوه. تخطر لي فكرة غريبة الآن: لو أن بيتَ الدّعارة ذلك استمرّ في أثناء الحصار بعملهِ كبيت دعارة، ربّما كان الأمر أخفّ وطأةً وسينمائيًا بطريقةٍ ما. ما أردتُ قوله إنّ هذا الشارع كان أقلّ حزنًا قبل أن يحوّله الحصار من فرعي إلى رئيسي، يفضي إلى الحياة التي على بُعد ربع ساعة. وأنا توقّفتُ عن لعنه.

الزمن في الحرب يخرج من أبعاده المعروفة، ويصيرُ كالماء، يأخذ شكل الإناء الّذي يُوضع فيه، الإناء الّذي يخضع لمنطق تتحكّم به الحرب أيضًا. مثلًا ربع الساعة ذلك قد ينكمش، ليصير ثلاث دقائق، تُبعدك عن التفجير، وأكثر قد يصير ثانيةً واحدة تفصلك عن رصاصة القنّاص، أي عن آخر رحيلٍ ممكن، الرّحيل القريب دائمًا، نحن نتكلّم عن ثانية، إذًا هو يكاد يكون ملاصقًا لك، وقد يحزك بمروره قميصك، رغم ذلك لا نستطيع إلاّ تخيله بعيدًا، بعيدًا إلى درجة أنّه لن يصل أبدًا، ونظلّ نتفاجأ كلّما وصل. في أثناء خروجنا من حمص (سالكين طريق النّجاة ذاته)، رأيتُها بعيني، تلك اللافتات الطّرقية التي تحمل عبارة "انتبه، قنّاص". نكتة مضحكة،

صحيح؟! ينقصها فقط أن تكون في بلد بعيد. كنا ثمانية أشخاص محشورين داخل سيارة من طراز هيونداي أكسنت ١٩٩٩، تتسع لخمسة أشخاص على الأكثر، جلست في حضن أمي، لذا كان رأسي الأكثر ارتفاعًا، وصرتُ المرشح الأنسب للرصاصة المقبلة، لكن تلك الثانية عملت لصالحي هذه المرة، وجعلتني أكتفي بسماع صوت ارتطام الرصاصة خلف دولاب السيارة. كان السائق خبيرًا بهذه الطريق، يُتقن متى يسرع إلى الحد الأقصى، كي يؤمّن خروج الزكاب من النسيان إلى الحياة التي على بُعد ربع ساعة، كي يُخبروا سكانها حكاية الثانية التي قهرت الموت. تمنيتُ أن أسأل السائق هل سبقته الرصاصة يومًا؟ لكنني لم أستطع أن أقاطع صلوات أمي وجدتي، ونحيبهما.

أوراق غيم حداد - حصار حمص (٢)

حمص/٢٠١٢

بعد فترة من الحصار، تتفتح أمامك اكتشافاتٌ كثيرة، مثل أنك تستطيعين العيش بلا اتصالات، نعم، حياتك يمكن أن تستمر من دون تفقُّد إيميلك أو إثبات حضورك على السوشال ميديا، من دون أن يرن موبايلك، قد تنسين وجود هذا الاختراع. وأكثر: سيصير هذا الشكل (الذي يبدو بدائيًا) من الحياة عاديًا، تألفينه ويألفك، شيءٌ يشبه بشكلٍ ما أن تعودي كي تعيشي التسعينيات وأنت صبية هذه المرّة. تفاجئك أيضًا قدرتك على الاستحمام باستخدام ركوة ماء صغيرة فقط (أجل حتى لو كنت تمتلكين شعرًا بهذا الطول والكثافة)، الزكوة التي ستكونين ممتنةً لأنك حظيت بها، كذلك أنك لا تتجفلين من أجل الناس، بل كي تحافظي على شكلك، كما تعرفينه داخل المرآة. كنتُ أعتني بنفسي كلّ يوم، وكأنني ذاهبةٌ إلى موعد غرامي، أمشّط شعري، أكشطه وأثبته بالذبابيس، أنزعُ الشعر الزائد كلّما نبت قليلًا على جسدي، أقلّم أظافري، وأطليها باللون الأحمر (بعد أن جفت الألوان الأخرى)، أحيانًا في المساء، أبدل ببيجامتي ثيابًا أنيقة، وأضع على رموشي القليل من الماسكرا، لم أكفّ عن رش العطر خلف أذني (شخ قليلًا آخر فترة، هذا ضايقني). كما اكتشفتُ أن بإمكان أسخف الأمور الترفيه عني، مثل أن ألعب مع القلّة المتبقية من سكّان عمارتي ألعابًا مستعادةً من الطفولة، تلك الألعاب التي لم يكن يلزمها إلاّ وجود الزفاق. صرنا ننقسم إلى فريقين، اللعبة التي لاقت الرواج الأكبر بيننا هي لعبة الأغنيات بقوانينها البسيطة: على أفراد الفريق تأدية أغنية تبدأ بالحرف الذي انتهت به أغنيةُ الفريق الآخر، من يكرر أغنيةً يخسر. أحيانًا كان يصادف مرور أحد الكبار، فيشاركنا اللعبة، هذه كانت فقرتي المفضلة، فأنا غنائيًا أنتمي إلى ذلك الجيل، جيل أهلي. لم أنشأ في بيتٍ يهتمّ بالسياسة أو الأدب (وبالتأكيد لا يهتمّ بالمال)، أو كي أكون منصفة كان الاهتمام في حدوده الدنيا، في بيتنا إن لم تسمع صوت المعلّق الرياضي، فحكمًا ستسمع أغانٍ طربية، أبي كان يحبّ كلّ شيء قادم من مصر، يتحدث بإطناب عن عبده الحامولي، وصالح عبد الحي، وبالطبع الست أمّ كلثوم، في صغري كان

يجلسني قربه (خاصةً في أثناء غداء يوم الأحد، كأس العرق أمامه، يشربني منه، لم أحب طعمه يومًا، "بصبلك قدوحة؟، خلص خوديلك قرفي وحدة عالقليلة") محاولًا تعليمي المقامات الموسيقية سماعيًا، وحين يزورنا أحدٌ يسألني أمامه عن مقام أغنيةٍ ثُدار في مسجلة الكاسيت casio، حين كبرتُ صار الأمر يزعجني، وملتُ منه، لكن، كنتُ أقدر كم يفرحه هذا، وأفعله. رافقته إلى حضور الحفلات الموسيقية لفرقة نادي دوحة الميماس وفرقة حمص لإحياء التراث وفرقة نقابة الفنانين، أحببتُ المواويل البغدادية، وشاركتُ أبي حبه لصوت المنشد الحمصي "ياسر المظلوم" الذي يملك حنجرةً ساحرة، هو حمص حين كانت تغني، حقًا كانت هذه المدينة تغني! كان أبي يرجع مبسوطًا بعد حضور الموالد التي يُدعى إليها، وتكون مقامةً على أسطح أحد بيوت أصحابه، أو في بساتينهم المنتشرة على أطراف المدينة، يحكي لي عن شلالات البقلاوة والفواكه المنتقاة حبة حبة "بتشهي الفورجي أكتر من الأكل" وعن بزادات الشاي التي تدور كلّ الوقت "الواحد هونيك بيسكر ع الشاي". العام الماضي (أقصد ٢٠١٣) قرأتُ أن ياسر المظلوم (أبو عفار كما يحب أبي أن يناديه) توفي، لم أخبر أبي بذلك، ولم أخبره؟ "توفي أبو عفار على خشبة مسرح في القاهرة"، جملة تستطيع أن تكون بثقل النزوح الذي يعيشه الرجل الآن (لستُ متأكدةً من أنه مات فعلًا على الخشبة، لكنني متأكدةٌ من أنه تمنى ذلك). كنتُ أخبركم عن اللعبة، وعدم إدراكنا غرابة أننا نغني، بينما قذيفةٌ قد تخرق سقفنا بعد قليل، كنا نغني لأننا نريد أن نلتزم بقوانين لعبةٍ، تُلهينا عن التفكير بأن قذيفةً قد تخرق سقفنا، وتُنهي حياتنا بعد قليل. في أحد الأيام، اشتد القصف كثيرًا، أصدرت جدتي تعليماتها بأن نتجمع كلّنا داخل غرفة جدي (بيت جدي في طابقنا نفسه)، كونها الأكثر أمانًا (غرفة داخلية ومحاطة من كلّ الجهات بأبنية الجيران)، لكن، كان لجدتي سببٌ أهم: "غرفة أبو فارس ما بيصرلها شي، ختيار وقلبه لله، وين ما قعد بتحلّ البركة"، سألها ابن عمي (كان في السادسة من عمره) بكلّ جديّة: " ليش جدو مضاد صواريخ؟" ما جعلنا جميعنا ندخل في نوبة ضحك، أنستنا القصف الشديد، أظنّ أنّ ضحكنا هو الذي حرف مسار الصواريخ، لا يعقل أن تسقط صواريخ على عائلةٍ في أثناء ضحكها، مع أنني سمعتُ عن عائلاتٍ زارتها نيرانٌ وقحة مقاطعةً وجبات طعامها، أو ساعات نومها، لم أسمع حتى الآن بواحدٍ قاطع الضحك.

اكتشفتُ أن هواياتي تستطيع أن تنمو داخل الحصار، كنتُ أقرأ كثيرًا، أركض حول الضالة حتى أدوخ، أرقص على ألحانٍ تدور في بالي، أو أغانٍ تخرج من راديو ترانزستور قديم، أخرجته لي جدتي من الشقيفة (كلّ الأجهزة نفد شحنها الكهربائي). لم أعش فترات انقطع فيها الطعام بشكل كامل، اقتصر الأمر على تقنين ظفيف. الجوع الفعلي تفشّى بعد رحيلنا بين القلّة التي صمدتْ في الحي، لذا لا أملك خبرةً في مساكنة الجوع، سمعتُ أن معارك نشبتْ بين الناس من أجل علبة سردين. غلّب السردين التي كنا نشير بها إلى طعام الفقراء البارد، تحوّلتْ في الحصار إلى رفاهية.

وادي قنديل/سوريا/شباط ٢٠١٤

خلال مشواري الطويل مع النهجين، أدمنتُ دخول الإنترنت، أول فترة، كنتُ أنفق عليه تقريبًا ٢٣ ساعة يوميًا، إذا اقتطعنا من اليوم الأوقات الضائعة بين الحمام والأكل على عجل، صار الأرق صديقي المدلّل والوحيد والدائم، صديقٌ وفيٌ أكثر مما يجب. كانت عيناي تبدوان معلّقتين بدبوسين على الشاشة، حدقتاي تلهثان وراء الصور والأخبار القادمة من الحي. كان ذلك يحصل بشكلٍ عفويّ طبيعيًا في سياق اللاحياة التي زججتُ نفسي فيها، ظانّةً أنني بذلك أدفع عجلة العودة بشكلٍ أسرع. تعبتُ من ثقل الصور المتتالية وهي تحمل لي دمارًا هائلًا، وضياع ملامح لشوارع بحالها، ولقطاتٍ قريبة لفتحاتٍ في جدرانٍ، اتكأتُ عليها طويلًا.

- هل لاحظتَ يومًا كم أنّ الخراب فوتوجينيك؟

وجّهتُ السؤال إلى صالح، ارتبكَ، تابعتُ من دون أن أنتظر إجابته:

- لم تؤلمني صورةٌ كما فعلت تلك التي التقطت الأسبوع الماضي في الحي، يا الله، لقد أطلقتْ رمحين، اخترقا مقلتيّ، وجعلتا سمًا موجعًا يسري في شراييني، هي صورة لأبي خالد جالسًا أمام باب محلّه الأزرق، تمامًا كآخر مشهدٍ رأيته فيه، بالأحرى ككلّ المشاهد التي كان يظهر على هامشها. لا أعرف أبا خالد بشكلٍ شخصيّ، هو بالنسبة لي "أبو خالد البسكليتاتي". محلّه في الشارع خلف بيتنا، كنتُ أمرّ من أمامه بمعدّل مرّتين في اليوم. هو راسخٌ هناك ببدلته الشفاري ذات اللون الكحليّ الكالح، لحيته البيضاء المشغّثة، رقبته المعقوفة دائمًا نحو دراجةٍ يصلحها، والتشققات العميقة الكثيرة في وجهه الذي جفّ قبل مئات السنين. لا أذكره إلاّ عجوزًا، أظنّه وُلد هرمًا، أشكّ أصلًا بوجود حكايةٍ تسبق ظهوره بحلّته

هذه أمام باب محلّه. هو هناك دائمًا مثل الرّصيف وشجرة الأكيدنيا وأبواب العمارات المعدنية. شارع محلّ أبي خالد صار خطّ تماس، فاستحال الحضن الّذي ترتمي عليه القذائف، لكن، لسبب ما حرصت على ألاّ تقترب من المحلّ الأزرق العتيق. ما الّذي كان يفكّر فيه أبو خالد والحيّ يحترق من حوله؟ هل رفع رقبته يومًا، ليتتبّع مسار طائرة؟ اللحظة التي هوى فيها سقف جيرانه، هل تمكّنت من إيقاف يده عن عملٍ أكل منها دهرًا؟ وهل شاهد كلّ تلك الدّجاجات التي أصلحها وهي تتّجه بسرعةٍ نحو الهاوية؟

لم أنظر إلى أحد وأنا أرمي تلك الأسئلة، كنت أقذفها في وجه الحياة التي تتأخّر في الإجابة دومًا، أبقيت ذقني مسنودةً على ركبتي المضمومتين نحو صدري، وأنا أصغي إلى ما يقوله أنس:

- هذا يذكّرني بالفوّال "أبي حسن" المعروف في حيّ الجميلية بحلب (أقلّ شهرةً من الحاجّ عبدو الفوّال)، كنت أتردّد إلى محلّه كثيرًا قبل أن تضيق عليّ تلك المدينة الكبيرة، وأغادرها. في إحدى زياراتي لها عام ٢٠١١ حين كان الوضع مستقرًّا وهانئًا مثل بيتٍ لم تمرّ في باله حربٌ تخلع بابه، قصدتُ محلّ أبي حسن محاولًا إحياء عادتي القديمة بتناول صحن فولٍ مفرّقٍ بالطّحينة عند ساعات الفجر الأولى، بعد سهرةٍ طويلة مع الأصدقاء القدامى. كان أبو حسن مختفيًا وراء مرطبانات المخلّل ذات الألوان الأخّاذة، بعد تبادل السّلامات الحارّة شرع يحضّر صحني المعهود قبل أن أطلبه. سألتُه عمّا يدفعه إلى فتح محلّه منذ السّاعة الرّابعة صباحًا في مثل هذه الأيّام التي لا تستيقظ فيها المدينة قبل السّابعة، فمن النّادر أن يقصده مجنونٌ مثلي للفوز بوجبةٍ من الماضي. صمتَ قليلًا وهو يفرك منزره الأبيض فململما سنواتٍ

ووجوهًا مرّت عليه، ثم أجابني: لأنني فوّال.

قالت جنى:

- فكّرتُ في أمرٍ مشابهٍ في أثناء عبوري سوق النحّاسين في الشام عشيّة أحد الأيّام، كان الشارع معتمًا ومقفرًا، رأيتُ ضوء فانوسٍ خافتًا يخرج من محلّ، لا تتجاوز مساحته مترين مربّعين، في داخله نحّاس عجوزٌ يدقّ ركوةً. وجدتُ المشهد غريبًا، فكّرتُ حينها بضرورة وجود هذا الرّجل كي تكتمل الصّورة مع انحناءته وتواتر طرقاته. فكّرتُ أيضًا بأنّه لن يموت، وبأنني سأمرّ في العام القادم لأجده منحنيًا يدقّ صحنًا كبيرًا، ستكون ظلمةٌ في الشّارع، يكسرها ذاك النّور الخفيف المنبعث من محلّه الصّغير.

بعد مصالحة صالح وجنى، لم أستغرب أن يكون أوّل من يعقّب على كلامها:

- "أورهان باموق" يشبه البسكليتاتي والنحّاس والفوّال حين يقول: "أكتب لأنني لا أستطيع القيام بأيّ عملٍ آخر ممّا يفعله النّاس"، ويكمل: "أكتب كي أكون وحدي". يا لعزلتهم السّاحرة!

اندلقت شفة عروة معلنةً عن تبرّمه الشّديد:

- بصراحة، أنا أفضّل ماركيز حين يقول: "أكتب ليحبّني أصدقائي أكثر" كتبتُ مرّةً منشورًا مطوّلًا على صفحتي في الفيسبوك متوسّعًا في هذه الفكرة، حين تعود الاتّصالات أقرؤه لكم، لقد أحدث حينها تغييرًا في حياة كثيرٍ من الشّباب الّذين راسلوني على إثره.

قاطعت ميسم بلباقة استرسال عروة في استعراض بطولاته الافتراضيّة، وأعادتنا إلى الموضوع:

- تعزّفتُ مطلع هذا العام بفتاةٍ ثلاثينيّة طيّبة، نازحة

من مدينة إدلب، حين قدمت إلى المستشفى، كي تعملَ في التمريض، المهنة الوحيدة الّتي تجيدها. إلاّ أنها اختفت فجأةً، صادفتها بعد ذلك خلال زيارتي بيت زميلة ميسورة الأحوال، كانت الفتاة تعمل هناك كخادمة بدوام جزئي. سألتها عن أسباب تركها التمريض. أجابتني: "يا دكتورة، ساعة التمريض بـ ٤٥ ليرة فقط، يعني لو عملتْ عشر ساعاتٍ في اليوم بالكاد سأحصّلُ أجرة غرفتي، هذا ولم نتطرّق بعد إلى مصاريف الطعام وأجور المواصلات، لأنّني أسكن في أطراف المدينة، خلّيها لربّك. في إدلب، كنتُ أسكن في بيت أهلي وكان راتبي يكفيني كي أعيش مرتاحةً، لم أتخيّل يوماً أن أعمل في تنظيف بيوت الغرباء. الحمد لله على أيّ حال" لولا الحرب، لكانت هذه الممرّضة حلقةً جميلةً، تُكمل السّلسلة، أليس كذلك؟

كان سؤال ميسم موجّهًا إليّ، يحمل عتبًا وتقريعًا مهذّبًا، استغربتُ ذلك، ولم أعرف بمَ أجيبها، أكملتْ حديثها من دون أن تزحزح نظرها عنّي:

- الحرب تطيحُ بكلّ شيء، حتّى لو تجنّبتْ لسببٍ ما البسكليتاتي، ربّما كانت نيّتها في ذلك خبيثةً أيضًا: أن تؤلمكِ صورته. لا يعقل للحرب أن تقوم بعملٍ طيّبٍ إلاّ مع الأشرار.

دبّت الحياة فجأةً في ريشة، كأنّ ما قالته ميسم صعقها بالكهرباء، وجعلها تتكلّم بانفعالٍ شديد:

- أوافقكِ الرّأي، بالمناسبة، اسمها ثورة، لكن، سأجاريكم وأقول إنّ "الحرب" بين قوسين، ليست المذنب الوحيد، لو حصل التّغيير العظيم الّذي حلمنا به، وعملنا من أجله، لكان حوارنا هذا يجري تحت سماء بلدٍ، يتيح لي الوقوف على إحدى خشباته، والقيام بأدوارٍ كثيرة أجيدها. ولألقيتُ على طاولة هذا

الحوار مثالًا، يكمل السلسلة الظريفة. أتعلمون؟ هذا الحديث يجعل الشتائم تتدافع في فمي، من الأفضل أن أغلقه، وأسكت.

وأخرجتْ ورق لَف (الشام) من حقيبتها القرمية على الأرض.

كنتُ مكوّمةً على نفسي مثل صرّة، يد أنس مرخية على كتفي، عيناي هائمتان، متخذةً وضعية إصغاء، جعلتْهم يلتفتون إليّ باستغراب حين أطلقتُ صوتي:

- في طريقي إلى العمل، كنتُ ألتقي كلّ يومٍ برجلٍ مشرّدٍ على الرّصيف، أغلب الوقت يكون نائمًا، متكوّرًا مثل جنين داخل الرّحم، شاغلًا الحيّز ذاته بين عمودي لوحة إعلانات معدنيّة ضخمة، الفصول تتعاقب على نومه مثل أحلام عابرة. آخر مرّة رأيته فيها كان واقفًا يقشّر الملصقات القديمة المهترئة عن اللوحة، منهمكًا في العمل مثل من يحضّر بيته لاستقبال ضيف مهمّ. بعدها لم أره ثانيةً. وضعتُ احتمالاتٍ عدّة لاختفائه، منها أن يكون الزّائر هو الموت شخصيًا، أو أنه ككلّ الأجنّة ركل الرّصيف، ثمّ خرج بأسماله البالية جارًّا حبله السّرّيّ يلسع به ظهرَ العالم. ما أردتُ قوله، يا ريشة: إنّ البؤس الّذي يعيشه هذا الرّجل لم يذقه أحدٌ منّا، لأننا من المحظوظين ربّما، لكنّ ذلك لم يَعقه عن الاعتناء بالشّيء الوحيد الّذي ظلّله. من حقّ هذا الرّجل لو أحبّ تكسير اللوحة ونصب بؤسه كأقتم ملصقٍ إعلانيّ، لكنّه لم يفعل، لأنه مثل القوّال والبسكليتاتي والنّخاس والكاتب، إلاّ أن الحياة أعطته أدوات تعبيرٍ مختلفة.

توقّفتْ ريشة عن لعق حافّة ورقة اللّف، شحذتْ لسانها جيدًا، لكنْ جنى سبقتْها إلى الكلام، وقطعت الطّريق على ريقها المبلوع، بصوتٍ يتلوّى سخرية:

- لقد رأينا التغيير الموعود ونتائجه، أوصل الزعاع، وفي أفضل الأحوال، أنصاف الموهوبين، وتعقد ظفس مبدعين حقيقيين، ناهيكم عن الإساءات الجسيمة المرتكبة بحقّهم.

ما جعل ريشة تحرف مسار غضبها باتّجاه جنى، مسحت شفتيها الزقيقتين المزرقّتين بظاهر كفّها، وأجابتها بغلّ شديد:

- جنى، أنت تتحوّلين إلى شبيحة حقيقيّة، لو دخل أحدكم السّجن لمدّة ساعتين فقط، لخرج برغبة عارمة بتكسير كلّ ما حوله، وقد يصل به الغضب إلى تكسير نفسه أيضًا.

تدخل عروة:

- إذًا، ما تفسيرك لنأي معتقلين يساريين سابقين بنفسهم عن كلّ ما يحصل؟ هم لم يدخلوا السّجن لساعتين، بل لسنين طويلة، وخرجوا بأعطاب جسديّة ونفسيّة أيضًا.

ردّت ريشة:

- أرجوك! يسار الثّنك هذا لا أحد عرفه وعايش زيفه مثلي، لا أطيقه، شعارات خشبيّة طرقوا بها رؤوسنا، وفي النهاية هوت معهم حين أداروا ظهورهم السّمينة لرغبة الشعب.

استعادت جنى الزّمام مجدّدًا:

- أنت، يا ريشة، ما تزالين تعيشين في عام ٢٠١١، متى ستفيقين من الفيبوبة؟ أنت تعلمين لم انسحبت، وتعلمين أنّني أدركت - ولحسن الحظّ - باكرًا تعقّد بعض رفاقنا - الّذين تعرفينهم جيّدًا - دفع رجال الأمن إلى اعتقالهم، ليخرج واحدهم بعد فترة كبطل يصدّع رؤوسنا بساعات سجنه. انسحبت حين مات أصدقاء لي تحت التّعذيب، في حين من كان ينسّق

لهم تحزكاتهم لم يبرح بيته، ثم فز، وصار يتسوّل على أشلائهم في أزقّة أوروبا. انسحبتْ حين رأيتهم وسمعتهم يطالبون بأسلفة ثورتك.

كان صوت جنى يرتجف ووجهها يترنّح على شفا البكاء، ولم يمنع ذلك ميسم من محاججتها:

- لكنّ ما تقولينه، يا جنى، لا يلغي أحقّيّة المطالب، صحيح أنني لم أشارك في المظاهرات كما يجب، بحكم تواجدي في اللاذقية التي كمّ فمها باكرًا، مع أنّها كما تذكرون كانت من أوائل المحافظات التي ثارت، إلاّ أنني أقف مع الثورة، ولو نكّلوا بجثّتها ليل نهار، عندي إيمان أنها ستقوم وتنفض عنها كلّ الأوغاد.

ما قالته ميسم أثار حفيظة عروة، وجعله يتكلّم بحدّة غريبة عن هدوئه المعهود:

- ميسم! لقد تكلّمنا في هذا مطوّلًا، وها أنتِ تعيدين الأسطوانة المشروخة ذاتها. على فكرة، أنا لن يصيبني مكروه لو رفرفت الرّايات السّوداء في كلّ مكان، لكنّ، أنتِ من عليه تحتسس رقبته. كونك حبيبتي لن يشفع لكِ عند داعش والنّصرة، وحتّى الفصائل المعتدلة. ضعي تحت "معتدلة" ألف خطّ أحمر.

صفّق صالح بيديه بتواتر مستفزّ:

- براڤو، أوه، صديقي اليساريّ العنيد، سيكشف طائفته كآخر ورقة.

صارتْ شفتا عروة ترفرفان غيظًا:

- على الأقلّ، أنا لا أشهر طائفتي على الحواجز، كي يرموا لي تحيّة سلام، كما تفعل حضرتك. مرحبا ضيعة، أهلين غالي! ولا أختفي كالنّعامة، كي لا أرى ما يحصل.

ألم نتفق على تجنب الكلام في السياسة؟ أرجوكم، فلننهِ الحديث حالًا.
تدخلتُ، وأسدلتُ الستارة على الحوار قبل أن تتحوّل الصالة إلى أرض معركة.

****

الحصار هو الحقيقة الوحيدة التي أُجبرنا جميعًا على الاعتراف بها، والتي لا تكفّ عن تذكيرنا بنفسها، كلّما غفلنا عنها قليلًا. حقيقة لا تخجل، تتمدد أمامنا عارية من دون أن تتوارى وجنتاها، وكلّ مرة تأخذ شكلًا جديدًا. الآن ظهرت في المطبخ على شكل إنذار باقتراب نفاد مخزون الطعام، ما دفعني وجنى في أثناء تحضير الإفطار إلى إحصاء ما تبقّى منه، كي نصل إلى صيغة مناسبة لتوزيعه على الوجبات. لم نبح بالأمر للأصدقاء، إلاّ أن الإفطار الفقير الذي أعددناه كان معبرًا، مرّت من خلاله رائحة الخطر الذي يسكن المطبخ. عند الظهيرة، وفي أثناء تحضيرنا الغداء، لاحظنا وجود نقص في الكفية، ما وضعنا في موقف مخيف ومحرج، لم نخبر أحدًا بذلك، خرجنا من المطبخ بنيّة لكشف هوية السارق. شكوكنا التي دوّمت حول ريشة، لم تجرؤ على الإفصاح عن نفسها.

سهرنا هذه الليلة في المطعم، البرد اشتدّ، والكهرباء مقطوعة منذ الصباح. كنا نزجي الوقت لا أكثر، بلا أحاديث جماعية ممتعة، أو حتى سجالات سخيفة. أحسستُ بالضغينة تنمو بيننا. أصغيتُ إلى صوت طقطقة الحطب داخل المدفأة، تخيلته قادمًا من قلوبنا، صوت الجحيم "الذي هو الآخرون"، شلّة كلّ واحد منها جحيم يشرب الخمر أمام مدفأة حطب، وخلفه يلعلع الرصاص. أردتُ أن أعبّر بطريقة أخرى، لكن اللغة العربية لم تعطِ جمعًا لكلمة جحيم. لا أعرف إن فعلت ذلك رأفةً بنا أم إمعانًا بالقسوة. عروة وميسم انسحبا من السهرة، كان تأثير الكحول يتضح حمرةً في جحوظ عيني عروة. بعد دقائق من ذهابهما، خرجتْ ريشة. فضولٌ ملحّ وطارئ

دفعني إلى اللحاق بها، ومراقبتها عن بُعد. رأيتها واقفةً برفقة عروة، خلف صخرة كبيرة، يتهامسان. بقي هو يدخّن هناك، بينما اتجهت هي نحو الشاليه، وأنا خلفها. ترددتُ في الدخول، لكنّ الفضول ذاته لم يدع لي مجالًا للتراجع. انتظرتُ قليلًا وأنا أفرك يديّ ببعضهما، بسبب البرد، أو ربما التوتّر، ثمّ دخلتُ. تنقّلتُ بهدوءٍ بين الصالة، المطبخ، الحمّام وغرفتي من دون أن أجد لها أثرًا. كان باب غرفة عروة وميسم مغلقًا. أقسم لستُ أنا من قام بذلك، أقسم أن أحدًا، مُخرجًا ما كان يوجّهني، كي أقوم بأمرٍ سيئ، كنتُ أتحرّك داخل عدسة كاميرا، تصوّر ببطءٍ انحنائي نحو ثقب الباب؛ في الكادر يظهر ندمي، وهو يكبر في الطريق. كان حدسي يقرع الطنابير، والقلق يحاول أن يثنيني عمّا أفعله، لكنني وصلتُ، وتفتّح في حقل رؤيتي السرّ المختبئ خلف الباب. إنّه شعر ريشة، أعرفه بقصّة البوب القصيرة واللون الأسود القاتم المكسور بخصلتين ملوّنتين بالأزرق مختفيتين عنّي بين ساقي ميسم العاريتين. جسد ميسم يرتجّ على السرير، تعضّ على يدها كاتمةً أنّاتها. تخلخل توازني، صارت الأرض تروح وتجيء من تحتي، تدفّقت داخلي مشاعر غريبة مختلطة، من غيرة وحزنٍ ورغبة وكره وحيرة وغضب وخجل. وددتُ أن أختفي إلى الأبد، بعد أن أرمي الأوراق في البحر، وأغرق هذا الوحش الّذي صنعتهُ بيدي، لكنني تسمّرتُ مكاني؛ كانت حاجتي لرؤية المشهد كاملًا أكبر من أيّ شيء، تبقيني هناك خلف ثقب صغير، أتلصّص منه على أعمق نقطة حميمية لصديقةٍ أحبّها. هل أحبّها فعلًا؟ أم أحبّ حبّها لي، ويعجبني تجاهله؟ هل أشبه صالح حين يكوّر حبّ جنى كرةً يلهو بها، ويقذفها متى شاء؟ رفعتْ ريشة رأسها، وغيّرتا الوضعية، لتحجب تتمّة المشهد عن الثقب السّحري. تذكّرتُ جملةً من فيلم "الحالمون(*****)" "صانع الأفلام كمختلس النظر، كما لو كانت الكاميرا ثقب مفتاح غرفة أبويك وأنت تتجسّس عليها" غريب أن تهجم عليّ السينما، وأنا في واحدٍ من أسوأ مواقف حياتي. ثمّ جاءتْ تتمّة الحوار، لتقدّم رؤيا

لما علي فعله "ليست لدي فرصة لأصبح صانع أفلام، أبواي دائما يتركان باب غرفة النوم مفتوحا" عوضا عن الهروب، دفعت الباب برفق، واستقمت أتفزج عبر شقه، حيث صار كل شيء أوضح: جسد ميسم الحليبي، تفاصيله المنحوتة، أصابعها المغروزة في الشرشف محاولة تمزيقه، صفعات وتأوهات خفيضة. سرب جراد أسمر يأخذ في طيرانه شكل جسد ريشة القصير الهزيل يجتاح ميسم، ويقضم مواطن لذتها اليانعة، رفعت ريشة رأسها، وصار بإمكانها رؤيتي، كان علي أن أختفي بطريقة عجائبية ما، لكنني لم أفعل، ربما رغبت بأن تراني، لا أدري، لكنني لم أبرح مكاني واقفة في مرمى نظراتها. وهذا ما حصل، لم تقل شيئا، ابتسمت بمكر شديد، تابعت ما تفعله، وكأنها تؤدي دورا على خشبة مسرح ،ولحظت بين الجمهور مخرجا مهما، صائد مواهب، عليها أن تعطي أقصى ما تستطيع، عليها أن تبهره. بعينيها الصغيرتين المشتعلتين تفرست في وجهي، كانتا تقولان لي: تألمي أكثر، أكثر. ميسم مشغولة بجسدها عن ذلك، وعن البارود، وعن كل ما يحصل في العالم، هي خارج العالم. لم يكن هذا المشهد المحبوك بمتانة لينتهي لولا سماعي حركة في الصالة، سحبتني من أرض المعركة ككل المهزومين. أسرعت إلى الصالة، خفت أن يكتشف أحد ما يحصل خلف الباب، خفت على ميسم؟ أم منها؟ أم على نفسي؟ وجدت حنان جالسة على الأريكة، انتفضت حين رأتني، وسارعت مبررة بأنهم أرسلوها، كي تطمئن علي، رافقتها إلى المطعم من دون أن أجرؤ على سؤالها كم مضى على وجودها في الشاليه. الغريب أن أنس لم يبحث علي بنفسه، ولم يسألني أين كنت حتى!

****

بقيت أتقلب في السرير، وأسقط عن طرف النوم كلما أوشكت أن أغفو، تسللت بهدوء، كي لا أوقظ أنس، ارتديت معطفي الأحمر الطويل المبطن بالفرو البيج، وضعت قبعة صوفية على رأسي، وخرجت إلى الشرفة

برفقة الأوراق البيضاء والقلم. كان مشهد السماء خلّابًا، صفحة سوداء صافية منقوشة بالنجوم، يتوسدها قمرٌ يشعّ بشكلٍ باهر، تمنيتُ لو أستطيع قطفه وتعليقه مكان ضوء الحي المطفأ دائمًا، فكّرتُ بعظَمته وهو لا يكترث لانقطاع التيار الكهربائي. صرتُ أدوّن ملاحظاتٍ، كي أعود إليها لاحقًا، لم أقدر على مجاراة فكرة واحدة مكتملة، ما حصل قبل ساعاتٍ جعلني فاقدة للتركيز. اكتفيتُ بتأمل السماء، حينها خطر لي أنّني لا أملك صورةً للّيل هنا، هاتفي بقي فيه قليلٌ من الشحن، وإن نفد، فقد يُمحى ليل حصار وادي قنديل من ذاكرتي الحقيقية والرّقمية. أخرجتُه من جيبي، واقتربتُ من درابزين الشرفة أكثر، كان القمرُ قد غادر طور البدر للتوّ، فظهر أقرب لامرأةٍ تخفي شيئًا من فتنتها، لتبدو مغريةً أكثر، جعلتُه يأخذ وضعيةً مناسبةً، مع إفساح المجال لخلفيةٍ من البحر والفضّة المنسكبة عليه، فقستُ الزرّ. لم تظهر صورة، لأنّني التقطتها من دون ضوء الفلاش. أعدتُ اللقطة ذاتها برفقة لمعة فلاش. مع تلك الومضة، تكشّف ضوءان برتقاليان داخل البحر، وصارا يقتربان بسرعةٍ هيستيريّة من الشاطئ، هرعتُ إلى الداخل، هززتُ أنس حتى يستيقظ، أخبرتُه بما حصل بنفَسٍ مُتقطّع، عروة وميسم أيقظتهما حركتي، واتّجها إلى غرفتنا. طلب أنس منّا الصمت، وإبقاء الأضواء مطفأة، اتّجه برفقة عروة إلى الشباك يراقبان الوضع، لم أتحمل البقاء مع ميسم وحدي، ولو لدقيقة، تركتُها، وانتظرتُ في الحمّام، كانت رائحةُ الديتول تعبق فيه بقوة، سعلتُ كثيرًا حتى نزلتْ دموعي، متى وجدتْ وقتًا تُعقّم به الحمّام؟! تخيلتُ أنّها دلقت الكثير من السائل الأخضر، كي تطمس به رائحة الجنس، تذكّرتُ إعلانات الديتول تلك التي تقول إنه "يقتل ٩٩.٩٪ من الجراثيم" هل يعقل أنّني مشمولةٌ بتلك الـ٠.١٪ لذلك أنجو في كلّ مرّةٍ من موتٍ وشيك؟ تذكّرتُ نسبة الـ٢٪ ومدرّب العسكرية في دورة الصاعقة، لو أنّني تسلّلتُ إلى تلك النسبة اللعينة، لما رأيتُ كلّ الّذي يجري. لو أنّهم فقط يعطونني أي رَقْم، حتى لو كان ذلك المجهول في

المجازر والتفجيرات (مات تقريبا ... شخص)، فليكن أكثر بواحد، وهذا الواحد هو أنا، لماذا لا يتحقّق ذلك إلاّ حين يكون أقلّ بواحد؟! عاد أنس وعروة بعد قليل، وأخيرانا برؤيتهما لمركبين، يعودان نحو عرض البحر. لم يستطِع أحدٌ منّا تفسير هذه الحادثة التي انضفت إلى قافلة الرّعب المحيط بنا.

سمعتُ عروة يتمتم لميسم:

- تريدُ صديقتكِ أن تصوّر القمر عند الثالثة فجرًا؟ أهبِلَت؟ نحن نعيش في سوريا، لا داخل سخافات الرّوايات والأفلام. لبسها للمعطف الأحمر لا يجعل منها ليلى، ولا يجعل من البحر غابة، الخطر هو ما بقي لها ولنا من الخرافات.

"صاحب دار نشر، الكاتب السّابق، البطل الفيسبوكي الكبير، من يفاخر بتأثيره على شريحة كبيرة من الشباب، ويعطي مريديه دروسًا من قبيل كيف تجعل حياتك ورديةً بثلاثة أيام؟ الآن يُسخّف ما يجري داخل الكُتب. هل هنالك نفاقٌ أكبر من هذا؟" قلتُ ذلك لأنس، بينما أعود إلى النوم، من دون أن أطلب منه بوسة.

****) The Dreamers (٢٠٠٣) إخراج بيرناردو برتولوتشي.

كنتُ أخبركم عن صورة أبي وليم على شرفته المهدمة القريبة من كنيسة سيدة السلام (رنما)، حيث ينتهي مشوار الحارة الذي يبدأ تقريبًا الساعة السابعة أو الثامنة مساءً، ويبلغ ذروة ازدحامه في ليالي الأعياد، وبعد انتهاء امتحانات الشهادتين الإعدادية والثانوية، وعمومًا يوم الخميس. إلى اليوم بقيتْ محتفظةً بذلك الشوق الغريب لقدوم يوم الخميس، قد تكون المدينة من أورثتني التغني بهذا اليوم، في السنة الحمصية، سبعة خميسات، يحتفل فيها (الضايع، الشعنونة، المجنونة، القطط، النبات، الأموات، المشايخ)، الأشهر بينها: خميس الأموات (يسقى الحلاوات أيضًا)، حيث تجدُ المدينةُ مزينةً بقواميع وقِبب من الحلاوة الخبزية، بلونيها الأحمر والأبيض، تنتشر على واجهات محالّ الحلويات، وعلى بسطات، مُذ في الشوارع، تسمع من بائعيها "الله يرحم الأموات، كانوا يحبوا الحلاوات"، ترى النسوةَ يحضنَ أعواد الآس (تُباع على رصيف مقابل للساعة القديمة)، وبهيئة من تذهب إلى موعدٍ عاطفي، يخرجن إلى المقابر لزيارة أمواتهن، ويوزّعن أنواعًا مشكّلة من الحلاوة (خبزية، شوشية، سمسمية، راحة، بشمينة، غزيبة) على الأقارب والفقراء. كان ينافسه في الشهرة "خميس المشايخ" الذي يصادف يوم خميس الآلام لدى الطوائف المسيحية الشرقية، حدثني فارس عن احتفالات سكّان المدينة قديمًا في هذا العيد بالذق على الدفوف، وتزيين الشوارع، الغريب أنه في تلك الفترة التي كانت تكثر فيها الاحتفالات الدينية، كانت تنتشر الخمّارات في المدينة، توجد إلى اليوم شوارع بحالها، اسمها "شارع الخمّارة"، أو "زقاق الخمّارة"، أو أنا تخيلتُ أنها في الفترة نفسها، لأن فارس أخبرني أيضًا أنه في شبابه كان يقصد وأصحابه إحدى الخمّارات التي تفتح أبوابها ليلًا، ويشربون حتى الصباح. لم تعد تلك الخمّارات موجودة، ولا أعرف متى اختفتْ، وإن كانت لحوادث الثمانينيات علاقةٌ باندثارها. مدينةٌ صارت بلا خمّارات، مدينةٌ تحتفل بالأموات وبالآلام، كان لا بدّ أن يأتي يومٌ تشيّع فيه أولادها إلى مقابر جماعية. خميس الآلام يقع بين أحدي الشعنينة والفصح، في حمص يحتفل الناس بيوم الشعنينة أكثر من يوم الفصح ذاته، تمتلئ شوارع الحي وباحات الكنائس بأبهى الملابس، الأطفال

يحملون شموعًا ضخمة مزينة بأغصان الزيتون والشرائط الملونة، قد تكون الشمعة أطول من الطفل الذي يحملها، بينما يحمله والده على كتفه، ويدور به في الكنيسة، كأن الأطفال شموع آبائهم المزينة بثياب العيد. حين أستعيد تلك الأيام، أشم رائحة نسيس شعور النساء، أسمع الموسيقى الصاخبة التي تُصدرها فرقة كشاف الكنيسة (طنابير وصنوج وترومبيتات)، تُعلّق أمام عيني كلّ الفساتين القصيرة التي كنتُ أخرج بها من الصباح وحتى الظهيرة، لأعود بعد انتهاء المراسم إلى بيت جدّتي (والدة جورجيت)، يكون بانتظاري صحن "حريرة لعازر"، وعلى وجهه زشّ اليانسون المطحون والشمرة المحمصة، كنتُ آكل وجه الصحن فقط. في كلّ عام تخبرني جدّتي القصة ذاتها: "حضرتْ الحريرة البارحة في سبت لعازر، ذكرى قيامة لعازر من القبر بعد أربعة أيام من موته"، تُخرج الإنجيل، وتقرأ لي من إنجيل يوحنا - الإصحاح ١١. يرتعش صوتها حين تصل إلى "بكى يسوع"، يرتفع بشكلٍ مسرحي حين تقول "لِعازر، هلُمَّ خارِجاً"، تُغلقه، وتكمل القصة (التي أظنها مُختزعة): "بيت لعازر امتلأ بالمهنئين، مرتا لم تجد في بيت المونة غير الزز والنشاء واليانسون والسكّر، فاخترعت هذا الصنف من الحلويات، وضيفت الجميع". لقد تركتْ طفولتي تلعب هناك في بيت جدّتي، حيث سقف التوتياء في المطبخ، والمطر ينقره، كما لو أنه يهطل من أجله فقط، حيث يوجد هدهد محنّط في غرفة الضيوف، وعصافير حية جدًا خارجها، في حوش الدار، كنتُ أقفز على سرير قديم بنوابض، ونجلس عند الظهيرة على الحصيرة تحت فيء شجرة النارنج، في الليل، أفترش أرض غرفة أخوالي محاطةً ببسط الصوف الملونة المشغولة بسنارة "جورجيت الكبيرة" جدة أمي، سيجارة حمرا طويلة موجودة أبدًا في زاوية فمها، ربما ماتتْ والدخان لمّا يزل يتصاعد من سيجارتها. كنتُ أكشط الصمغ عن جذع شجرة الجانرك، وأقطف الياسمين، جدّتي علّمتني كيف بإبرة وخيط أصنع عقودًا منه، وكيف أستطيع كنحلةٍ أن أشرب رحيقه بشفطه من طرف عود الزهرة الدقيق، كانت تظلّل مدخل الدار عريشة عنب، وفي الحوش تنكات سمنة فارغة، حوّلتها جدّتي إلى أصص نباتات، مع الزمن، مُحيَت كتاباتها، فأصبحت متماثلة، يكسوها الصدأ، صارت ملائمةً لبيوت الجذات، تضاريس الدار مثالية للعبة "عالي واطي". كلّ يوم تقوم جدّتي بيديها القاسيتين بكنس الورق المتساقط، بديها اللّتين رأيتُ كيف تفركان جسد ابن خالي بالملح الجبولي الخشن، كما لو كان دجاجة تُعدّ للطهو، فزعتُ، وكدتُ أبكي حزنًا لما يحلّ بالجلد الرقيق للرضيع قبل حفامه الأول، جورجيت تضحك، وتخبرني بأن جدّتي ملّحتني

أيضًا، لذلك جلدي مشدود، مناعته قوية، ولا أتعرق كثيرًا. شفقتني وهي تقول "في أحلى من هالريحة؟!" "لو ما ستك قلبها قوي، كنتِ ضلّيتي بلا حلق مدندل من هالأدنين الزغار، هي اشترتلك حلق الذهب أبو حجرة خضرا، وكبسته بأدنيكي وبخشتن، أنا برمث وجهي، وصرت إبكي". جورجيت ورثت شيئًا من صرامة أمها، كانت تمنعني من اللعب في الشارع "بيقولوا عليكي بنت شوارع"، لم أدرك بعد ما العيب في ذلك. كنتُ من شباك البيت أرى الأولاد يدحرجون الكُلّل (الكرات الزجاجية) باتجاه حفره الكثيرة (أخبرتُكم سابقًا أنها كانت تتحوّل إلى برك وحل؟ وكم كنتُ أكره الشتاء بسبب ذلك؟ والصيف أيضًا بسبب الكُلّل، أقصد حرماني من اللعب بها)، يلعبون بالطابة أو بالبيور (مضارب خشبية مسطحة الشكل يتقاذف اللاعبون بها، بدلًا من الريشة، قطعةً خشبيةً صغيرة، تسمى بيور، مغزلية الشكل بطرفين مسننين.) كثيرٌ منهم يملكون ندوبًا، غرزتُها على وجوههم، لطالما حلمتُ بواحدةٍ مثلها، جورجيت تقول لديكِ غمازة، ألا تكفيكِ؟ عند ناصية شارعنا، كان يجلس بائع متجوّل أمامه صينية من الألمنيوم مصفوفةٌ عليها حبات التفاح المعلّل، مناديًا عليه بصوتٍ ممطوط "معلّل، يا مدلّل" جورجيت تمنعني من أكله "كلّو صبغة، وبيغط عليه حشرات". صرتُ أتخيل تفاحة الخطيئة الأولى مغمسة بالدبس الملون بالأحمر، وفي طرفها شُكَّ عود خشبي. جدي (والد جورجيت) توفي وأنا طفلة، لذا لا ذكريات تجمعني به، عدا صورته المعلّقة في صدر غرفة الجلوس (غرفة أخوالي ذاتها)، كنتُ أجده شديد الشبه بالمطرب زكي ناصيف، وأحيانًا أفكر بأن زكي ناصيف هو جدي، بكيتُ حين مات، بكيتُ كثيرًا، لم يفهم أحدٌ بأنني لم أفقد مجرد فنان أحبه، بل لأول مرّة أودّع أحد أفراد عائلتي. مقابل بيت جدتي توجد مقبرة، كنتُ أنسى أنها مقبرة، وأقطف ورد الساعة من على جدارها، لم أكن حينها أعلم أن للوردة اسمًا آخر "زهرة الآلام"، لذا توقّف الزمن لديّ هناك في أقاصي الألم. منطقة بيت جدتي تعرّضتْ لدمارٍ كبير، لذا لا أعتقد أن الدار قد نجت. كبرتُ بسرعةٍ قبل أن أنتشل ماضيّ من تحت حجارة بيت جدتي المهدم، ياليتني تركته يحترق في راموشة عيد الصليب التي كنا نشعلها وسط الدار كلّ عام.

كنتُ أحدثكم عن صورة أبي وليم على شرفته المهدّمة قرب كنيسة سيدة السلام (أعتقد)، إذا هي في الطريق التي يفصل بين مدرستي الإعدادية والثانوية، مدرسة القدس الإعدادية الرّسمية للبنات التي جمعتني بـ "منار" (تذكرونها؟ صديقتي التي خنتها)، وفرّقتني عنها، هناك حيث كنتُ أذهب بأظافر مفرومة وشعرٍ مكشوط وحاجبين كثين، ألبس بدلة الفتوّة كاكية اللون، على رأسي أضع "السيدارة"، على خصري أشدّ الحزام، قدماي داخل بوط الفتوّة الأسود. أذكر أنني كنتُ أفصل البدلة عند الخياط طنّوس، آخذ له بنطالي الجينز، كي يقصّ البنطال الكاكي عليه، أرخي الحزام وشعري في طريق العودة، محاولةً تحرير ما استطعتُ من مفاتني، محاولةً الهرب من هذا الشكل الذي يليق بهزائم اليوم. كنتُ محظوظةً بأنني عاصرتُ قانون إلغاء مادة التربية العسكرية، واستبدال بدلات الفتوّة بدلاتٍ رمادية، تحتها قمصان زهرية للمرحلة الثانوية، كنتُ أجد هذا الزيّ الجديد بشعًا أيضًا، إلّا أنه أفضل من لون الحروب ذاك. بدلة الفتوّة لم تتركني بسلام، عدتُ والتقيتُها بعد البكالوريا في دورة الصاعقة، لا يمكنني نسيان أوّل يوم في تلك الدورة، جعلونا ننتظر تحت أشعة الشمس تقريبًا ستّ ساعات، ثم سلّمونا البدلات المموهة، غير المكويّة، والتي لا تناسب مقاساتنا، كان من الممكن أن يضيع شخصان داخل بنطالي، سلّمونا أيضًا بطانيات من الخيش، كي ننام عليها، توزّعنا في الخيم، لا أعلم كيف حصل ذلك، لكنني وجدتُ نفسي أتشارك مع فتياتٍ مسيحيات خيمةً ضيقة، الفرز كان طائفيًا، بشكلٍ فاقع، مع أنّه كان في ظاهره اختياريًا، إلّا أنني وجدتُ نفسي كنعجة، أدخل ضمن قطيعي، من دون أن أفكّر في الأمر، بل واستغربته أيضًا. افترشنا أرض الخيمة بشكلٍ متشابك، كي تسعنا، صرنا ننام مرصوصات كورق العنب في البريستو (طنجرة الضغط). الحشرات تملأ المكان، كنّا نستحمّ في المراحيض الوسخة التي ليس لها أقفال، تدخل فتاة، بينما تمسك صديقتها لها الباب من الخارج، تسعةُ مراحيض لمئةٍ وخمسين بنتًا تقريبًا، تُنظّف مرّةً واحدة فجر كلّ يوم (يمرّ دور التنظيف على كلّ مجموعات الفتيات)، كنّا نستيقظ باكرًا قبل الوقت المفترض، كي نلحق المراحيض بعد تنظيفها مباشرةً، وقبل أن

يفيض على أرضياتها الماء والمحارم الوسخة والفوط الضخية، كنت أشعر بأنني داخل لعبة أتاري، وعلي كي أصل المرحلة الثانية أن أهرب من الفوط وتلال المحارم، من دون أن تزلّ قدمي، وأقع في المياه المقرفة. كانت المسؤولة عن مهجعنا توقظ الفتيات فجرًا بالدق على الطنجرة، والرش بالماء، كانت تبدو لي أقرب إلى سجانة، وأتخيلها داخلةً علينا والهراوة بيد، بينما حلقة مفاتيح الزنزانة تخشخش في اليد الثانية. الفتيات اللواتي لديهن واسطات قوية، كنّ يفرزن إلى البوفيه، ليقمن بتقشير البطاطا وتحضير السلطة، أما باقي الفتيات (أنا منهن)، فكنا نبدأ منذ الخامسة فجرًا بالزكض والزكض، كما لو أننا لن نصل أبدًا، مدرب الرياضة تشعر أن لديه ثأرًا قديمًا معنا، وعليه تحصيله بسرعة، مدرب العسكرية يتركنا واقفات لفترات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة، وكأننا عساكر، ولسنا مجرد طلّاب جاؤوا لأجل علامتين، قد تضافان إلى مجموع البكالوريا، يُخرج قنينة ماء بارد، يشرب منها، ثم يدلق الباقي على الأرض. كان يخبرنا كلّ يوم بأنه لا يُحاسب إن مات ٢٪ من الطلاب في أثناء الدورة. حاولتُ كثيرًا تخيّلَ شكلِ لعائلة هذا الرجل، وبشكلٍ خاص لبناته، دومًا كنّ يفزعن ويهرعن قبل أن أنتهي. كانت للخبز رائحة سيئة والطعام يقدم في الدست (طنجرة من الألمنيوم كبيرة ومحروقة من الخارج). لم يكن مسموحًا لنا أن نكلّم الضباط أبدًا، وإن كُشِف أمرُ مثل هذا تنزل بمرتكبيه عقوبة شديدة، قد تصل إلى الفصل، كنا نراهم في أثناء التدريب يقفون في الصفوف الأولى، التدريب كان على الزحف تحت الحواجز، أو القفز فوقها، نشاهد بعضهم يعبرون حلقات النار، دائمًا كنتُ أتخيل هذا المشهد بروفة للمشي في طرقات جهنم، كما صوّرتها لي جورجيت. سمعتُ البنات يقلن إنّ المشرفين قد دسّوا مادة الكافور في الطعام والمياه لقطع الرغبة الجنسية، إلاّ أنّ أحاديثهن التي تلتصق كالبزاق بالضباط لم تتوقف أبدًا، وكذلك رغبة الفتيات السحاقيات بقيتْ متقدة، أو ربما وجدن في المكان بيئةً مناسبةً لتنفيسها، هناك تعرفتُ لأول مرة بالميول المثلية عن قُرب، قبلها كانت معلوماتي حول الموضوع سطحية ومغلوطة (كنتُ أعتقد أن للفتاة السحاقية عضوًا ذكريًا صغيرًا)، في الضاعقة تشوهتْ نظرتي للأمر أكثر، فبتُّ أرى أكبر الأخطار التي تتربص بي هناك هي الفتاة (التي أخبروني بأنها مثلية)، صرتُ أخشاها أكثر من المحارم وأشعة الشمس ونسبة الـ٢٪ التي قد أنتمي إليها، كانت الفتاة تتبعني من مكانٍ إلى آخر، وحاولتْ مرّاتٍ عدة أن تحدثني، وأنا أتهرب منها، كنتُ أستيقظ في الليل خوفًا من دخولها إلى خيمتي، ومحاولة لمسي. لا أعلم متى تصالحتُ مع

هذا الموضوع، أدين للقراءة بذلك، ولرجالٍ كزروا أمامي العبارة ذاتها "أنت كتير بيلاقوكي البنات الليزبيان سكسي"، لا أعرف إن كان ذلك صحيحًا، أو إن كانوا يكزرونها لكلّ عشيقاتهم، لكن الأمر دغدغ نقطة رضى قابعة في منطقةٍ عميقةٍ داخلي، وأحببته في سرّي، لاحقًا صار يرن داخل رأسي في كلّ مرةٍ تقع عليّ تلك النظرات الغريبة والحميمة من"ميسم" (هل أخبرتكم عنها؟)، في أوّل زيارةٍ إلى البيت (حين أتت والدة إحدى الظالبات لزيارتها، هربنا في سيارتها، لم أكن أملك موبايلًا بعد، لذا حصل الأمر فجأة، لم أقدر أن أفوّت فرصة الحصول على حمامٍ نظيف ووجبةٍ دافئة)، فتح فارس الباب، ليجدني بالبدلة المموّهة، وبشرتي قد اسودّت كثيرًا، للوهلة الأولى لم يعرفني، وظنّني عسكريًا. كانت الزيارة الأولى والأخيرة، لم يسمحوا لي بالعودة إلى ذلك المكان ثانيةً.

أيام وادي قنديل - اليوم السادس

وادي قنديل/سوريا/ شباط ٢٠١٤

تواري صالح لفترة مهما بلغ طولها لن يبدو غريبًا بأي شكلٍ من الأشكال، بضعة أيام غياب تبدو خزعةً مأخوذة من جسد عزلته المترهل. استقلالية عروة وأنس عن محيطهما، تضعهما في ما يشبه محميةً طبيعيةً، تؤمن لهما حياةً بعيدةً عن تعديات قلق الأقارب. بالكاد سينتبه رواد مكتبة عروة القلائل إلى بابها المقفل، ستكون هذه الأيام بمثابة مجزرة قراءة، لن يراها أحد، كأغلب المجازر. ربما يجد بريد الفيسبوك مزدحمًا برسائل من معجبيه الكثر، الذين سينسونه حالما تتوقف صورته عن زيارة شاشاتهم، ويجدون لهم بطلاً آخر، هم هكذا يحتاجون إلى شخصٍ يلتفون حوله، معادلٍ مدنيٍ لرجل الدين أو القائد الحزبي. بالتأكيد أنس أخذ احتياطاته، وأرسل إلى الجريدة مقالاتٍ، تغطي غيابه لـ ... لا أعرف كم يوم! سيتدارك زملاء جنى أمر تغيبها عن الدوام. مذ بدأت علاقتها بـ صالح اعتادت أمها اختفاءاتها المطوّلة في اللاذقية. الخالة صفية تعتقد أن ابنتها تأتي لزيارتي، كي ترتاح من أصوات القذائف والراجمات، وتقفل هاتفها ناشدةً السكينة. لن يُترك أطفالُ ميسم من دون عنايةٍ، طبيبٌ آخر سيخفّف من أوجاع تلك الكائنات الصغيرة. أروقة المستشفى الباردة ستفتقد الدفء الّذي يبعثه تجوّلها بينها بالمريول الأبيض والسماعة المعلّقة حول رقبتها الطويلة. ريشة تبدو غير مباليةٍ بالبقاء، وغير مستعجلةٍ على الخروج أيضًا، هي متمردةٌ على أهلها وعملها وأصدقائها، وعلى الجميع، من الطبيعي جدًا أن تتلاشى، ثم تظهر من جديد راميةً قانون حفظ الطاقة في سلّة الزبالة. أما أنا، فلا مخططات ورقية، أحيلها حدائق منسقة بصورة شعرية: نباتات عصفور الجنة تجاور شتلات قرن الغزال القصيرة في الحوض، سلال معلّقة كبيوتٍ صغيرة لنبات "حلق الشت"، سياج تتسلّقه بجنونٍ ألوان نبات الجهنمية القادمة من الجنة. لا أشجار تنتظر أن أقلّمها، لا حشائش ضارة تجد في غيابي تربةً مناسبة لتنمو بكثافة، لا بذور تنثرها يدي، لا أرض أسرّخ شعرها بالجزازة، لا أزهار تميلُ عطشًا، لا خضرة تترقّب وصولي. لا معنى لحياتي. أخبرتُ والدي بأنني سأغيبُ لفترةٍ طويلةٍ، ولم أبلغهما الوجهة. لقد تغيرا كثيرًا في السنوات الأخيرة، خاصةً أمي، لم تعد تعمل كمخبرٍ يقتفي آثاري، غبطتُها بخروجي من خلف قضبان الكآبة طغت على كلّ شيء، صارتْ تهلّل لأي

خطوة أقوم بها، لأيّ خطوة نحو السّير في طرقات المرح والحياة. بما في ذلك علاقتي بأنس، التي كانت ستفجّر مشاكل جسيمة بيننا، لو أنّها حصلت قبل أعوام. لم أفكّر سابقًا بأن للحرب إيجابيات، لا ندركها، كتقبّل الآخر. الحرب ذاتها التي تستمدّ وقودها من إلغاء الآخر وسحله، قد تقوم أحيانًا بفعلٍ مناقضٍ تمامًا، وتمحو الحواجز الوهمية التي كنّا نراها بوضوح شديد، أو تُعيد رسمها بالأحمر الصّارخ، ليراها العالم بأسره.

كلّ هذه الظّروف درسناها جيّدًا - أنا وأنس- قبل قدومنا.

****

ما حصل ليلة البارحة ظلّ محتجبًا، مُرتاعًا من الكشف عن نفسه، مثل خُلدٍ يحفر بمخالبه أنفاقًا في أعماقنا. تجنّبتُ أن تقع عيني في عين ميسم، خشية أن تشفّ منها صورتها على سرير البارحة، أو أن تنفلت منّي نظرة لوم تشي بما أحسستُه. هي لازمتْ غرفتها معظم الوقت، في الأوقات القليلة التي خرجتْ فيها، بالكاد، تكلّفتْ، وبانت حركتها مشوّشة مثل بثٍّ مباشر داهمته عاصفة. بدأ الجفاف يشقّق هالة السّكينة المرسومة حول عروة. ريشة مرحة أكثر من العادة، توقّعتُ أن تُخزني بتعليق ما، لكنّها لم تفعل، وهذا غريب. أنس أشدّنا خيفًا، كظمتُ غيظي من قدرته على تجاهل التّغيّر الّذي اعتراني.

اقترح صالح أن نحاول الهرب بحرًا على متن المركب المطلي بالأزرق والأبيض، المركون على الشّاطئ. ما أثار سخرية عروة، هزق في الضّحك، مصدرًا أصواتًا تشبه النّهيق، فتحتا أنفه الكبيرتان تتمدّدان وتتقلّصان، شفتاه ترجرجان، بدا لي فعلًا يُشبه الحمار في الرّسوم المتحرّكة، إلّا أنّه أقلّ ظرافةً. شاركته ريشة حفلة التّهكّم، صارا يمرّران لبعضهما العبارات الهازئة ككرات بينغ بونغ، والطّاولة رأس صالح. كاد الدّخان يخرج من أذني صالح المحمرّتين بفعل عقصات الغضب، بدا كالثّور المنحور، بقرنين سينغرزان عمّا قليل في فخذ المصارعة السّمراء، أو مؤخّرة الحمار الّذي ينهق. تحوّلت الصّالة إلى حلبة مصارعة، تُحيلك فورًا إلى الجنس، أو إلى الموت/ النّتيجة الحتمية لهذه الرّياضة، بالأحرى النّتيجة الحتمية الموثوقة لكلّ شيء. فضّ أنس المعركة حين جرّ الحديث بصوته الرّخيم إلى حيز المنطق، وذكّرنا بالمراكب مجهولة الهويّة الّتي باغتت الشّاطئ البارحة، بالتّالي هنالك خطرٌ آخر يترصّدنا في عرض البحر، ربّما كان الخطر ذاته الّذي يلفّ حباله حولنا، من يدري؟

****

سرنا بخطى ثابتة ومسرعة بقدر ما تسمح الزمال للثقة بأن تشق طريقها فيها، دعساتٌ بمقاس ٤٣ تتعقّب أخرى، تصغرها بـ ٧ نُمر. ربما ظلّني متجهةً نحو دائرة الماء الهجينة التي تشبه ابنتنا سعيًا وراء قُبَلٍ محمومة، أدلق من خلالها غضبي في فمه، مع أن ملامحي لا تلائم امرأةً تردّ الحب، لتملأ جرارها. لم أكلّمه طيلة الطريق، لم ألتفتْ إليه حتى، وحين تنحنح ليقول شيئًا، أومأتُ له بيدي مثل مايسترو، يوقف العزف بحركةٍ واحدة. تجاوزنا دائرة الماء الهجينة، وأنا ما أزال أسير على الإيقاع ذاته، والذي يبدو لمارشٍ عسكريّ. بعد ثلث ساعة تقريبًا، توقّفتُ، أخرجتُ قلم فلوماستر أسود من جيبي، وكتبتُ على حجرةٍ كبيرةٍ "حجرة الـ١٠٠٠ خطوة/ ٢٠- شباط – ٢٠١٤ /ظهيرة اليوم السادس".

- أنس؛ أريد أن ينتهي الأمر في الحال، أرجوك. اللاجدوى تطنّ داخل أذني. اسمع؛ أنا كاتبة فاشلة، الآن أنا متأكّدةٌ من ذلك أكثر من أيّ وقتٍ مضى، كلّ ما أفعله تدوينٌ لمذكّراتي لا أكثر. انظر كيف أتعامل مع الشخصيات. قرّبتُها إليّ من دون أن أبذل جهدًا بالغوص عميقًا داخل مشاعرها، استكنتُ لدور النبيّة، واكتفيتُ بالمشي على السطح. لم أبنِ شخصيةً متخيّلة حتى، كلّها وصلتني على هيئة أبنيةٍ مسبقة الصنع، تسير على أقدام، لم أذق من آجرّها إلاّ رائحة الشواء العالقة. إنّنا ننام ونأكل ونرقص ونبكي ونخاف معًا، رغم هذا، فكلّ ما كتبته هو فكرتي عنهم، لم أكلّف نفسي عناء التنقيب عن حقيقتهم المطمورة. ريشة مثلًا، تقريبًا أجهل ماضيها في شهبا، حتى صور حياتها في جرمانا تبدو بعيدةً ومغبّشة، كأنها مُلتقطة من طائرة. أنانيتي تتجلّى في أقبح أشكالها حين أكنس سيئات هذه الفتاة بحرص صائغٍ على نثار الذهب، ثمّ أجمعها، لأحشو بها زاوية رؤيتي، أظنّ أنني سأصاب بالخيبة، لو تلألأ في سمائها شيءٌ جيّد، قد يصيبني العمى فجأةً، أو ألوي

عنقي، فلا أراه. محتارة لمن أنحاز أكثر: للواقع؟ أم للخيال؟ عليّ أن أكون وفيّة لأمرٍ ما، لا أعرف ماهيّته. حتى ميسم أعزّ صديقاتي، أضيئها لمبةً، لتلتصق على زجاجها الأعين كالحشرات. أوه، شخصية مِثليّة! يا للسعادة! هل رأيت كم أناقض كلّ ما أنظّر به عن الخزيات واحترامها؟ أحيانًا أظنّ أن مشاعري تجاه ميسم تخرج من الورق، لا العكس. أيضًا، انتبه، ماذا أفعل بالشخصية التي هي أنا - غيم -: أمسك خرقةً، وألفعها، أبقيها طوال الوقت في مركز دائرة الضوء. من أعطاني الحقّ بأن أكون بطلة الرواية؟ هل هنالك قانونٌ يحكم هذه الأمور؟ حتى أنتَ لم تنحَ منّي، أتهيّب صدوز سلوكِ عنك، لا يلائم معايير دقيقة، وضعتها لحبيب البطلة. تخيّل! أكتب بمنطقٍ، أمنعك فيه من التخلي عنّي، وأشغلك بي فقط، تأتي أهفيتك من كونك حبيبي، كلّ الأمور الأخرى المتعلّقة بشخصك أركنها في أعلى الرفوف مثل طقم أوانٍ ثمينة، لن أستعملها يومًا! هذا لئيم، ولا يشبهني، أصلًا لم أعد أعرفني، المشكلة أنني فاقدة القدرة على التوقف.

قلتُ ذلك لأنس، وأنا أتداعى، صوتي يرتجّ والقشعريرة تغزو جلدي. لم يقاطعني، لم يوقفني كي يسأل عن ميسم، لم يعقّف أيّ علامة استفهام، أصاخ إليّ حتى انتهيتُ من دون وضع نقطة، كنتُ لأتكلّم لساعاتٍ وأيام، لكنّ أنفاسي تقطّعت من مجاهدة البكاء، وتهدّج صوتي ليتفرط على الزمل. أجابني بثؤدة مختضي الدعم النفسي الّذين تكاثروا في الحرب كمرضٍ غامضٍ سريع الانتشار:

- حسنًا. لكنّك تدركين أنّني لن أتخلّى عنكِ، هذا وفاءٌ للواقع، وهذا سيئ. اسمعي، ما يحصل الآن لا يمكن أن يكون حقيقيًا، كلّ الشخصيات قد تختفي غدًا. كم

شخصًا مرّ في حياتنا سابقًا، ولم يعد له أثر اليوم؟ حتى لو مرّ في بالنا في أثناء استعادتنا حادثةً ما، فإنّه يظهر على هيئة كومبارس، أو قطعة ديكور مهملة، لكنّها كانت موجودة وضروريّة في حينها، مع أنّه ربّما كان البطل المطلق في زمن الحادثة. الحياة ليست حقيقية، هي مجموعة تدوينات تنغلق عليها دفّات كُتب، قد تتحرّك شخصيّاتها من كتابٍ إلى آخر، وتتبادل المواقع، وقد تختفي نهائيًا. الأدب في نهاية الأمر هو عمليّة محاكاة لهذه التدوينات، لكن، على هذه المحاكاة أن تقدّم لنا - نحن القرّاء - شيئًا، بفن فينا الشّخصيات التي تعيش بين الدّفتين، تلك التي عليها أن تشكّ في وجودها هناك حتى لو رأت بطاقاتها الشّخصية مرميّةً على رصيف إحدى الصفحات. أكثر من ذلك، عليها أن تحلم بالدّخول إلى هناك، لاستعارة كنزةٍ صوفيةٍ مطرّزة بغزلانٍ لطيفةٍ، كهذه التي ترعى من خصركِ الآن.

- هنالك أمرٌ آخر: هذه الشّخصيات لفرط ما هي عاديّة تنساب من بين أصابعي، لا أملك أيّة شخصيّة ملتصقة بالقاع بشكلٍ متين، شخصيّة تدخل بيوميّاتها القاتمة، لتدعس في بطن الرواية مخلّفةً ذلك الأثر الّذي لا يُمحى. تقريبًا كلّ الموجودين هنا ترتجّ خلفياتهم داخل طبقة واحدة، لا أعرف هل تصحّ تسميتها بالـ"وسطى". تشتّت قليلًا، أودّ أن تفهمني، ما قصدتُه أنه ما من ثريّ هنا يأخذني جولةً في سيّارته الفارهة، أو طائرته الخاصّة، كي نحظى بصباحاتٍ ربيعيّة كلّ أيّام السنة، ما من مُعْدَمٍ أقتسمُ معه كسرات الخبز اليابسة، نبلّلها بالماء، ونبتسم للجوع بأسنانٍ مُكسّرة، ما من فنّانٍ يصيبني همّه بصداعٍ مزمن، أنتظره على جسرٍ، كي أخبره شيئًا، وأقبّله قبل أن يقفز، وأيضًا ما من أزعرٍ يزعجني

صفيره، ويطلّ وجهه من غبش طاقة الحمام، ليرعب غربي. لا يوجد ضابط أرتعذ كلّما سطعت النجوم على كتفه، ولا أسيرٌ أرقم آثار التعذيب على جسده وروحه. ما أفتقده حقًا هو التطرّف، الذهاب بالحياة إلى أقصاها. لذا أشعر بالفقر.

- وصفكِ ليس دقيقًا، لكن، لو افترضنا أن ما تقولينه صحيح، لماذا تبخسين الناس العاديين - على حدّ تعبيرك - حقّهم في أن يُخبرنا أحدٌ عنهم؟ هؤلاء تحديدًا من يسقطون من نشرات الأخبار، ومن الميديا والسينما والكُتب. تلقّفيهم، ودعي صرخاتهم تدوّي على الأقلّ في هذه الرّواية.

- لا أعرف، ربّما معك حقّ. ربّما الحلّ أن أنفرد بهم، كي أعطيهم فرصة قَلْش أنفسهم كما يحبّون، بصدق أو بكذب، لا فرق، ما يهمّني هو أن يأخذوا حقوقهم كاملةً داخل محاولاتي لفهمهم، كي أنفض شعور الذنب عنّي.

- لا بأس بذلك، بإمكانك البدء بنفسك. دعي غيم تتكلّم بلا انقطاع، دعيها تشتم أيضًا، لا تقمعيها. لا شيء في العالم يستحقّ كلّ هذا التهذيب، أصلًا نحن نسبح في مشبَّة عميقة، أطلقوا عليها زورًا اسم الحياة. كس أختن. ما في بوسة؟

كنتُ واثقةً من أن كلمات أنس تملك تلك العصا السّحرية التي تحيلني بحيرةً رائقةً، لم تُعكّر يومًا، بهذا الشكل يُنهي كلامه كلّ مرة، ويجلس على ضفّتي، لتترك قبلاته على ذلك الأثر الدائري الّذي يكبر ويكبر، وأنا أوسّع له ابتسامتي، أقف على رؤوس أصابعي مثل راقصة باليه مبتدئة ماطّةً رقبتي، كي أصل ذقنه، تحديدًا طابع الحسن الّذي عرف ببراعةٍ أن يوصله إلى عنواني. أحكّ أرنبة أنفي بشعيرات لحيته الخفيفة عادةً، أعبّ من رائحة وجهه/البيت الوحيد الّذي أعرف، بعد أن هجّت

الروائح القديمة من ذاكرتي. همست له ووجهي مختف داخل خذه:

- آخ، شوكتني، أشعر بأنني أمزغ رأسي في جسد قنفذ. أول مرة تترك لحيتك تطول هكذا، للأمانة تروقني كثيرًا، أفسحت المجال لظهور هذه الشعيرات الشائبة الظريفة، أخاف أن أعدها، أمي جورجيت كانت تقول لي إن عدّ النجوم حرام، وأنا من يومها أبوس النجوم بالحلال، وأعدّ البوسات.

- نسيت أن أجلب معي شفرة حلاقة. أنتِ مجنونة، سأعجبك على كلّ الأحوال، مشان الله، تعي عذي بوسات.

من يتجوّل في منفردة أحاديثنا أنا وأنس سيريبهُ حتمًا تلاشي العلامات التي حفرها الحصار بالسكّين على جدرانها، لا يُدوّي رصاص تحت سقفها الواطئ، لا يصفر جوعٌ في الهواء المخلخل بين قضبانها، لايُسمع اصطكاك مفاصل، لا شيء من مفردات يبصقها الحصار عادةً، وكأن هذه المنفردة كبسولة فضائية، تنطلق بنا خارج الكوكب. هذا يجعلنا نشبه بشكلٍ ما أمراء الحرب، أولئك الّذين يعيشون في عالمٍ كامل قائم على أنقاض الحرب وضحاياها، عالمٍ يزدهر أكثر، كلّما كشرت الحرب عن نابٍ جديدٍ مسنونٍ أكثر من الّذي قبله. لا .. أريد أن أهرب من هذه الفكرة المدفرة قبل أن تطيح بي، علي الفرار بذاكرتي إلى شيءٍ ما، الحلّ الأنجع هو الزكض مجدّدًا نحو الحب، لكن هذه الذاكرة اللعينة دومًا ينفد وقودها، لتصطدم بحصار حمص، علي التدرّب أكثر على تجاوزه حتى لو تبقّعتْ بالكدمات، وأنا أحاول.

****

"السلام عليكم ورحمة الله" قالها وهو يميل برأسه نحونا، لم يشعر بوصولنا، كان في حالةٍ صوفيةٍ عالية، كأنه يصلّي على قمّة جبلٍ بعيدة، لا يصلها أحد، مأخوذًا

بالزكوع والسجود وترديد الآيات، يكاد يرتفع عن الأرض محاولًا التقاط السماء، عيناه مغمضتان، مع أننا قدمنا من خلفه، لكنني متأكدة من إطباق عينيه، لا يكتمل المشهد من دون ذلك. المشهد الذي وصفته يبدو مناسبًا لمناجاة شيخ جليلٍ، وليس لمجرد منافقٍ فذٍ. جفل حين رآنا، وسقطت روحه من أعلى الجبل، كأنما ظهر له الشيطان شخصيًا. أليس من المفروض أن تطرد الضلالة الشياطين؟ ما فائدة التعويذات إذًا؟. تمنيت أن أمسك بالمشهد، مشهد عروة صديقنا اليساري، جالسًا على الرمل بين ركعتين، تمنيت أن أهزّ المشهد لميسم، وأقول لها انظري حبيبك يصلّي على طريقة أهل السُنة والجماعة، أن أعمل "سكرين شت" لجمهوره العريض الذي ينتظره خلف الشاشات، مرفقًا بتعاليمه حول "الله محبة، نراه بقلوبنا، ويتجلّى بمعاملتنا الطيبة للآخر، لا بترديد الصلوات المكرورة وتقديم الذبائح، الله كبير، لا نستطيع حبسه في كنيسة أو كنيس أو جامع. لا تسعه إلا الفكرة". لكن، تذكّرتُ أنني أشبهه، التي اذعتُ سابقًا أنها مجرد نافذة في حافلة، هي نفسها من تختار السماء أوّل بابٍ لتطرقه حين تلفظها الأرض. "تقبّل الله" قالت له حنان، لم يردّ، لم يحرّك شفتيه الغليظتين، تركنا وانسحب، جارًا جلابيته البيضاء على رمل الشاطئ. في الواقع، لم يكن يلبس جلّابية الضلالة، لكنني تخيلتُ ذلك.

هوامش ثريا لوكاس

٣)

لم أجد داخل أوراق غيم حذاء أي إشارة لحجرة الألف خطوة، كما قالتْ لي حنان. بدأتُ كتابة رواية "وادي قنديل" من صناعة حدثٍ، يستند على تلك الحجرة، وأوثقتُ الأيام بها. داخل مذكّرات غيم مرّت غيم والشخصيات كلّها، شخصيات مختلفة في ظاهرها، لكن، لم أتمكن من رؤيتها إلا متماثلة الوجوه، وكأنها فقدتْ ملامحها حين طحنتْها الحرب، وأعادتْ تشكيلها نسخًا حياديّة هامشية. كنتُ أسمع بالّذين ماتوا، بالّذين

هجروا، لكن الأحياء الذين بقوا هناك، الذين لم يدخلوا لعبة القتل، لم أعرف شيئًا عنهم. عثرتُ عليهم داخل مذكرات غيم، لكنني لم أكتفِ بمحاولة فهم ما حصل في بلدي من خلال القراءة، أغوتني اللعبة فصنعتُ لهم قصةً. قصةً خرجوا منها مثلما دخلوا: بلا ملامح.

أبو وليم (٥)

الحديث كان عن أبي وليم في الصورة على شرفته المهدمة، أيضًا عن استنجارنا أفلام الفيديو من عنده في التسعينيات، تلك كانت خطواتي الأولى نحو الشاشة الصغيرة، بعدها بسنتين (ربما أكثر، ربما أقل، بالتأكيد لا أعلم) صرتُ أعود راكضةً من المدرسة، كي ألحق ببث التلفزيون العربي السوري من بدايته (تتناوب على شاشته القناتان الأولى والثانية)، ولا تفوتني فقرة القرآن الكريم، أترتع على الطاولة الخشبية (مقابل التلفاز وسط غرفة المعيشة) واضعةً يدي على أذني، ومقلّدةً حركات القرّئ بكثيرٍ من الشغف، كان ذلك يثير ضحك العائلة وعائلة العائلة. كنتُ أحفظ سور القرآن الموجودة في كتاب القراءة، مع أن ذلك لم يكن مطلوبًا في مدرسة القدس الابتدائية الخاصة (على اعتبار أنها كانت تابعة للزاهيات سابقًا) من هنا بدأت رحلتي مع اللغة. كانت لنومي ساعة مقدّسة في الثامنة والنصف تمامًا، عندما تبدأ شارة الأخبار (هذا أحد قوانين جورجيت الصارمة)، أما يوم الخميس، فمسموحٌ السهر (الجمعة كان يوم العطلة الوحيد حينها)، برنامجي المفضّل على الإطلاق كان "فيلم الأسبوع" الذي شزع لي أبواب الشاشة الكبيرة العالية، أعتقد أنني كنتُ في الرابعة عشرة أو الثالثة عشرة أنتظر سهرة السبت (طلبتُ إذنًا خاصًا من جورجيت) كي أقعد أمام الشاشة، وأشاهد الفيلم والنقاشات التي تدور حوله فدوّنةً على دفترٍ صغير اسم الفيلم وممثليه ومخرجه والجوائز التي حصل عليها. كبرتُ واشتدّ بريق فضّة ذلك العالم الساحر في رأسي، واشتدّت أيضًا الحسرة التي تصيبني كلّما مررتُ قرب الصالات، ولم أستطع الدخول، كانوا يقولون إنها مرتع للمراهقين "الزعران"، يقصدونها كي يدخّنوا، ويستمنوا على المشاهد الساخنة، ثم يخرجون من الصالات مباشرةً نحو التحرش بالنساء. إلاّ أن الأحلام قابلة للتحقّق أحيانًا، كنتُ في السابعة عشرة (كالعادة ربما أكبر بعام، أو أصغر بعامين) حين افتتحت صالة سينما الكندي بعد إجراء تصليحات، أخذت سنواتٍ كثيرة من عمرها ومن انتظاري، كنا نعرفها سابقًا بسينما الزهراء، تقع في شارع السرايا (القوتلي) بين مقهيي الزوضة والفرح (تذكرونهما؟)، كنتُ أختار البلكون غالبًا مبتعدةً عن الصفوف العالية، كي لا أقاطع القُبل المسروقة هناك، أترقّب العروض، وأحضرها كلّها، مهما بدت لي غير جديرة، يكفي أن تمنحني تلك الزجفة المرافقة للحظة

الخروج من العتمة إلى الضوء. من أواخر الأفلام التي شاهدتُها في الـ٢٠١١ هناك فيلم سويسري كان يُعرض ضمن مهرجان دوكس بوكس (أيام سينما الواقع)، تشاركتُ الصالة مع ثلاثة أشخاص (متأكدة أنهم لم يكونوا أكثر من خمسة)، أحببتُ اسم الفيلم "تصبح على خير، يا لا أحد" أربع شخصيات في أربعة بلاد، تطرح أربع طُرُق مملّة لتبديد الوقت، حيث تتشارك معاناة الأرق المزمن، كانت طريقتي للتعاطف معهم أنني غفوتُ خلال الفيلم، بما أن الحياة تستجيب لرغباتنا في الأوقات والأماكن غير المناسبة، أحبتْ أن تعطيني فرصة العيش داخل فيلم، وهكذا في أول فترة من التهجير صرتُ الشخصية الخامسة، لم تكن لديّ مشكلة مع الوقت، أنفقه كلّه بانتظار صورة قادمة من الحي، أو وصول أي خبرٍ حتى لو كان ملفقًا، كان الإنترنت يعمل مثل ديلر الحشيش، يبيعني أوهامًا، ويقبض من عمري وحمرة خدّي. قبل ذلك - حين كنتُ في العاشرة - وضعنا مُقوّ للأنتين، واستضاف تلفازنا محطات لبنانية، تعرض أفلامًا من دون قصقصة، لذا كانت جورجيت تقوم بمهمة الرقيب، وتطفئ التلفاز حين تستشعر الخطر! بعد سنوات من ذلك، دخلت الفضائيات العربية بيتنا، لتعرض أفلامًا خفيفة، وهناك من يقوم بدور جورجيت الآن. بعد قدوم الكمبيوتر إلى المنزل، صار الموضوع أسهل، اهتديتُ إلى محلّ بيع سيديات أفلام جيدة، وصرتُ زبونته، كان بعيدًا عن الحي، لذا انقطعتُ في الحصار من الأفلام الجيدة، لكنني بقيت معتمدةً على محلٍّ قريب من البيت، يبيع سيديات الأفلام الهوليوودية والأفلام العائلية (التسمية المتداولة لأفلام البورنو)، كلّ أفلامه تتحدث الإنكليزيّة، اللغات الأخرى ليس لها سوق حسب ما يقول البائع الشاب، لا بأس، فقد كانت تعجبني فكرة أنني أتابع خلال الحصار فيلمًا مرشحًا للأوسكار في الفترة ذاتها، كان ذلك يذكّرني لبرهةٍ بأنني ما أزال موجودةً على سطح هذا الكوكب، ذلك قبل انقطاعات الكهرباء الطويلة، وبالطبع قبل هروب صاحب المحلّ من الحي. مفارقة لم أنتبه إليها سابقًا: أبو وليم الذي كنتُ أستأجر من محلّه أشرطة الفيديو، والذي أخبرتُكم عن صورته على شرفته المهذمة يشرب القهوة، ويلفّ رجلًا فوق رجل، أبو وليم بقي في الحي، ولم يخرج منه إلاّ ليبتر ساقه. قرأتُ أنه قد تمّ إخراجه من قلب الحصار عن طريق الأب فرانس، كي يخضع لعمل جراحي في دمشق يوم ٢٦ حزيران ٢٠١٢. (هل سيموت أبو وليم بعد أربعة أشهر من وجودي في وادي قنديل؟ قد تكون ثلاثة أو خمسة، وقد لا يموت، من يدري؟). طيب، من ابتدأتُ معه رحلتي إلى العالم البديل بقي في الحي، بقي في العالم الحقيقي، العالم الذي

يمرض ويجوع بشدة، العالم الّذي لا تخرج منه إلاّ مصحوبًا بآلام شبحية.
بينما الشاب الّذي يبيع الأفلام الناطقة بالإنكليزية هرب مثل الجميع، نحو عالم بديل، إنّما خارج الشاشات.

حمص / ٢٠١١

رغم تغييم ذاكرتي أحاول بجهد تحسّس أحداث حياتي بخبرة أصابع أعمى في تلمّس طريقه، وبثقة هذا الأعمى حين يقبض على عكّازه بقوّة، أستطيع الإمساك بتلك اللّحظة التي تغيّر فيها كلّ شيء، وانفتحت المدينة على الرّعب. ١٨/٤/٢٠١١ يوم اعتصام الساعة الشهير، لم أذهب إلى المشتل، لم أتجاوز عتبة البيت، بقيتُ أتحرّك ضمن حدود خطّتها جدرانه العالية، شاشة اللابتوب فتحت لي نوافذ، أطلّ منها على الحدث، مروحة الجهاز تعن، أو لا أدري ربّما قلبي الّذي فعل، صرتُ أروح وأجيء ممشّطةً أرضية الصّالة الواسعة جارّةً قدميّ على بلاط الشحف الملوّن بالزهري الغامق والأبيض. هكذا أفعل حين أكون بانتظار أيّ شيء، ولو كان فكرة. كنتُ متأكّدةً من قدومه، نعم، كنتُ أعلم أن الوحش قادمٌ. بندول الساعة الخشبية الكبيرة يتراقص داخل حدقتيّ، كانت الساعة تعمل حينها، قبل إيقافي لها عند الواحدة ظهرًا (أقصد ساعة الرّحيل الأخير من المنزل بعد أقلّ من سنة). شعرتُ أن توثيق لحظات كهذه يتطلّب دقّةً شديدة. اللابتوب موضوعٌ على طاولة السفرة التي أستخدمها عادةً للكتابة والعمل، داخل شاشته كلّ شيء يسير على ما يرام، وداخل شاشةٍ فوقه أيضًا، أعني شبّاك الصالة (نركن طاولة السفرة تحته)، ويشرف على شارع بيتنا الفرعي، وصلتني أخبارٌ حيّةٌ مع جيران مرّوا اليوم بالسوق، وشاهدوا الاعتصام: ثمّة كثيرٌ من الرّجال والنساء، من الأطفال والشيوخ، يقفون معًا بشكلٍ منظّم، ويُقدّم للجميع الطّعام والشراب، لا يتعرّض لهم أحد. سمعتُ كلّ ذلك بأذني، وبصفه قلبي الّذي ينبض بقوّة، كأنّه قرع طبول حرب. هل شبّهته بالمروحة قبل قليل، والآن بالطّبل؟ حسنًا بعد قليل سيصير مقبرة. هبط الليل، وكأنّه ثقالة على أوراق الخوف المكدّسة داخلي، تعبتْ قدماي، تعبت الصّالة منّي. أسدلتُ الأباجور، أطبقتُ الشاشة، وتركتُ قلبي مفتوحًا، هل تُغلق المقابر أبوابها؟ دخلتُ غرفتي، تكوّمتُ في السّرير متنقّلةً نظراتي بين ساعة معدنية صغيرة موضوعة على رفّ المكتبة (داخل الساعة يوجد ديك برتقالي، يحرّك رأسه بغباءٍ كلّ ثانية) وبين الشجيرات المرسومة على ورق جدران الغرفة، حاولتُ عدّ تكّات الساعة، صوتها كان أعلى من العادة، ما جعلني أخطئ، وأعيد العدّ من جديد، تمنّيتُ لو أجلس مكان الديك،

وأنقر الوقت. لا أذكر تحديدًا أين كان نظري معلّقًا حين بدأ إطلاق النار الكثيف، كانت أول مزة يندلع فيها الرصاص بمثل هذا الزخم الهائل، ومعه انطلقت من مكبرات صوت "الله أكبر .. إخوانكم يُقتلون". لا أعلم متى نظرتُ إلى الساعة المعدنية، ولستُ متأكدةً من أنني نظرتُ حتى، أو إن توقف الديك البرتقالي عن تحريك رأسه الغبي، لكنني أعلم أن الأمر بدأ عند الثانية إلا ربعًا صباحًا، آخرون قالوا في الثانية إلا عشر دقائق، غيرهم أكد أنه في الثانية إلا ثماني دقائق. لستُ واثقةً من سبب الخطأ، هل كان في الساعة المعدنية المتأخرة زمنيًا؟ في تشنجاتٍ أصابت رقبة الديك؟ أم في قلبي الذي بدأ يمطر رصاصًا قبل الحدث بدقائق؟ من داخل غرفتي بورق جدرانها ذي الشجيرات، لا أستطيع أن أعلم بدقةٍ حقيقة ما حصل تلك الليلة في ساحة الساعة الجديدة (دومًا أشعر بأن عليّ الاعتذار عن ذلك)، أنا فقط كنتُ خائفة أرتجف وأنتحب، أنّ وأغطي وجهي، كي لا أرى الموت الذي يعوي خارج جدران غرفتي العالية، وداخل قلبي المقبرة.

وادي قنديل/سوريا/شباط ٢٠١٤

أن تصير "النجاة الفردية" قبلة الجميع، هذا أمرٌ متوقَّع، "النجاة الفردية" هذه الجملة الاسمية المكتوبة اليوم على جبين كلّ سوري، بحبرٍ لا يزول. السعي إليها مبرّرٌ ومفهومٌ في معظم الأحيان، الحياة تُعاش مرّة واحدة، ومن حق أي كائن بشري اختيار الطريق الذي سيعبرها به، محاولًا إطالته بالوسائط المتاحة، كالسفر إلى بلادٍ لا تعرف من الحروب إلّا أرقام ضحاياها، "سامحيني، أيتها الحروبُ البعيدة، لأنني أحملُ الورودَ إلى البيت(*****)"، هكذا تقول الشاعرة القادمة من بلدٍ مُحي قبل خمس وسبعين سنة من الخارطة(******)، بسبب حربٍ شنّها عليه بلدٌ آخر - وياللسخرية - هو الذي تشير إليه اليوم بوصلة أغلب الهاربين من الموت السوري. هل يُعقَل أن يعتذر أحفاد أحفادنا يومًا لحروب بلادٍ بعيدة؟ فارغٌ جدًّا تفكيرك بذلك خلال معايشتك ليوميات هذه الحرب التي دأبت في كلّ ساعة على ترسيخ حقيقة أن الأسوأ الّذي يحصل الآن سيأتي أسوأ منه بعد قليل. حسنًا النجاة الفردية لا تكون مبرّرة أبدًا حين تصعد درجًا من جثث وأنقاض بيوت ومجاعات، وهذا ما يحصل في صورٍ كثيرة، مثل "التعفيش"، هذه المفردة التي دخلت قاموسنا بعد عام ٢٠١١، وصارت مصدر رزقٍ لفئة من البشر، تلك الّتي تعدّها نجاة مستحقّة، وافتتحت أسواقًا خاصة بها، تُكنّى بأسماء المناطق المنكوبة الّتي سُرقت البضائع من بيوت أهلها المهجّرين. اشترِ ذكريات عائلة، اشترِ رائحتها، بأبخس الأثمان. البذاءة تدفّقت في الشوارع، والبلاليع مسدودة، إن لم تمت، فستغرق عيناك في القذارة. وهذا يحصل معنا الآن في هيئة سرقة الطعام من المطبخ، الشخص الّذي ما نزال نجهل هويته، يخشى الجوع وهذا حقّه، لكنه ينشد خلاصه على حساب جوعنا، وهذا لا يمكن أن يكون مشروعًا. لا أعرف ماذا أفعل، هذا السرّ عالقٌ بيني وبين جنى، لكنه يكبر مع كلّ سرقة جديدة، لا أعلم متى ينفلت منّا، ويندلق بين الأصدقاء، أنا خائفة حقًّا من كشف هوية لص الأكل هذا، كيف سنأمن لوجودنا معه تحت سقفٍ واحد؟ الضغينة التي تزحف كأفعى بيننا، تحتاج فقط أن يدوس عليها أمرٌ بهذا الثقل، كي تلدغنا.

ثمّة شيءٌ غريبٌ في صالح، يبتسم للجميع بودّ، اختفت تلك التقطيبة

الحامضة من وجهه، الجيليه الرماديّة اللون بدت أقلّ كآبةً، كأنّه اليوم مزّق صندوق عزلته الأسود، وخرج إلينا. دخل المطبخ وحده، وأعدّ لنا لأول مرّة المثة، عادةً تقوم ميسم بتسخين إبريق الماء، بينما يضع عروة الكفية المناسبة من الأوراق اليابسة في أربع جوزات فخّارية، داخل كلّ منها مضاصة معدنية مزيّنة بخرزة ملوّنة. ريشة يكفيها أن كلّ أهل السويداء يُدمنون شرب المثة حتى تكرهها. أنس لا يحبّ المثة، يعدّها قرينة الخمول، لأنها تحتاج زمنًا طويلًا من الشرب، كما يرى شكل أوراق المثة الخضراء حين تطفو على وجه الماء شبيهًا بالعفن. لم تكن المثة حاضرةً كمشروب في عائلتي المدينية، أعتقد أن لسكّان بعض الفدن أسبابًا مناطقية وطبقية، وأحيانًا طائفية للابتعاد عنها، فلطالما كانت مرتبطةً بالزيف والفقر. أثرياء بعض المناطق حين أدخلوا هذا المشروب الدرويش إلى حياتهم، ألبسوه مظاهر بذخ، كالمضاصات والأباريق والجوزات الفضّية أو المذهّبة. لا أذكر كيف صرتُ من مُناصريه، قد تكون الأسباب التي أبعدتْ أهل الفدن عنه هي من قرّبتني له. بدوري نقلتُ الراية إلى جنى، وصارت جوزات المثة رفيقاتنا في ساعات الدراسة والسهرات. لا يوجد مشروبٌ يُؤنس أيّام الحصار الطويلة الباردة مثله. بعد فترة من الحصار، بدأ مخزوني منه ينفد، والبقّال الوحيد الّذي صمد في الحيّ، أحكم إقفال باب محلّه، ورحل. أنقذني اتّصالٌ على الهاتف الأرضي من جارنا خليل الّذي نزح إلى بلدة "مشتى الحلو"، يطمئن على بيته، ويُعلمنا بوجود دزّينة مختومة من علب المثة طالبًا أن نستفيد منها. خليل وعدد من الجيران تركوا لنا مفاتيح بيوتهم، كي ننشر ثيابًا على حبال غسيلها، ونشعل الأضواء، كممارسات توحي بأنّهم لم يرحلوا، لقد ظنّوا أن منشفةً بيضاء وزوج جوارب مثقوبة، وبنطال جينز مكحوت يشكّلون كتيبةً، تحمي المنزل من الاعتداءات. بعد التهجير، صارت المثة مدرجةً على اللائحة السوداء للأمور التي يستحيل أن أقربها، أموزٌ كانت قطع ليغو لحياتي القديمة التي فُكّكت. حاولتُ هذه المرّة مسايرة صالح، ووافقتُ على إضافة جوزة لي، كاحتفالٍ بظهور هذا الصالح الجديد بيننا. رحّب أنس بذلك، وطفح وجهه بالرّضى. احتضنتُ الجوزة بكفّي، وببطءٍ قزبتُ طعم الزّمن الشحيق من فمي، الأصدقاء صمتوا وهم يراقبون هذه اللحظة المصيرية، بدوا مشدوهين مثل من يشاهد مرور الشّهب، أطبقتُ شفتي على طرف المصاصة، لم أشعر بحرارتها، سحبتُ كلّ الماء الساخن دفعةً واحدة، لم أتوقّف حتى صدر صوت طرقعة داخل الجوزة، وضعتُها على الطاولة، وركضتُ إلى الحمّام لأتقيأ كلّ ذكرياتي التي صارت فجأةً شديدة

المرارة، رغم أنني أضفتُ ملعقتي سكر. وهكذا قلبتُ الجو الكئيب المسروق إلى توترٍ من جديد، خاصةً وقد رافق ذلك تصعيدٌ في الرصاص خارجًا.

****

بعد توقُّف إطلاق النار يتحول الشاطئ إلى فسحة، نخرج إليها من الشاليه/السجن، ونحلم بالعودة إلى حياتنا خارجًا/السجن الأكبر. جلسنا متقابلتين تحت الشمسية، وكانت ظلال القش ترسم خطوطًا على وجهها الجميل الحزين، بدا كأنه داخل قضبان سجنٍ من نوعٍ آخر.

انفصلتُ عن عروة، وأنا الآن في حكمِ المفصولة عن متابعة الاختصاص، أحدهم رفع تقريرًا أمنيًا فيّ، بسبب انخراطي في أعمال الإغاثة غير المشروعة (على حدِّ تعبيره). أعلم أنكِ كنتِ واقفةً خلف الباب في تلك الليلة.

نزلتْ على جملها ثلاث صواعق متتالية، الأخيرة وحدها استطاعت قتل كلّ قطعان الغزلان المتراكضة في دمي، وصارت شراييني تغصّ بالجثث ذات القرون والعيون المفتوحة. أنهتْ قولها، ودخلَتْ في نوبة ضحكٍ هستيرية، شعرها البنّي الملولب يهتزّ، تشدّ جذعها إلى الخلف محرّرةً وجهها من قضبان الظلال، عاصرةً بطنها بيديها، وكأنها تريد أن تقذف بأحشائها إلى السماء، انتهت النوبة ببكاءٍ صامت ومرير. لساني شُلّ، أخرجتُ منديلًا من جيب معطفي، ومسحتُ الدموع الساخنة الّتي شققتْ خدها البارد. أمسكتْ يدي، وشدّتْ عليها، كما لو أنّها تريد التأكد من أنني لن ألبس اسمي، وأختفي داخله، كما لو أنّها تريد أن يهطل مني حبٌّ غزيرٌ يغسل أوجاعها. أفلتت يدي بعصبيةٍ، وأشاحت بوجهها نحو البحر حين وصلتْ جنى فجأة، وانضمتْ إلينا، صارتْ جنى تثرثر بمرح، لم أركّز في حديثها، كنتُ مأخوذةً بما جرى مع ميسم، مشاعري تشظّتْ، أحسستُ بألمٍ في بطني، وجفّ حلقي، بدأ قلبي يتفتتُ مزقًا، كيف يمكنني الوقوف معها في مواجهة مصائبها؟ كيف يمكنني التخفيف من أحزانها، بينما أحاول الهروب من فكرة أنها رأتني تلك الليلة؟ ليس بمقدوري التعامل مع ذلك، شعرتُ بالحنق تجاه ريشة، ربما كانت من أطلعها على الأمر، فقط لو أستطيع محو تلك الليلة. كان واضحًا أن ميسم تغلي من الداخل كمرجل، تطبق كفّيها بقوة، أظافرها تغور في جلدها الرّقيق، وجنى لا تعير أهميةً للتوتر الّذي يقسم حبات الهواء حولنا، مستمرّةً في الكلام، وكأنها تتنفّس في عالمٍ آخر، حتى قاطعتها ميسم، وقصّت الأنبوب الّذي يصل بين رئتيها،

- حين نعود، سأوافق على اقتراح صالح بإجراء جلسة تصوير لي.

كانت متألمة مثل حيوانٍ جريح، يريد أن يخمش أوّل من يقف في طريقه، لكنها لم تخمشني أنا، وهذا آلمني أكثر، إنها تحبني إلى هذا الحدّ الّذي يمنعها من خدشي رغم ما تكشّف لها من سلبي أثمن أسرارها، وإنكاري لمشاعرها قبل وبعد صياح الديك. كان وقع الجملة قاسيًا على جنى، كما أرادت ميسم تمامًا، انطلقت الجملة مثل رصاصة قناص، لتعلق برأس المرح الّذي قدمتْ به إلينا.

- متى طلب منك ذلك؟

سألتها جنى بوجهٍ يتقطّر خيبةً.

- عند أوّل مزّة التقيته فيها، رفضتُ حينها، لأنني أخجل من التموضع أمام حدقة أيّ أحد، لكنّني تعرّضتُ أخيرًا إلى تجربة من هذا النوع، فما الضّير إذًا؟

نظرتْ إليّ نظرة بمثابة صفعة، وأكملتْ حديثها، هي لا تريد لـ جنى أن تخرج سليمةً من تحت مخالبها:

- عرض ذلك على ريشة أيضًا قبل أيّام، بالتّأكيد عرضهُ عليك في البدايات، جنى. أخبرني عروة بأنها طريقة صالح في استدراج النّساء إلى سريره. الوحيدة بيننا التي لم يطلب منها ذلك هي أنتِ غيم، كلّنا نعلم أنك حلم صالح منذ زمنٍ، لكنه أضعف من أن يبادر بأيّ شيءٍ تجاهك، ككلّ الّذين يحبونك، ويربطون مشاعرهم بقضبان سكّةٍ منتظرين أن يدهسها قطار تجاهلك الطويل. أغبط أنس على شجاعته، هو الوحيد الّذي عرف كيف يصير محظات لوصولك.

حاولتُ كزّ شريط الأحداث التي جمعتني بصالح، لم أستطع الوقوف عند لقطةٍ، مال فيها تجاهي. كلّهم

يعلمون؟ يعني أنس يعلم؟ وجنى أيضًا؟ هل يعقل أن يكون هذا صحيحًا؟ لم أعرف بماذا أرد، وكيف سأنجو من هذا النق، تشتد بي آلام جنى وميسم، الصديقتين اللتين اخترتهما لعبور هذه الحياة، ها أنا أبرع في خلق أبعادٍ جديدة لأحزانهما، أن أحيلها دمى "ماتريوشكا" بعددٍ لانهائي من القِطع .لكنني لم أقصد ذلك، أحلف بأمي جورجيت أنني لم أقصد ذلك. هما هنا الآن، بسببي، خائفتان، وتتصاعد بهما المآسي، أنا ربيث هذا الوحش الذي يعزي حياتنا خارج وادي قنديل بلا رحمة، الذي يفلش لنا السنوات الأخيرة على هذا الشاطئ، طيب، على ذلك أن يرضيني، لا معنى لروايةٍ بلا فجائع وذروات وسقطات مدوية، لكن، لم علي أن أكون اليد التي تلقيهم في البئر؟ هل أوقف كلّ شيء، ونعود الآن، بعد دقائق كلٌ إلى حياته، من دون حزم أمتعتنا، نتركها وراءنا شواهد على أزيف أنواع الحصار، من دون أن نعرف من يسرق طعامنا، من الذي سبقنا إلى الحفرة التي عفقتها جيدًا، من لم يفشه القش المنثور على فتحتها بعد؟ يا الله، لا أستطيع، لا أستطيع أن أصرخ أمامهما، أمامهم "أنا عارية". يا الله، أخاف أن يروني عارية، وكل ما أستر به عوراتي هو هزائمهم القادمة.

- شقفة شرموطة سحاقيّة، ما بتسوي ليرة.

(انفجرت جنى في وجه ميسم بعد أن انتفخت غضبًا).

ما كان من ميسم إلا أن وثبت عليها مثل نمرٍ، دفشتها على الزمل، وشدتها من الكعكة الملفوفة خلف رأسها، حالّةً لها شعرها، جنى أمسكت بلوالب الشعر البنية جاذبةً ميسم إلى الزمل. صديقتاي الوحيدتان الآن مرتميتان أمامي، تتدحرجان على الشاطئ متبادلتين الشتائم والضرب والزفس والبصاق، أنا واقفةٌ بجمود تمثالٍ حجريٍ، يطلّ على ساحة معركة، أعصابي سالتْ على الزمال، ودارتْ بي الأرض، آخر شيءٍ أذكره هو أنني كنتُ أنظر وسط غبار المعركة إلى باخرةٍ بعيدةٍ، تشق قبلة

الشماء للبحر. استيقظتُ لأجد نفسي مستلقيةً على أريكة ريشة، وجهي مبلّلٌ بالماء، وأنس يمسك يدي، ويمشط لي شعري.

- شو صار؟

- ولا شي، حبيبتي، بكرا رح وقّف كل شي، ونرجع. ارتاحي.

وقبل يدي كمن يودّع شخصًا يحتضر.

دخلتْ ريشة، وطلبتْ منه أن يتركنا على انفراد، لأنها تريد أن تحدثني بأمرٍ ضروري.

قزبتْ كرسي مكتبي الوهمي المتنقّل، وجلستْ قبالتي، تلفّ سيجارتين ببطءٍ على فخذها الأسمر النحيل، ضيفتني واحدةً، أومأتُ لها بالرفض، أشعلتها، سحبتْ مجّةً طويلةً بملامح من يتنفس هواء البحر بعمقٍ لأوّل مرّة في حياته، وشرعتْ تكلّمني، بينما عيناها معلّقتان بمكانٍ آخر، لا أعلم كيف، لكنها كانت تكلّمني من دون أن يتبدّد صمتُ الغرفة، كما لو أنّ صوتها شبح:

- ها قد اقتربت النهاية، The end, fine، وأرغب في أن أصنعها لك، محبوكةً، صادمة، تقع في القلب، تغادره بعد تحوّل صاحبه إلى جيفة. أنتِ تحبّين السينما، وأنا أكرهها، ليس عبثًا وضعها في المنزلة السابعة، أعلم، أعلم، هي غيّرت هذه التّصنيفات، وجمعت الفنون، وكلّ هذا الهراء. السينما تعني المال، الكثير من المال، المال يعني العبوديّة، وأنا حرّة، يا الله، هو خلقني حرّة، ما الّذي أستطيع فعله حيال ذلك؟ أتمنّى أن يتحوّل العالم إلى خشبة مسرح، لنحظى كلّنا بأعظم أنواع الحريّة. فكرة تدخّل الكاميرا وفرضها الرؤية على النّاس من وجهة نظرها، فكرة ديكتاتوريّة أمقتها، عالم الصّورة لا يكفّ عن التّطوّر، متى سيتوقّف هذا الغول؟ عفا قليلٍ، لن

نكون موجودين على الأرض، سيكتفون بصورنا. في المسرح، ثلاث دقّات تكفي ليهدأ كلّ شيء، لسنا بحاجة إلى هدير موسيقى، يبتلع العتمة، نستطيع أن نُبصر نوزا مبهزا وسط الظّلام الحالك، حتّى لو لم نملك مصادر طاقة، ستشعّ من قلوبنا. من روايتك قد ينمسخ فيلمٌ، ويكسّر الدّنيا، سيسارع المثقّفون البليدون لتكرار اللازمة "الفيلم لم يصل إلى مستوى الرّواية" لكن النّاس لن يفكّروا في الرّواية أبدًا؛ فالسينما تسرق كلّ العناصر، وتطحنها تحت أضراسها كما تطحن العتمة، أمّا المسرح، ويا لَعظمته! هو حيث تمشي الكلمات على الخشبة، على الخشبة أكون أنا النّصّ، أكون كلّ التّفاصيل، هناك فقط لا يستطيع أحدٌ أن يسلبني شيئًا. في المسرح يكفي أن أقول إنني نهرٌ أزرق حتّى يصدّقني الجميع، ولو كان لون فستاني أحمر، سيشربون من مائي، ويخرجون من هناك مردّدين "لم يزدنا الورد إلاّ عطشًا"، سيكشون المجاز، ويقصدون ذلك بحرفيّته. ثمّ أن تُلقي بلحم ودمٍ ومشاعر بين النّاس، هل من هزيمةٍ للميديا المتوحّشة تفوق ذلك؟

كنتُ أشبه بجثّةٍ ما تزال تحتفظ بحاسّة السّمع، رغبتُ بأن أقوم بمداخلة، أن أناقشها بأفكارها، أن أسألها لماذا تحدّثني بهذه الأمور الآن، وأنا في هذه الحالة المزريّة، وكيف علمتْ بأمر الرّواية، وبأن كلّ ما يجري معنا هو فيلمٌ من إخراجي أنا وأنس، ومن تنفيذه هو؟ لكنّ بقيّة حواسي غادرتْ، ولم تلبني.

- أفكّر جدّيًا بأن أمثّل دور نهرٍ على خشبة مسرح، نهرٍ عرف لأوّل مرّةٍ في حياته أنّه يصلح لأن يكون كاميرا بذاكرة عذبة شديدة القصر، حصل ذلك عندما اقتربتْ منه فتاةٌ، لتغسل شعرها، وشاهدتْ صورتها تتموّج على سطحه، ابتعدتْ، فاختفت الصّورة،

اقترنت، زقزقت العصافير "تشييز"، وظهرت صورة ثانية مبتسمة لها. في تلك الأيام، كانت الكائنات تفهم لغات بعضها البعض، عكس اليوم: الحمامة تهدل "كس أمكن" وهي تحلّق فوق قبّة كنيسة، والبشر الأغبياء يظنّونها تبعث إشارة سلام.

وأطلقت ضحكتها التي فقدت شيئا من صفاقتها، واكتسبت يأس سكّير، يفرد أسراره على طاولة البار، ثم تابعت:

- المهم أنا النهر، أزهو بنفسي، لقد صرت أوّل كاميرا في التاريخ، وذلك لأنّ الأنهار أسرع من البشر، وإلاّ لسبقته الفتاة، وسجّلت براءة اختراع الكاميرا لعينيها، ألم يز النهر صورته فيهما؟ ظلّ النهر بعدها يجري سعيدًا بلا مصبّ، ولا ضفاف، لم يُخبره أحدٌ بأن الفتيات يفضّلن الماء السّاكن، ويتصوّرن به كلّ يوم، أصلًا لم يكن يعلم بأن أحدًا يستطيع حجز الماء، وإلاّ لصرخ بأعلى صوته "خزيّة". إنّها مسرحيّة، وعلى التراجيديا أن تفرض نفسها، ومَن أفضل من البشر في خَلْقها؟ وصل بشريّ، واستعمل رأسه - للأسف - مخترعًا أوّل مرآة من الأحجار المصقولة، ثمّ جاء ذلك اليوم الأسود الّذي ذهبت به الفتاة، أجمل فتاة في الأرض، تلك التي يهيم بحبّها النهر، ذهبت في موعدها الثابت مرّة كلّ خمسة شروقات للشمس، لم تكن الأيّام قد ولدت حينها، ذهبت الفتاة حبيبة النهر تستحمّ، بيدها قطعة من زجاج بركاني، تلتقط بواسطتها سيلفي كلّ قليل. بدأ بطن النهر يوجعه، كبر حزنه، وصار ضفافًا، يأس شديد أصابه، لم يعد بعد ذلك قادرًا على تحفّل رؤية الحياة، اختار بحرًا، ودفن رأسه فيه. نهاية حزينة للمسرحيّة، ولكنّها ليست كافية. بعد ذلك، صار يغضب على شكل فيضانات مغرقًا بيوت النّاس ومحاصيلهم، النّاس

علموا أن وراء غضبه امرأة، فاخترعوا عيدًا، حينها وُلدت الأعياد. وصاروا يقذمون فيه أجمل فتاة قربانًا للنهر، كي يرأف بهم. أسدلت الستارة.

آخر ما قاله شبح صوتها قبل أن يرحل، وهو يمعس أول لفافة، ويشعل الثانية:

- انتبهي، الكرسي مكسور.

لم أشعر بالزمن الذي مر بعد ذلك وأنا أحدق في الفراغ، كأن الكون قزر فجأة أن يتركني مستلقيةً على أريكة، ويهج آخذًا معه كلّ شيء ما عدا لفافة ممعوسة وجملة وحيدة "فاستراح في اليوم السابع".

ثلاث دقّات، ثم تعالى صراخ وعويل في الخارج، كنت ثقيلةً، أحاول انتزاع نفسي من الفراغ، أحاول إبعاد الجملة المخيفة عني والنهوض، حين دخلوا كلّهم ما عدا الفتاة النهر وصوتها الشبح، تحلّقوا حولي، عيونهم تحدق فيّ، كما لو كنت فراغًا أبيض، نشيجٌ مبحوحٌ يقف وراءهم: "ريشة انتحرت، يا خالة غيم".

*****) اقتباس من الشاعرة البولندية "فيسوافا شيمبورسكا".

******) ألمانيا والاتحاد السوفياتي تقاسمتا بولندا عام ١٩٣٩.

بسبب جنى، دخلَت من الباب الخلفي لحياتي فتاةٌ، لم أحبها يومًا "ريحان" أو "ريشة" كما نناديها، الآن انتبهت إلى أنني لا أعرف كنيتها، وأحيانًا أنسى أن لها اسمًا غير ريشة. ريشة تصغر جنى بخمس سنوات، التقتا مرات عدة في مظاهرات طيارة، وفي اجتماعات كانت تُعقد بغرض تنسيق الأنشطة الثورية. مرةً وزّعت مكبرات صوت على الشباب والضبايا، انتشروا في أحياء دمشق، وقاموا بدسّها في حاويات قمامة المدينة، لتبث في الوقت نفسه أغاني القاشوش، وصدح صوت الثورة في سماء العاصمة. في مرةٍ أخرى، تمّ الاتفاق على توقيت معين، تُطفأ به أضواء البيوت، لم يتجاوب كثرٌ معها، فبدا الأمر كما لو أن بعض البيوت نامت أبكر من غيرها. جنى كانت تقول إنها تحب الشعور الذي ينتابها، تحب كيف يندفع الأدرينالين في جسدها، ويجعلها حيةً أكثر من أي وقتٍ مضى. كان شيءٌ في داخلي يغار من ذلك، وشيءٌ أكبر يخاف على جنى. توطدت صداقة ريشة وجنى عام ٢٠١٢ حين هربتا معًا من عناصر الأمن الذين كانوا يقمعون المشاركين في وقفة شموع صامتة، تطالب بتنفيذ وقف العنف، تقول جنى إن كلّ شيءٍ كان رائعًا، ولكنها حدست خطرًا وقع بعد قليل، حيث كان رجال الأمن متخفين بينهم، وفجأةً كشفوا عن أنفسهم، أخرجوا العصي، وبدؤوا بملاحقتهم، أحدهم ضرب جنى على ظهرها، وحاول شدّها نحو سيارة الستيشن، إلا أن ريشة ساعدتها في التخلّص منه. قضت ريشة أيامًا في بيت جنى، كانت تشك أن بيتها في جرمانا مراقب، لأن صديقتها في الشكّن هددتها أن تُخبر عنها حين ارتابت من انخراطها في المظاهرات. بعد حادثة الهرب تلك، أحجمت جنى عن المشاركة في أي شيء، تقول إنها أدركت تدهور الأمور نحو الأسوأ، وما أفزعها أكثر هو اعتقال رفاق لها، وانقطاع أخبارهم. ظلّت ريشة تتهم جنى بخيانة الثورة متبجحةً بالاعتقال الذي تعرّضت له لاحقًا، وخرجت منه سريعًا (بسبب تدخل له وزنه من بعض مشايخ الجبل). ما أعرفه عن حياة هذه الفتاة ضئيل، رغم أنني التقيتها كثيرًا خلال زياراتي لـ جنى، وكان ذلك يضايقني. لا أستطيع تحديد ما الذي كان يزعجني حقًا في شخصها، أو في حضورها، قد تكون غيرة من نوعٍ ما، لا أدري. هي وأنا مثل وجهي المسرح، لا أقصد أن إحدانا

الضاحك والثانية الباكي، ما أعنيه هو: لو يُتاح للإنسان أن يحظى بشخصيةٍ ثانية تخصه، وفي الوقت نفسه هي الوجه الآخر والمعاكس لشخصيته الأولى، لكانت شخصيتي الثانية هي ريشة. هي وُلدت ونشأت في مدينة شهبا، في عائلةٍ تعلّق أفكارها الشيوعية على بازلت جدران المنزل، جورجيت أيضًا كانت تعلّق صور العذراء مريم على جدران بيتنا المطلية بالأبيض. من غرفة نوم أبويها، تُسمع صرخات الحب اليساري. والدها يعزف على الغيتار، وكان يقلّد في شكله جورج هاريسون. فيما كان فارس يحدثني عن مقام الزنجران، كان والدها يدير أغاني فرانك سيناترا. منذ ثلاث سنوات، تتقدم ريشة إلى امتحان قبول المعهد العالي للفنون المسرحية، في كلّ مرة تنجح في الامتحان الأول، وتُغرم بها اللجنة، لكنها لم تتجاوز الامتحان الثاني بعد. هذا العام (٢٠١٤) تستنفد آخر فرصة في التقدم قبل أن تتجاوز الـ٢٢ عامًا. ريشة مخلصة لحلمها، لم تدع أيّ اختصاص آخر يدخل حياتها، بقيت في الشام من أجله، صباحًا تتدزب مع فرقة مسرحية صغيرة، لا تحظى بفرص عرض في المسارح الكبيرة، ومساءً تعمل في بار في جرمانا (الحي الّذي تقطنه أيضًا) من أجل أن تستطيع دفع أجرة الغرفة، بعد أن قطع أهلها عنها المصروف إمعانًا في الضغط عليها. الإخلاص هو ما لم أفعله، أو حاولتُ أن أنقذ ما استطعتُ، لكن، بعد فوات الأوان. لطالما أحببتُ الكتابة، لكنّ لعنتي كانت هي تفوقي في الدراسة، في البكالوريا حصلت مجموعًا يؤهلني لدراسة كلّ الاختصاصات عدا الطب البشري، قلتُ لجورجيت إنني أنوي دراسة الإعلام، أو الأدب العربي، جُنّ جنونها، لأنّها كانت تحلم لي بالصيدلة، ذاك الاختصاص الّذي تعشقه العائلات السورية لبناتها، على اعتبار أنه يدز المال والعرسان، خضتُ حروبًا معها، خرجتُ منها نصف مهزومة حين قبلتُ بأن أدرس الهندسة الزراعية. بعد التخرّج، نشبت حربٌ جديدة حين رفضتُ أن أتوظّف في مؤسسات الدولة، هنا خرجتُ بنصرٍ كاملٍ، وعملتُ في المشتل. النصر لم يدم كثيرًا، الحرب تحرق كلّ انتصاراتك السابقة، وتبقي لك الهزائم، كي تتمعن بها جيدًا. حين أخبرتُ أنس بأنني كنتُ أحلم بأن أصير صحافية، قال لي "كلّ الفتيات اللواتي عرفتهنّ قلنَ لي ذلك"، أزعجتني الجملة، إلا أنها واستني قليلًا. كنتُ أتحدث عن ضغوط والذي ريشة عليها، مشاكل ريشة العائلية بدأت حين أحبت شابًا مسيحيًا، وبدا أن تلك العلاقة تأخذ شكلًا جديًا، قد يسير في طريق الزواج، ما كشف عن وجهين، لم ترهما من قبل "بذك تفضحينا بالجبل؟" ملوّحين لها ببراءتهما من دمها في حال أخذ أحد رجال العائلة إجراءً بحقّها (يقصدان قتلها). مشاكلها معهما

بلغت ذروتها بعد حادثة الاعتقال، هدّدها والدها بأنه لن يتدخل، إن تكرّر الأمر، وسيتركها تتعفّن في السجن. ريشة تقول إنها لم تخف من رجل الأمن، بقدر خوفها من نظرة والدها، والدها ذاته الّذي كان يطيل شعره، ويبكي حين يسمع أغنية "شيد قصورك" للشيخ إمام، وبشكلٍ خاص عند جملة "واطلق كلابك في الشوارع، واقفل زنازينك علينا".

وادي قنديل/ سوريا/ أيار٢٠٢٩

"...أشجار اللوز المزهرة. لا أعرف كيف أقول ذلك، لكنك تشعر بأنها تفتح ذراعيها للقنابل، كي تؤمن لها مكانًا للاختباء، ثم تضم الانفجارات، وبذلك لا يمكن أن يحصل أذى للزبيع".

كوستاس مونتس

حين أخذت قراري ببدء رحلتي من هذا المكان في سوريا، ظننت أنني كنت أنتقل مكانيًا وحسب، لم يخيّل إليّ أن هذه المنطقة الساحلية الهادئة ستخبئ لي آلة زمن، تبتلعني، لن تغير مسار رحلتي فقط، بل حياتي كلّها. بعد أبحاث كثيرة قمت بها في لارنكا وباريس، وحيرة كبيرة، وقع اختياري على هذه المنطقة المسفاة "وادي قنديل"، هي قرية من ريف اللاذقية مطلّة على البحر، اخترت بدء رحلتي منها، لأنني توصلت إلى كونها من أقل المناطق تأثرًا بنيران الحرب والزمن، وأنا بحاجةٍ إلى مكانٍ عالقٍ في الماضي، كي أبدأ تلفس البلد منه، من نقطةٍ مخبأةٍ في جوفه، ثم أخرج منها.

لم تكن المنطقة بكرًا تمامًا، كما تخيلتها، ورأيتها عبر فيديوهات البث المباشر لهوغل إيرث، حصل خطأ ما، فمن الواضح أن كثرًا سبقوني إليها، إلا أنهم كانوا يلهثون وراء مستقبلٍ واضحٍ من المال، أما أنا، فوراء ماضٍ مجهول. ابتعدت عن الفنادق التي ترطن بلغاتٍ كثيرة، استطعت أن أميز منها الإنكليزية والروسية والفرنسية. اخترت البقعة الشعبية الوحيدة الصامدة، والتي تتكلّم بعربيةٍ صافية، استقبلني صبيٌ طويلٌ نحيل، سمرته كالحة، طلب مني أن أنتظر قليلًا، ريثما ينادي أمه، وتشرح لي عن المكان. كان يتكلّم معي بإنكليزيةٍ ركيكة جدًا. فهمت أن الدليل الذي أوصلني أخبرهم بأنني قبرصية. لم أبرح مكاني، وقفت أتأمل جمال المنطقة. في لارنكا كان يغيب عني التفكير بفتنة البحر، مع أنه يحاصرني أنى التفت، هنا صرت أعرف منه بنظراتي، توقعت أن تطفر دمعةٌ مكثفة الملوحة، لكنها لم تفعل. شعرت بدوخةٍ خفيفة، لم تكن بسبب التعب، بل من هول الفكرة

التي احتجبت عني في الساعات الماضية، وهزتني فجأة: أنت الآن واقفةٌ على أرض سورية. تذكرتُ أنني في المرات التي جربتُ فيها كلّ ما أتاحته التكنولوجيا من وسائط تأخذ حواسي الخمس في زياراتٍ افتراضية إلى سوريا، كنتُ جالسةً بقدمين مرفوعتين عن الأرض. توقفتُ عن التردد إلى ذلك الواقع الافتراضي لشعوري بعدم جدواه.

قاطع ذهولي صوتٌ أنثويٌ، يملك بحةً خفيفة، كأنه لفّ بورق قصدير، ألقى عليّ كلمات، فهمتُ أنها تُستخدم للترحيب، حفظتُ منها "مية السلامة". كان الصوت لامرأةٍ جميلةٍ، تبدو خارجةً من تلك اللوحات التي نشاهدها في معارض الثقاليد الشعبية، وتشبه بشكلٍ ما عجائز قرية قافلا، مع أنها ما تزال شابة. بألوانها الكثيرة وخضرة عينيها الشديدة حتى لتظنها امتداداً للجبال المحيطة التي تشبه جبال تروودوس. تابعتُ كلامها بتلك اللهجة الغريبة عليّ، وبرتمٍ سريع، لا يترك مجالاً لاستيعاب ما تقوله، حتى ذكّرها ابنها بأنني أجنبية، فأبطأت، وتحسن الوضع قليلاً.

رافقتها وهي تدلّني على الأماكن التي باستطاعتي الإقامة فيها، وتشرح لي كيف نجت شاليهاتهم من موجة الإزالة التي طالت كلّ الشاليهات المجاورة كُرمى لعيون المشاريع الضخمة. ابنها المسكين وضع حقائبي على عربةٍ مطلية بالأزرق الغامق، بدولابٍ واحدٍ ومقبضين لجرّها. لفتت نظري الأكواخ الخشبية الصغيرة، لكنها حذّرتني منها، لأن الطقس قد يغدو ماطرًا، وأسقفها تُسرّب الماء، قالت إن سماء اللاذقية تحتفظ بجنونها حتى في أيار. حذّرتني أيضًا من شاليه، لاحظتُ أنني اهتممتُ به، لأنه يبدو الأكثر إهمالاً. قالت: لم يسكنه أحد منذ خمسة عشر عامًا، حيث وقعت حادثة انتحارٍ لإحدى نزيلاته، ما جعل الناس يتجنبونه. أضحكني ذلك، وتعاطفتُ مع المكان بإصراري على الإقامة فيه. نظرتْ إليّ بريبةٍ، وراحت تجرّب المفاتيح المعلّقة داخل حلقةٍ معدنيةٍ صدئة، إلى أن فُتح الباب.

- أتصدقين؟ ما يزال على حاله مذ تلك الليلة المشؤومة. تستطيعين أن ترتاحي قليلًا، وتأكلي شيئًا في المطعم، ريثما أنظّفه، وأستبدل الملاءات.

لم تنتظر أن أعطي رأيي بالموضوع، شرعتْ تتفقّد المكان من غرفةٍ إلى أخرى، وهي تتابع حديثها:

- اسمي حنان، والشاب الذي رأيتِه هو ابني البكر سومر، على اسم سلفي الذي انقطعت أخباره منذ

أربعة عشر عامًا، لديّ فتاتان أصغر منه: سلمى على اسم جدتها الّتي ماتت قبل تسعة أعوام، وهي واقفةٌ تنتظر ابنها سومر - كما كلّ يوم - على مفرق الضّيعة، وسارة الوحيدة الّتي اخترتُ اسمها. لو رزقني الله بطفلةٍ ثالثة، سأسقيها "غيم" حتّى لو ظلّ زوجي رافضًا الاسم، يقول إنّه صعب ومضحك، ويجلب النّحس. إلاّ أنّ صاحبته كانت فاتنة.

شعرتُ بالإنهاك والرّغبة في الجلوس، اقتربتُ من كرسيّ موضوعٍ قرب باب الشّقّة، صرختُ بي:

- لا، لا، هذا الكرسيّ مكسور.

وسحبتُ الغطاء الأبيض المصفرّ عن الأريكة، تطايرتْ منه خمس عشرة سنة غبار. استغرقتْ نصاعة ذاكرتها وفطنتها الحاضرة.

دخلتُ المطبخ تتفقّد صنابير المياه والبزّاد وهي تتابع حديثها بصوتٍ أعلى، كي أسمعها.

- أتعلمين؟ أنتِ تشبهينها كثيرًا. أقصد تشبهين غيم. حين لمحتُكِ للوهلة الأولى، ظننتُها عادتْ، كاد قلبي يخرج من صدري، ويسبقني إلى ملاقاتها، لكن، عندما اقتربتُ منكِ، خاب أملي. لا تفهميني بشكلٍ خاطئ، أهلًا وسهلًا بكِ، لكنّني أحتفظُ بأمانةٍ تخصّها، لقد رحلتْ فجأةً، كنتُ أظنّ أنّنا نمتلك الوقت الكافي، وأنّ تلك الأيّام كانت ستستمرّ إلى الأبد.

لم أعِر الموضوع اهتمامًا، على الرّغم من أنّ اسم "غيم" أثار دهشتي بعض الشّيء. أدرتُ دفّة تركيزي نحو قضّة سلف حنان، فهذا ما أنا قادمةٌ من أجله، معرفة ما الّذي كان يحصل حقيقةً مع النّاس هنا. وثقة سببٌ أحاول إلهاء نفسي عن التّفكير فيه، وهو محاولة العثور على أحدٍ يدلّني عليّ، ويكون أمينًا على ذكرياتي، كما كانت حنان أمينةً طيلة تلك الأعوام على شيءٍ يخصّ المدعوّة غيم.

فتك التعب بي، استأذنتها، وطلبت أن ترشدني إلى المطعم. نادت ابنها سومر، كي يصحبني. لاحظت أن سومر يتكلّم بطريقةٍ مختلفةٍ عن أمه إلى حدٍّ كبير. المطعم امتداد للشاليهات: قاعة كبيرة نسبيًا، لكنها أصغر من غرفة سفرة بيت ماما ساتي. مؤثث بأربع طاولات خشبية مستطيلة الشكل وكراسٍ بلاستيكية ملونة بالبنفسجي والأصفر، موضوعة بشكل متداخل فوق بعضها البعض في صفٍّ طويلٍ محاذٍ للجدار. يوجد بابٌ مفتوحٌ على المطبخ، لذا وصلتني رائحة الطعام، مدغدغةً جوعي النائم. فهمت من سومر أن عائلتهم تعمل في المطعم أيضًا، وأن أمه حضرت اليوم البيرق. طلبت طبقًا وقارورة مياه. استغرب سومر حين أخبرته بأننا نحضّر هذه الأكلة أيضًا، إلا أن لها اسمًا مختلفًا "Κουπέπια/ كوبيبيا". التهمت لفافات ورق العنب وأنا أحاول اكتشاف السرّ الذي جعلني أشعر بأنني أتعرّف على الكوبيبيا لأوّل مرّة، لشدّة ما هي شهيّة ومختلفة النكهة.

راقبت امرأةً على الشاطئ تلبس البكيني، وتلهو مع طفلٍ صغيرٍ، يبدو في الثانية من عمره، سمعتها تضحك، وتقول له "تقبرني". أعرفها هذه الكلمة، سألت عنها مستر علي قبل سنوات طويلة، اجتهد وهو يشرح لي كيف يمكن أن تصير كلمة بهذه القسوة من أبلغ أساليب التحبّب، وضرب لي مثالًا آخر هو تعبير "يموت فيك". ضبطت نفسي مدهوشةً من وجود البكيني هنا، مع أنه المكان الطبيعي له، ومع أنني رأيت نساء سوريات تلبسنه في الصور والأفلام، وعلى شواطئ لارنكا. أزعجني ذلك: أن آتي محفلةً بأفكارٍ مشوّهة، لم تستطع كلّ متابعاتي تقويمها.

في لارنكا، تعلّمت السباحة كردّ فعلٍ على تلك المحادثة التي سمعت فيها ماما ساتي تعتذر من صديقاتها عن عدم الذهاب معهن في إحدى نزهات اليخوت التي كنّ يقمن بها في أيام الفطر، وتخبرهن بأنني أكره البحر، بسبب الحادث. خضعت لدورات،

وصرتُ سباحة ماهرة، المدرب اقترح علي الاحتراف، لكنني رفضت. لا أعرف إن كنت أكره البحر أم أحبه، لكنني كنت أتهزب من المشاوير الجماعية مع أصدقائي إلى شاطئ ماكنزي. في حقيقة الأمر، ليس لدي أصدقاء بالمعنى الدقيق للكلمة، كنت أسقيهم كذلك، لكنهم كانوا معارف، يتبدلون باستمرار، وبسرعةٍ بالغة، إن جففنا الشرير. اكتشفتُ أنني أشتاق إلى تفاصيل كثيرة أحبها في قبرص، إلى ماما ساتي وأحاديثنا المسائية، إلى المشي بمحاذاة الماء في الممشى السفلي من بياله باشا، حيث أحس بأنني أسير على حافة الغرق، وأكمل مسيرة التحدي، كنت أستمتع بابتكار طُرقٍ جديدة لقهر البحر، أشتاق إلى الفسحات الشتوية في بحيرة الملح، حين كانت تزورها طيور الفلامنجو، ربما ما تزال تفعل، لم أعد أسأل. كنت أقلدها، أفتح ذراعي على امتدادهما، وأقف على رجلٍ واحدة، ذات الزكبة السليمة، وأحاول الطيران. توقفتُ عن ذلك قبل سنوات طويلة مذ رأيت أحدها يتفق، لا يخبرون الأطفال بأن الطيور الوردية تموت، يتركونهم يكتشفون ذلك بأنفسهم، ما تزال تزور نومي جيفة الطائر مغمسةً بالملح، وحولها نوارس تزعق، أكره النوارس. أشتاق أيضًا عبور الممز الخشبي في لارنكا مارينا فجرًا، محاطةً بالمراكب النائمة قرب بعضها البعض مثل أطفال عائلةٍ كبيرة، كنت أشتهي حلّ الحبال الثخينة التي تربطها بالممز، ودفعها بعيدًا، كنت أشتهي وهبها حياةً جديدة، كما حصل معي. الأرضية تصرّ تحت قدمي، وفي أذني سقاعات تدور فيها موسيقى الريبيتيكو القديمة، محاولةً دفع الحنين إلى أقصاه، قرأتُ أنها "موسيقى الآخر الذي فينا(*******)" هذا الآخر الذي أوذ بشدةٍ العثور عليه، ولو داخل أغنيةٍ، ترمي بي على الضفة الأخرى، كانت موسيقى لاجئين في زمانٍ بعيد، "لاجئ" هذه المفردة التي كانت لتظهر كلطخةٍ فاقعة، كلّما نادوا اسمي، لو لم تغرق مع مركبٍ لم ينم بعد. أفتقد دروس التمثيل، في المدرسة اكتشفتُ معلّمة المسرح موهبتي، صارت تدربني، وتعطيني أدوار البطولة في

المسرحيات المدرسية. أحببت التمثيل حقًا، لا أعرف لماذا، فأنا عمومًا أميل إلى الابتعاد عن الناس حتى لو كنت محاطةً بهم، ربما لأنني في التمثيل أستطيع أن أكون آخرين، وقد تضعني الصدفة وجهًا لوجه /أو وجهًا داخل وجه/ مع أناي الثانية. كنت في السابعة عشرة حين عرضت ماما ساتي عليّ السفر إلى لندن، من أجل دراستي الجامعية، لندن الحلم الدائم أبدًا في حياة شباب قبرص. رفضت، لم أرد أن يشغلني شيء عن خططي المستقبلية التي حظت رحالها في سوريا، تسجلت في دروس التمثيل والدراما في كلّية ألكسندر- جامعة غرب إنكلترا في لارنكا، وأنهيت صفوفي العام الفائت، بالتوازي تسجلت في دروس إدارة الأعمال في الجامعة ذاتها بناء على اقتراح ماما ساتي، كي أصير قادرةً على تولّي أعمالها لاحقًا. قبل شهرين، سافرت إلى باريس تاركةً صفوف إدارة الأعمال معلّقة إلى حين الانتهاء من سنة ماجستير الكتابة الإبداعية في جامعة كينت. لم أحب باريس بعد، باردة وقاسية على بعض الشيء، الناس وجدتهم مخيفين حتى الآن، قضيت الفترة الماضية متنقلةً بين دروس تقوية اللغة، وقراءاتي وأبحاثي الدائمة عن سوريا، والمشي الكثير. صحيح أحببت المشي في باريس. ترددت مرات عدة إلى معهد العالم العربي، حضرت أمسية موسيقية لعازف عود عراقي، أحببت موسيقاه كثيرًا، دفعتني إلى البكاء، وأنا لست بكّاءة عادةً، ومعتادةً على سماع البزق الحزين في صباحات لارنكا، حضرت معرض لوحات لفنانة أرمنية سورية، أعجبني عالمها الغرائبي البعيد عن حتى الفنّ الرّقمي، شعرت بالألفة داخل لوحاتها، وكأن الفنانة خلطت ريشتها بألوان سالت من حياتي حين نشلوها من البحر، وما كلّ تلك اللوحات إلاّ محاكاة فنية لكلّ ما أبذله في سبيل استرداد تلك الحياة. حضرت أمسيات شعرية لم أحبها، فتوقفت عن متابعة النشاطات.

قاطع شرودي قدوم حنان، وهي تشرح لي أن الشاليه صار جاهزًا، ويلمع، نعم، قالت: يلمع، استعارة تصف فيها

شدة النظافة. لاحظتُ أن حنان تستعمل الاستعارات بكثرة، وبعفوية بالغة، كما لو كانت روائية لاتينية، وُلِدَت في أربعينيات القرن الماضي.

****

الشاليه كبيرٌ علي، فعليًا لم أحتج سوى غرفةٍ واحدة، فرزتُ ثيابي على سريرٍ في الغرفة الوسطى، وغبتُ في نوم عميق على سرير الغرفة الداخلية. حين استيقظتُ، رفعت نظري كما كلّ يوم، كي أطمئن إلى خارطة سوريا المعلّقة فوق سريري في لارنكا، لم أجدها، جفلتُ، استغرق الأمر ما ظننته ساعاتٍ وهو ثوانٍ، كي أستوعب أنني الآن في الخارطة. داخل الحدود السوريّة للخارطة، المناطق ملوّنةٌ بالزهر الفاتح، بما فيها الجولان والشمال السوري متضمنًا لواء اسكندرون. ماما ساتي تقول إنّني أصررتُ على هذه، ورفضتُ كلّ النسخ التي تبدو فيها سوريا أصغر. ماما ساتي تقول إنّني كنتُ خائفةً من أن أعلّق فوق رأسي خارطةً، أكلوا منها مسقط رأسي. في الخارطة، تبدو سوريا تحضن لبنان الملون بالبيج، بعد رحيل مستر علي، رسمتُ قلبًا صغيرًا داخل لبنان، يا لتلك البنوءة!

استغربتُ وجود مجموعة كتبٍ أدبية على الرفّ السفلي لطاولة الصالة التي يشغل الرفّ العلوي منها تلفازٌ بصندوق كبير الحجم، رأيتُ مثله مرّةً في بيت امرأةٍ مسنّةٍ في ڤاقلا، لكن، هناك كان مغطى بمفرش من التول المكشكش، وفوقه آنية بورسلين، ترتفع من عنقها الضيق ضمّةُ أزهار بزيّة. اخترتُ كتابًا، عنوانه "سوف تحيا من بعدي" لشاعرٍ اسمه "بسام حجار". أعلى أول صفحة خطّ إهداء بحبرٍ أزرق "إلى غيم، لأنك تحبينه ..أنس". أحببتُ الكتاب كثيرًا، بشكلٍ خاص، أحببتُ القصائد المكتوبة عن "مروى" ابنة الشاعر. هي مكتوبةٌ في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، قد تكون مروى بعمر أمي الحقيقية، لكنّها ما تزال تلعب هنا داخل الكتاب. أوجعتني كلّ تلك الرقّة، دفعتني إلى تحسس موضع الفقد في تلك البقعة من

قلبي، البقعة الشاغرة، لا والدَ يطلّ منها كي يقبّل جبيني قبل النوم. هو يصلح أيضًا كي يكون أبي، فأنا وريثة عزلةٍ هائلة. عثرتُ في الكتاب على منبع الحزن الّذي كانت تفيض به حياتي في لارنكا:

"كانت تقف بلا انتباه

ولا تدري إذا كانت تحزن

فقط

لأنّ البحر كان هناك

في كلّ اتجاه"

القصيدة موقّعة في ليماسول، المدينة التي تبعد عن بيتي ساعة أو أقلّ، - حتى عثوري على الكتاب - كانت مشاعري حياديّة تجاهها. الشاعر وأبي مثلا المشهد ذاته في زمنين مختلفين، أحدهما وضع القصيدة، والآخر ابنته داخل قنّينة، ورماها في المتوسط، وصلنا أخيرًا، تعانقنا، وكلتانا تخفي تحت جلدها نثار الزجاج المكسّر. قرأتُ الكتاب دفعةً واحدة، الكتاب الّذي مسح السمعة السيئة للشعر العربي الّتي سببتها أمسيات باريس، وحزّ في نهمًا كبيرًا لقراءة الشعر، تناولتُ كتاب محمود درويش "كزهر اللوز أو أبعد"، قرأتُ لهذا الشاعر سابقًا، آخر مدرّس للعربية كان فلسطينيًا، وحدّثني عن درويش مطوّلًا. وجدتُ أوّل صفحةٍ ممهورةً بتوقيع الشاعر. استغربتُ أن يترك أحدٌ وراءه كتابًا، يحمل ذكرى بهذه الأهمية. قبل اليوم كان شاعري المفضّل على الإطلاق هو القبرصي "كوستاس مونتِس"، مذ قرأتُ قصيدةً من كتاب " في خوف الزجل"، القصيدة الّتي شدّتني من قلبي نحو سوريا:

"فقط لو كان قلبنا مثل بالونات

طفولتنا القديمة، تلك المملوءة

بالهيليوم

التي لا نستطيع أبدًا لجمها

التي تبحثُ دائمًا عن فرصةٍ

لتطير عاليًا نحو السقف
الّتي قد تدفعُ السقف محاولةَ الهرب
وفقط إذا - يومًا ما صدفةً، فلتنا الخيط
نستطيع حينها رؤية البالون يختفي فوق السطح،
نراه يصعد السماء
من دون الاهتمام بأن ماما قد لا تواسينا بعد اليوم
بوعد أنّها ستشتري لنا واحدًا آخرا!"

****

- هذه الكُتب بقيتْ مكانها بعد أن رحلَت غيم. كان من النّادر رؤيتها تفعل شيئًا آخر عدا القراءة والكتابة. قالت لي مرّةً: "حين أقرأ كتابًا جيّدًا أشعر بحاجةٍ لأن يقرأه العالم كلّه" حافظتُ على الكُتب، كلّ فترةٍ أنفض الغبار عنها. حين أستعير أحدها كي أطالعه، أحرص على إعادته مكانه.

قالت حنان وهي تسحب كرسيًا من تحت شمسية القش المجاورة، جزئه على الزمل راسمةً خطّين، جعلتا الشمسيتين تبدوان مربوطتين ببعضهما البعض. جلستْ قربي، من دون أن أدعوها. مطّتْ رقبتها البيضاء الطويلة كي ترى العنوان، وتابعت:

- لم أقرأ هذا الكتاب، لا أفهم الشِّعر، ولا يُمتعني. أمّا الرّوايات، فأعدتُ قراءتها مرّاتٍ كثيرة، حتّى حفظتُها. بإمكانكِ فقط أن تقولي لي رَقْم الصّفحة، وأنا أتكفّل بقصّ كلّ ما يجري داخلها.

تحلّيتُ باللباقة، ولم أظهر عدم تصديقي لها. لاحقًا اكتشفتُ أنّها لم تبالغ أبدًا. غيرتُ الموضوع، وسألتُها عن

سبب اختلاف لهجتها عن لهجة سومر. ضحكت كثيرًا وهي تخبرني بأن أصلها من مدينة مارع في ريف حلب الشمالي، وعاشت حياتها كلّها في حلب المدينة، لذا هي تتكلّم الحلبية مطعّمةً بقاف مارعية، تسلّلت إليها من والديها. بينما زوجها من وادي قنديل، قالت:

- أنا وأبو سومر نتكلّم لهجتين مختلفتين كلّيًا، لكن، تملكان القاف ذاتها.

وصارت تضحك. لم تذكر اسمه أبدًا، دائمًا تقول عنه "أبو سومر" حتى لتظنّه لم يكن موجودًا قبل أن يُولَد سومر. أخبرتني قصة نزوحها مع أهلها عام ٢٠١٣:

- لم تكن فكرة تَرْك حلب قائمة، كنّا نسكن في شارع للعشوائيات تابع لحيّ "صلاح الدين"، والدي كان يعمل إسكافيًا، تحسّن عمله آخر فترة هناك، فكما تعلمين لا أحد يلبس أحذيةً جديدة في طريق الموت. أبي كان مسالمًا، شعاره "الحيط الحيط، ويا ربّ السترة"، لم يشارك في مظاهرات يوم الجمعة، كان كلّ خميس يرجع إلى البيت، ويبيده كيس كبير من بذور ميّال الشمس المحفصة، كي تؤنس يوم الجمعة الطويل، الّذي يطلب فيه منّا ملازمة غرفنا. حين أتينا إلى هنا، صرتُ أراقب أقراص دوّار الشمس الصفراء الجميلة كيف تميل نحو الشمس، وأتذكّر كيف كنّا نُفصفص بذورها في العتمة. قرار تَرْك حلب أخذه والدي إثر ما تعرّض له حين أُصيب أخي طلال بالتهاب حادّ في الزائدة الدودية، وكادت أن تنفجر، حينها كان الحيّ قد أصبح بكامله تحت سيطرة المجموعات المسلّحة، مثل سائر الجزء الشرقي من المدينة التي انقسمت. حصل ذلك في يوم جمعة، لم يجد أبي سيّارةً تقبل أن تقلّهما، حمل طلال، وركض به قاصدًا مستشفى المستقبل في حيّ الحمدانية القريب، والّذي كان تحت سيطرة النّظام (كان حينا

محسوبًا على الأحياء الشرقيَّة، لكنَّ الأحياء الغربيَّة أقرب إليه، تستطيعين القول كان خطّ تماس). قال أبي: هناك أمان أكثر فلا قذائف تنزل، ولا طيران يقصف. ظنَّ أنهم سيسمحون له بالمرور، احترامًا لسنّه ولحالة الصبي، قال: في النهاية كلّهم ولاد البلد. طبعًا لم يحصل هذا، بل العكس، تعرَّض لإهانات من قبل حواجز المسلّحين ومن قبل حواجز النظام، وعاد به إلى مستشفى حيّ السكّري. أدركوه في آخر لحظة، قالوا لو تأخّر أكثر لمات الصبي. سمعتُ أن هذا المستشفى تهدّم لاحقًا. بعد أيّام قليلة وفي أثناء تماثل طلال للشفاء، حزمنا أشياء قليلة وخرجنا.

حكتْ لي أيضًا عن حياتهم في وادي قنديل، وكيف استقرّتْ هنا، لأنها تزوّجت، بينما أهلها تفرّقوا لاحقًا داخل البلد وخارجه. استوقفني أمرٌ غريبٌ أشارتْ إليه: لم يكن مألوفًا في تلك الفترة زواجٌ من هذا النوع، المختلط، إلاّ أنّ الفقر يلغي هذه الاختلافات، ويجعل الناس ينتمون إلى طائفة واحدة، طائفة الفقراء.

موضوع الطوائف ليس جديدًا عليّ، كلّ ما يتعلّق بالحرب السوريّة يدور في فلكه، أقلّيّات وأكثريّات، جرائم مرتكبة بحقّ الطرفين، من قبل الطرفين. "الديموغرافيا" كلمة مفتاحيّة لتلك الحرب. إلى الآن أجد الموضوع شائكًا وملتبسًا عليّ. لم تصحبني ماما ساتي إلى حضور صلوات في الكنيسة، لم نناقش موضوع الأديان والطوائف. زرتُ الكنائس والجوامع في قبرص واسطنبول وأثينا وباريس وفيينا وبراتيسلافا، كان جلّ ما أراه فيها صروحًا، تُعجبني باحاتها، قبابها، أقواسها، أعمدتها المزخرفة، رسومها الجداريّة، سجّادها الثمين المحوك بعناية، وزجاجها المعشّق. الرهبة التي كنتُ أشعر بها آتية من العظمة المعماريّة للبناء، وبهاء الفنّ المشغول فيه، لم تعبر بالي أمورٌ روحيّة أبدًا. حين زرنا "آيا صوفيا" في اسطنبول، قالت ماما ساتي: الكنيسة

والجامع داخل متحف، العالم بحاجة لتعميم هذه الفكرة.
أحببت الجملة. الغريب في ماما ساتي أنها تزور تركيا، لكنها ترفض زيارة قبرص التركية، وتقول إنها محتلة! لعائلة ماما أملاك مصادرة هناك، لذلك يوجد حقد قديم.
أنا زرتها مرات قليلة، كنت أطلب من رفاقي أن نترك السيارات في نيقوسيا، ونتجاوز معبر ليدرا مشيًا على الأقدام. زرتها فقط رغبةً بسير هذه الخطوات بين الفسحين، كنت أشعر بأنني أضيف مع كلّ خطوة غرزةً في طريق رتق العاصمة. لا أعرف لماذا يعنيني ذلك، لكنني كنت أفعله بحب. عكس ماما ساتي التي أحبت التنقّل بين النمسا وسلوفاكيا، بواسطة كبسولات الـ"هايبرلوب"، كانت تقول "الطريق بين دولتين صار يحتاج وقتًا أقصر من أخذ دوش"، وتجد ذلك عظيمًا. قلتُ لها "لولا ركبتي المعطوبة، لقطعت العالم مشيًا داعسةً على الحدود".
تقريبًا كلّ مراسم الزواج التي حضرتُها كانت هندية، عدا إكليلين. لم تُعجبني أصوات المرتلين، الشيء الوحيد الذي أحببته بألفة هو رائحة البخور. شعرتُ بأنها تخرج من شقوق في ذاكرتي الفريدة. في فاغلا كنا نسير أنا وماما ساتي حوالى ساعة حتى نصل كنيسة "سيدة الحُب"، كنا نمشي ساعةً، كي نزور هذا الاسم البديع لكنيسة، تعمل مرةً في السنة. فاغلا قرية قريبة من لارنكا، في تلال جبال ترودوس، ماما ساتي أحبتها منذ صغرها حين كان جدها كاهنًا لكنيسة سان جورج فيها، قبل أن ينتقل إلى كنيسة القديس لازاروس، بعد أن صرتْ ابنة ماما ساتي اشترت منزلًا فيها لقضاء الفظل، من الحجر الأبيض بسقف قرميدي ككلّ بيوت القرية التي عدد سكانها ربما أقلّ من عدد أفراد عائلة حنان. أظنه اليوم لا يتجاوز خمسةً وعشرين شخصًا، معظمهم مسنون. كنتُ أعتقد أن ترفّي قدوم الأيام التي نمضيها في فاغلا مرتبط ببساطة طبيعتها الأصيلة، صيفها اللطيف، المشي في شوارعها الحجرية الضيقة، الاتكاء عصرًا على الجدران الحجرية لكنيسة "سيدة الحُب" الصغيرة، مطلّةً على الجبال التي تشبه جبال اللاذقية

المحيطة بي الآن، الشهرات الشتوية أمام الشامينيه، نحزّ الحطب، نقشر حبات الكستناء، نشوي الحلّوم، نشرب النبيذ، وندير أغنية للأميركية نينا سيمون، أو اليونانية Marinella من أجل ماما ساتي، وللمصرية أم كلثوم، أو السوري صباح فخري، من أجلي، كنتُ أترجم لماما الكلمات أحيانًا. الآن أفكّر بوجود سببٍ مختلفٍ عن ذلك كلّه، وهو أهل قاقلا الّذين يشبهون الأجداد والجذات في سوريا، لا أستطيع تفسير الأمر، يتعلّق بالعادات والأشكال والبساطة، لكنها أمورٌ صعبة الإدراك بالنسبة لي، الأمر بعمقه مرتبطٌ بالزائحة، رائحة الطفولة التي تظلّ تلهو بكُرة صوفٍ تدحرجت من حكاية الجدّة بعد أن خلعتْ طقم أسنانها، وغفتْ. معايشتي للمشاكل الطائفية مقتصرة على تمذهب الإسلاموفوبيا كبقعة زيتٍ على فستان العالم، وذلك يجرحني شخصيًا، أتذكّر ماما ساتي حين قالتْ للخالة لورا "وماذا لو كانت الفتاة مسلمة؟" وأفكّر: ماذا لو كنتُ مسلمة؟، وعلى قدوم الخالة لورا إلى منزلنا تبكي حبيبها الّذي هجرها لأنها أرثوذكسية، وعليه أن يتزوّج فتاةً تنتمي إلى أقلّيته المارونية. كنتُ أرى ذلك غريبًا، لا يعني الحبّ لي شيئًا، أجده مبزرًا ساذجًا للجنس، ما حاجتنا إليه طالما نستطيع ممارسة الجنس بخزية معه، ومن دونه؟ هو بشكلٍ ما نوعٌ من الكذب. لا أفهم كيف يمكن أن يتعذّب أحدٌ بسبب الحبّ، إن افترضنا وجوده، فإنّ ذلك يكون لجعل الناس أكثر سعادةً، أمّا أن يسبب ألمًا، فهذا غير منطقيٍ. ثمّ إنّ المرء لا يستطيع أن يدّعي الخزية، وفي الوقت نفسه، يقع في الحبّ، الخزية دائمًا طريقها نحو الأعلى. هكذا كنتُ أفكّر قبل أنس رحيم.

- هل تزوّجتَ عن حُبّ؟
  سألتْ حنان.

- بالتأكيد لا، يا آنسة ثريّا، تزوّجتُ كي أبقى هنا. كنتُ في الثالثة عشرة من عمري حين تركنا حلب، وأتينا إلى اللاذقية. نحن نتحدّر من ريفٍ محافظٍ، لا

يعترف بهذه الكلمة (حُبّ). بالطبع كثير من علاقات الحُبّ كانت تحصل في السّرّ في الزواريب المعتمة، وفي حدائق الأحياء البعيدة. الحُبّ في حلب دائمًا يبتكر طريقةً كي يحصل، مثل الحياة. هذا ما حدثَ مع أختي الكبرى سندس، أحبّتْ ابن عمّي معتزّ حين سكنَ وأهله فترةً في بيتنا أواخر٢٠١١ إبّان نزوحهم من مارع. بيتنا كان صغيرًا جدًّا، لكن أبي أصرّ على توسيع صدر البيت لابن عمّه وعائلته، من المعيب في عُرفنا القرويّ أن نترك قريبنا بلا مأوى، أو نسمح له بالدفع مقابل مسكن، في حين أن بيتنا موجود.

أطلقتْ ضحكةً طويلةً، ورأيتُ دمعةً على وشك الخروج من عينها. كانت تلك المرة الوحيدة التي أراها فيها تدمع وهي تضحك بهذا الشكل الوقيع الغريب عنها. دومًا كنتُ أتخيل النسوة اللواتي يشبهنَ حنان يضحكنَ واضعاتٍ أيديهنّ على أفواههنّ، كما لو أنهن يحرسنَ الضحك، أو يقمنَ بوأده. الدمعة تلاشتْ من دون أن تتركَ خطًا يدلّ عليها. فكّرتُ أن الغدد الدمعية تعمل بشكلٍ عكسي داخل عينَي حنان، لذا اخضرتا بهذا الشكل.

- لم يكن بيتًا بمعنى الكلمة، تستطيعين القول بضعةُ جدران من مداميك إسمنتية، بعضها ظلّ بلا طلاء، وبعضها بلا طينة حتى يوم مغادرتنا، تغطيها أسقفٌ من التوتياء، تبدو كقبعاتٍ، ستخلعها الغُرف الثلاث بعد قليل، ومرحاض عربي، ومطبخ في داخله استحدثنا دوشًا قبل أن نغادر بسنتين، قبلها كانت أمي تعبئ الماء داخل حلّةٍ ضخمة من الألمنيوم، تسخّنه على بابور الكاز، وتدلق المياه على رؤوسنا بالطاسة. الغُرف موزّعة بشكل غير منتظم حول فسحة صغيرة، لكنّها تتسع لتشميس صواني قرون الفليفلة المقطّعة، ومِيَة الإفرنجي (ربّ البندورة)، ومربّى المشمش المغطّى بالشاش، كنّا نتسابق أنا

وسندس إلى تحريك مئة الإفرنجي بالشمشايه (ملعقة كبيرة). كنت أحب التنقل بين تلك الدوائر الحمراء، وكأنني أمشي داخل تنورة إحدى فتيات العزيزية صبيحة يوم أحد. الفسحة تفضي إلى زقاق ضيق مروزا بباب معدني كبير خمري اللون. قبل أن نغادر، حفرت عليه بالمفتاح جملة مقلّدة فيها تلك التي كنت أراها مخطوطة على لافتات نحاسية معلّقة فوق الأفاريز المزخرفة لأبواب القيلات الفاخرة في حي الموغامبو /منزل الحاج أحمد النعمة/. ظننت أن هذه الجملة ستحرس البيت في غيابنا.

أطلقت ضحكة أكبر من السابقة، من دون دمعة هذه المرة، ثم تابعت:

- جد معتز يكون ابن عم جدي، ولكننا نعتبر والد معتز عمنا. كنت أتستر على علاقة سندس بمعتز، صغر سني أتاح لي أن أعمل مرسال غرام بينهما، من دون أن أثير شكوك الآخرين، كنت أرافق سندس حين تذهب لملاقاة معتز في الحديقة العامة، أو حديقة السبيل. في صلاح الدين توجد حديقة، لكن رصانة تلك الأحياء لا تسمح لقصص الحب أن تزيح الخمار عن وجهها، وتشمّ الهواء فيها، سمعت أن حديقة صلاح الدين صارت لاحقًا مقبرة لأبنائه الذين لعبوا فيها. كنت أترك سندس ومعتز جالسين على أحد المقاعد، وأروح لأمشط الممرات، وأطلق الأسماء على الأشجار، ثم أدعي الخلط بينها، فأنادي شجرة الكباد بالاسم الذي أطلقته على شجرة السرو الكبيرة "نادية"، مقلّدة أمي. كنت أبتعد عن ألعاب الأطفال، وعن أقفاص الحيوانات. آه، لا، فقط أرمي حبات الفستق للقرد سعيد، مرة سألت معتز هل سعيد هو صاحب حديقة السبيل؟ كاد يغمى عليه من الضّحك.

كنتُ أحبّ مراقبة المسنّين، دومًا يبدون ساهمين، ينتظرون شيئًا قادمًا من بعيد، قد يكون الموت، مزّةً رأيته يمسك يد امرأة، ويسندها وهي تخرج من باب محطّة بغداد، أخبرتُ سندس بذلك، قلتُ لها اليوم كان الموت يتجوّل في الحديقة، قالت لي: كيف لكِ أن تخلطي بين الحبّ والموت؟ مزّةً رأيتُ عجوزًا يضع ربطة عنق، ويلبس بدلةً مكويةً بشدّة، بإمكانه أن يقطّع تفّاحةً بكسرة البنطال، فكّرتُ بأن هذا الرجل يعرف كلّ شيء، سألته عن نوع إحدى الأشجار، قال لي "مانوليا". ظننتُ أنّه يفعل مثلي، ويطلق الأسماء على الأشجار، قلتُ سأكتب قصّةً، وسأسمّي بطلتها مانوليا، سأدعها تلبس ثوبًا ورديًا، سيكون لها جدّ، يعرف كلّ شيء، ويضع ربطة عنقٍ جديدة كلّ صباح، كي يصحبها إلى الحديقة. دلّني العجوز على أحد أحواض المياه، وقال لي إنّ مياهه ترقص مساءً، ظننتُه يمزح، لكنّني بدّلتُ أحداث القصّة في رأسي، وقلتُ سيضع جدّها ربطة عنقٍ جديدة كلّ مساء، كي يصحبها إلى الحديقة. لطالما تمنّيتُ رؤية تلك النّيونات الخضراء المعلّقة على جذوع الأشجار كيف تبدو مساءً. لن أدع المياه ترقص داخل القصّة، بل مانوليا، وسيصفّق لها جدّها والحبّ والموت.

لحنان طريقتُها في الجلوس مباعدةً بين قدميها، ولافةً تنّورتها الواسعة بيدها اليسرى بين ركبتيها، يدها اليمنى تنحت في الهواء أشكالًا للحدّث الّذي ترويه. وضعتْ يدها على صدرها في أثناء عبور ذكرى محبّبة في بالها، وكأنّها تربّت عليها برفقٍ، قبل أن تُخرجها لي:

- ظهيرة يوم أحد من شهر تموز، صعدنا الدّرج، وغادرنا الحديقة العامّة من باب العزيزيّة، تمشّينا في حي العزيزيّة وصولًا إلى السّليمانية، هناك رأينا

الناس في الشوارع يمسكون خراطيم مياه ويرشون بعضهم البعض، آخرون يدلقون السطول من البلاكين على المارّة، الأولاد يتراشقون ببالونات مملوءة بالماء، ويصوّبون نحونا مسدّسات محشوّة بالماء. كان الكلّ مبلّلا، ويضحك، لم أرَ مثل ذلك المشهد في حياتي، صدّقتُ حينها أن الماء يرقص. فكّرتُ بالمتقاتلين، لو أنّهم يستبدلون بالرّصاص ماء، ويتحاربون إلى الأبد. عرفتُ لاحقًا أن ما شاهدته كان عيدًا يحتفل به مسيحيّو حلب، اسمه الرّشيشة. هنا في وادي قنديل، صرتُ أرى الناس يلعبون بالماء كلّ الوقت، لكنّ وجوههم لا ترتدي ابتسامات العيد.

- في لارنكا، لدينا احتفال مشابه (كاتاكليموس/ مهرجان الفيضان) في اثنين العنصرة الأرثوذكسي. لكن موعده قبل تفوز، تاريخه يتغيّر، لأنه مرتبط بعيد الفصح، عمومًا بين شهري أيّار وحزيران. يذهب الناس إلى الشّواطئ، ويتراشقون بالماء بتلك الطّريقة التي رأيتها في حلب، بالإضافة إلى سباقات للقوارب والسّباحة، والغناء والرقصات الشعبية. سكّان الجزيرة والسيّاح يحبّون هذا المهرجان، عكسي، كان يصيبني بالشّعال الشّديد، وكأنهم يدلقون كلّ ذلك الماء في حلقي.
- لماذا، يا آنسة ثريّا؟
- حديث طويل، أخبرك به يومًا. هل تزوّجا؟ أقصد سندس ومعتزّ.
- أوف، لا. قبل أن نترك حلب، تزوّجت سندس من نزار ابن عفتي جميلة، وبقيت في "صلاح الدّين" فترةً قصيرة، ثمّ انتقلا إلى غازي عنتاب في تركيّا. معتزّ كان يشارك في مظاهرات يوم الجمعة، لستُ متأكّدةً

من ذلك، لكن، أعلم بأنه كان يؤلّف لسندس أغنيات حبّ مقتضبة، وللمظاهرات هتافاتٍ موزونة. مرّةً خرج، ولم يعد. حاول والده أن يسأل عنه، أتته أخبارٌ متضاربة، البعض قال إنّه معتقلٌ لدى الأمن، البعض الآخر قال إنّه عاد إلى مارع، وصار مقاتلًا هناك، آخرون أكّدوا أنّ جثّته قد شجلّت. في البداية، رفضت سندس الزّواج، لكنّها لم تملك حجّةً مقنعةً تواجه بها والدي، لا تستطيع إخبار أحدٍ بأنّها تنتظر معتزّ. وحدي كنتُ أسمع أنينها المكتوم في الليل. أظنّها استسلمت للزّواج، كي لا تترك "صلاح الدّين"، وتأتي معنا إلى هنا، هناك قد ترى معتزّ يومًا. لم تتوقّع أن تغادر سوريا إلى الأبد.

****

في أيّام وادي قنديل، لم أكن بحاجةٍ إلى طرح أسئلةٍ كثيرةٍ على حنان، كي تسرد لي تاريخها، بينما - مثل عجائز الحديقة - تنظر إلى مكانٍ ما في البعيد، وكأنّها تشعل في عينيها إشارةً خضراء، تسمح بمرور ذكرياتٍ كانت واقفةً تنتظر منذ زمنٍ طويل. وكان هذا من حسن حظّي، حنان كنزٌ ثمين، هي تمثّل ما أحتاجه تمامًا: ذاكرة بلدٍ ناطقة. ذاكرة ليس في وسعك الشك بصدقها.

سومر أخبرها بأنّني أعرف اليبرق، لذا صارت تحضّر مأكولاتٍ حلبيّة صرفة، وتتمعّن في وجهي، لترى كيف سيصير بعد تذوّق أوّل لقمة، كنتُ أحسّ بأنّها تشعر برضىً بالغٍ لوقوعي في غرام طبخاتها: الشفاقية، الشفرجلية، الأرمان، اللحمة بكرز، العجّور المحشو بالفريكة.

في المساءات أيضًا تزورني، وحدها أو برفقة ابنتيها. نشرب الشاي على شرفة الشاليه، أو نتمشّى، من دون أن نتوقّف عن الكلام الّذي ينبع من بحّة صوتها، كي يصبّ في ذاكرتي الخاوية.

- لكنني رأيته فعلًا، رأيت الموت في معبر بستان القصر.

قالت حنان، محدثةً شروخًا في السكون المهيب الذي يلفنا، ثم صمتت قليلًا، ربما كانت تُعيد ترتيب الكلمات، أو تمسح عنها بقايا الذم العالقة، وأكملت:

- في أول مرّة عبرتُه بها، لم أكن أعرف بعد أنهم قسموا المدينة، وتغيّر الدّرب الّذي نسلكه نحو الحديقة العامة. ركبنا السرفيس، لم يكن موجودًا سابقًا، استحدثوا خطّه تبعًا لمعطيات الجغرافيا الجديدة، وصلنا بعد عشرين دقيقةٍ تقريبًا، أو ربّما نصف ساعة، كان معتزّ بانتظارنا، مشينا نحو إشارات مرور حيّ بستان القصر، قال معتزّ: الآن بدأنا نصبح مكشوفين للقنّاص، لكن، لا خطر بعد. مشينا قرابة الرّبع ساعة حتّى وصلنا مستودع السّكّر، معتزّ قال: خلّونا نروح من جوّات المستودع أأمن. لم أفهم حينها ممّ يخافون، فالنّاس كانوا مثلما يكون الناس عادةً في الشارع: أناسًا في الشارع. كلمة "سكّر" جعلتني أتخيّل وجود قصرٍ من الحلوى خلف الباب، لم يكن كذلك، حتّى السّاحرة الشّريرة هربت من هناك. داخل المستودع توجد حواجز تفتيش، تابعة للجيش الحرّ، أنا وسندس فتّشتنا امرأة، أوّل مرّة يفتّشني أحد، سألت سندس: ماذا يمكن أن أخفي داخل ثيابي؟ قالت: ربّما "فزوجة". ظننتها تمزح. لاحقًا سمعت قصّةً عن ولدٍ قُتِلَ للسّبب ذاته حين حاصرت المجموعات المسلّحة القسم الغربي من المدينة. وصلنا الجهة الثّانية للمستودع، لم نخرج من باب، بل من فتحات، رسمتها قذائف على حائطه. قال معتزّ: علينا الانتقال إلى الطّرف الثاني من الطّريق، والمشي بمحاذاة جدار المستوصف، هكذا فعلنا، هناك ابتاع لي معتزّ قرن بوظة بالفريز من بائع

متجوّل، يركن عربته عند جدار المستوصف، صار لساني بلون القدر "أحمز"، لا أذكر إن كان الطعم لذيذًا، على أيّ حال، سيبدو كذلك من موقعه كاحتمال مرجّح لآخر ما يأكله المرء. تنتشر هناك شحّاذات أيضًا، أعطى معتزّ واحدةً منهنّ بعض الفكّة، مقابل أن ينفلت لسانها بالدّعاء "الله يعمي عيون القنّاص عنكم". وصلنا نهاية المستوصف، كدتُ أسبقهما ببضع خطوات كعادتي، شدّتني سندس بعنف، قالت بعد قليل، نركض كلّنا معًا. قلتُ لها طيّب، فلنركض أنا وأنتِ ومعتزّ. قالت: لا، علينا انتظار أن تصبح مجموعة أكبر. تجمّع عددٌ من النّساء والرّجال الغرباء، وصرنا كتلة بشريّة برؤوسٍ عدّة تركض في اتّجاه المصير ذاته، لمدّة خمس دقائق ونظرُ القنّاص يثقل ظهورنا المكشوفة تمامًا له، على يميننا بساتين ونهر، وعلى يسارنا نهر، سندس ظلّت تركض وتبكي، حتّى وصلنا نهاية المعبر، ودخلنا حيّ المشارقة، مررنا على حاجز تفتيش آخر، هذه المرّة للجيش النظامي. وكانت ثاني مرّة يفتّشني بها أحد، هنا كان التّدقيق أكبر. التّدقيق عند دخول المناطق دائمًا أكبر، هذا جعلني أدرك أن العودة إلى الأماكن أصعب من مغادرتها. في المعبر، رأيتُ فردات أحذيةٍ سبقتها أقدام أصحابها، رأيتُ قططًا متساقطة كأوراق الشّجر، رأيتُ رجالًا يجرّون حمارًا ميتًا، معتزّ قال: يبدو أن القنّاص كان ضجرًا اليوم أكثر من العادة. مرّتين قصدنا المعبر من أجل لقاء سندس ومعتزّ قبل أن يختفي. في حلب قد تدفعين حياتك ثمنًا للحبّ، "الحبّ القاتل" لم يعد مجرّد مجاز هناك. لم أخف من القنّاص، ظننته مثل الصّيّاد في حكايات جدّتي، الله يرحمها، شرّير، نعم، لكن ثأره مع الحيوانات، ثمّ إنني لم أكن يومًا من محبّي

الحيوانات. عرفت لاحقًا أن تأره مع أي شيء قابل للحركة، حتى لو كان ماءً يرقص. في طريق العودة، ريثما ننتظر اكتمال مجموعة الغرباء، شاهدتُ وصول عربات خشبية، تشبه تلك المستخدمة بسطات جوارب في "صلاح الدين". كانت محفلة بعدد من الجثث أو المصابين، لم أميّز، إلا أنها لم تكن للبيع، وتشعر بالبرد. قال معتزّ: لا بدّ أن رهان القناص اليوم كان كبيرًا. لم أفهم كيف عرف، أدرتُ وجهي، لأجدهم يجزون رجلًا بالحبل تمامًا كما كانوا يجزون الحمار الميت قبل ساعات، الرّجل أعرج، والرّصاصةُ عالقةٌ في ساقه السليمة. صرخ الرّجل الأعرج: تريد أن تنافس الله حتى في هذا، يا ابن الكلب؟

في تلك الأيام، لم تتوقف حنان عن ذكر "غيم"، حتى لتظنها صديقة عمرها، تحرس الآثار التي تركتها تلك المرأة على ذاكرة المكان، ليبدو كما لو أنه لم يمرّ عليه مئات الناس غيرها.

حنان بذلك تذكرني بنسوة الأفلام اللواتي ينظفن قبور أحبائهن، ويلقمن شواهدها باستمرار. حين زرتُ شقتها أرثني مفتاح بيتها في "صلاح الدين"، لم أستغرب أو أتأثر، الاحتفاظ بمفاتيح البيوت القديمة ثيمة المهجّرين، دهشتي كانت حين أخبرتني أن غيم رمت مفتاح بيتها في البحر:

- من الممكن أن يعثر إنسانٌ على مفتاحٍ داخل بطن سمكة، لكن، من المستحيل أن يعثر على بيت. قالت غيم، وأنا صرتُ أبكي، شعرتُ بأنني أشهد غرق مدينة.

حتى حين سألتها عن بناءٍ صغيرٍ أحببته، ينفرد وحده بأعلى قمة جبلٍ، منتصبًا مثل عين قناص، تكشف كلّ الشاطئ. أجابتني:

- هذا مقام الشيخ متلج، يقولون اسمه آتٍ من شدة

البرد فوق، لم أقصده يومًا، طريقه صعب. حماتي - الله يرحمها - قبل موتها بأيام كسرت غصنًا متينًا من شجرة الجوز، اتكأت عليه، وهي تصعد وحدها الطريق الجبلي نحو الشيخ متلج، محفلةً بقمصان ابنها المختفي كأثمن هدايا تقدمها لصاحب الكرامة، علّه يساعدها، ويعيده، أبو سومر يحتفظ بتلك العصا، يهش بها الذكريات الأليمة. لو أن المعجزات لم تفقد صلاحيتها في تلك الأيام، لكان صراخ حماتي - الله يرحمها - كفيلًا بشق البحر بدلًا من العصا. أحيانًا أرافق أقارب زوجي في زيارات للمقامات القريبة مثل مقام الشيخ غرز، أو الشيخ يوسف، وأحيانًا مقام العذراء مريم سيدة الجوزية. صار طقسًا ترفيهيًا، نأخذ عدة المئة، ونجلس بين أشجار البلوط والسرو. النسوة يجدلن الأدعية بخيوط خضراء، ويعلّقنها على جذوع الأشجار. المقامات -فكرةً وبناءً - أظنّها الناجية الوحيدة من التغيير الذي طال كلّ شيء حولنا. غيم مثلك أحبّ مقام الشيخ متلج، وتمنّى لو تستطيع الصعود والتحليق من هناك. هل أخبرتك بأنك تشبهينها كثيرًا؟

نعم، أخبرتني، ربما ألف مرة هاهاها.

****

مساء اليوم التالي، أتت حنان وحدها، في يدها مغلّف زهري اللون، يضم مجموعة أوراق:

- هذه هي الأمانة التي أحتفظ بها منذ خمس عشرة سنة، اقرئيها لو شئتِ، وستفهمين قصة (حجرة الـ ١٠٠٠ خطوة) التي أطلتِ النظر إليها البارحة في غرفتي.
- أعتذر، لم أقصد التطفّل.

- غيم ستحب أن تقرني.

****

بعد أسبوعين، تركتُ ذاكرتي في "وادي قنديل" ترعى من حقول حنان، بينما سافر جسدي إلى بيروت لاهثا وراء حياة، تسكن ذلك المغلّف الزهري.

*******) من مقال "الموسيقى الناجية من حريق سميرنا"/مجلّة الموسيقى (معازف)- مي صباغ.

بيروت/ ٢٠٢٩

"فقط لو باستطاعتي أن أحب كما تحب،
فقط لو باستطاعتي أن أنسى كما تنسى"

كوستاس مونتس

"رحتُ أراقب مشيته من الخلف، تلك التي توحي دائمًا بعجلةٍ في الأمر، لرجلٍ يعرف تمامًا الوجهة الصحيحة" عبرت الجملةُ رأسي كغيمةٍ مستعجلة، وأنا أتمدد في السرير عاريةً أشم رائحته علي. مديرًا ظهره الموحي، بينما ببطءٍ يصب قدح عرقٍ له ولي كأس نبيذٍ من ماركة سورية، اسمها "الأرض". حتى حين يجلس قبالتي، أو حين يضاجعني ولسانه يتحرك داخل فمي، أو يعض بأسنانه على حلمتي، أشعر بأنه يدير ظهره لي، هذا الرجل لا يتوقف عن الرحيل.

- كيف لم يعلّموك حب الأوزو؟
- ماما ساتي كانت تشربه بإفراط، لم يعلّمني أحدٌ حب أيّ شيء، اخترتُ كلّ ما أحبّه بنفسي. حتى أنتِ.
- لستُ أكثر من بضع كؤوس من شرابٍ مغشوش، مجرّد سكرة مزعجة تفيقين منها بعد قليل.
- لا أريد أن أفيق، مستعدّة لبذل كبدي كاملًا في سبيل أن تدور هذه السكرة كلّ العمر.

كالعادة لم يجب، لم يقبلني من جبيني أو خدّي أو حتى فمي، فقط أرخى جسده عليّ، من دون أن تغادر السيجارة زاوية فمه، يتحرك فوقي ورمادها يهطل عليّ. صار وجهي يشبه شوارع مدينةٍ منكوبة. ربما كانت المدينة قلبه.

لم أعد أذكر "غيم" أمامه مذ ارتكبتُ أكبر أخطائي، وسألته:

- من أحببتَ أكثر أنا أم غيم؟

لم يتلكأ بإخرج الجواب، وكأنه تدرب عليه مطوّلًا، الجواب الّذي كان مُختفيًا في فمه الشهي مثل مسدسٍ داخل جرابٍ مطرز، مسدس برصاصة واحدة قاتلة:

- حلَب.

لو أجاب "غيم"، لكان الموضوع أسهل. باستطاعتي أن أنافس امرأةً، حتى لو كانت حبّ حياته، ولو كان الطريق شاقًا، بإمكاني أن أكبر كرةَ الحبّ، وأدفعها أمامي، قد أصل بها إلى مكانٍ ما، أو قد تعود، وتهرسني، لكن، مدينة؟ كيف يمكن أن تنهض في قلعةٍ وأسواقٍ عتيقة، أن أخرج من جيوبي عاداتٍ ولهجةً متفزدة، أن أقطر القدود والموشحات، أن أملك ذاكرة ممتدة على عشرة آلاف عام، أو أكثر؟ أنا من صارت ذاكرتي وجبةً لذيذةً لأسماكٍ غريبة قبل خمسة عشر عامًا.

****

(غيم حدّاد، جنى صباغ، صالح خليل، عروة الزين، أنس عبد الرحيم، ميسم، ريحان) لم أجد بيانات مؤكدة تخص هذه الشخصيات التي رافقتها داخل أوراق المغلّف الزهري، رغم أن موقعي فايسبوك وغوغل صارا يؤرشفان حتى مقاسات أحذية البشر، وتصوراتٍ عن روائح أفواههم وطُرق قضمهم للأظافر. كدتُ أخلُص إلى أن الأسماء وهمية حتى وقعتُ على تحقيق، أجراه صحافي، اسمه أنس رحيم حول يهود سوريا بعد ٢٠١١، لا يعقل أن تكون صدفةً، بالتأكيد أنس عبد الرحيم هو الذي يوقّع مقالاته باسم أنس رحيم، عدتُ إلى مقالات كثيرة له في مواقع وجرائد لبنانية وسورية، تذكّرتُ أنني قرأتُ بعضًا منها سابقًا في لارنكا. المشكلة أن الصحف الورقية توقّفت كلّيًا عن الصدور، وأغلب المواقع الإلكترونية لم تعد موجودة، أو بدّلتْ كوادرها، كما أن آخر ظهورٍ لاسم أنس رحيم كان في الـ٢٠١٤. عثرتُ على نصٍّ أدبيٍّ لكاتبٍ سوريّ مقيم في دمشق، اسمه عامر أبو الورد، والنصّ

مهدي إلى أنس رحيم. بسهولةٍ تواصلتُ مع الكاتب، وبصعوبةٍ بالغة قبل أن يزوّدني باسم الفندق الّذي يقيم فيه أنس، قال لي: إذا حظّك حلو بتلحقيه هنيك.

****

لم أستطع البقاء في سوريا، لم أستطع الرحيل عنها، كي ترحلي من مكانٍ، عليكِ أن تكوني موجودةً فيه أصلًا، وأنا لم أعد كذلك، لكن، لا طاقة لي بالابتعاد. رأيتُ الحلّ الأنسب هو القدوم إلى لبنان، هنا أشعر بأنني دائمًا في القرب، في متناول اليد، أستطيع لو احتاج جاري كوب ماءٍ أن أصله قبل أن يموت من العطش. حسنًا، لم يعد لديّ جيران، ولا أهل، لكن، أقصد فكرة الجار. فكّرتُ أن أسكن في منطقةٍ حدوديّة، لكن، لتلك المناطق لعنة تُقحمها دومًا في حروب الدول المجاورة. فكّرتُ أن أسكن في إحدى القرى الجبلية المطلّة على سوريا، أن يكون بُعدي أقرب إلى جلوسٍ على شرفة، جسدي في بلدٍ آخر، بينما سوريا متمدّدة أمام نظري مثل موديل، أجّلتُ المشروع إلى حينه. بيروت ناسبتني، فأنا معتادٌ على حياة المدن أكثر من الضواحي والقرى. كما ترين، لم أستقرّ في بيتٍ، حتى الفنادق أبدلها باستمرار، كلّما جرّبتُ ألفتها أن تتسلّل إلى وجداني. بعضها أعود إليه بعد ترك مسافةٍ زمنية، تغسل آثاره عني. أنا رجلٌ مؤقّت، بحقيبةٍ موضّبة دائمًا.

لم أستطع مقاطعته، وهو يجيبني لأوّل مرّة عن أسئلتي الدائمة حول سوريا، كان يتكلّم مثل من يحدّث نفسه بعد غيابٍ طويلٍ عنها، يحدّق في إشارات يديه، كأنّه تعرّف عليها للتوّ. كان صوته يخرج منه، ويقع فيه، لم أعرف إن كان عليّ أن أفرح أم أزعل، ربّما أشعره وجودي براحةِ أن يجالس نفسه، وربّما أكون مجرّد فتاةٍ غير مرئيّة، لا يخلخلُ وجودها صوته. لا سبيل للتأكّد من كنه الأمر.

صرتُ ألتقيه يوميًا في مقهى، اسمه "عتيق" في

شارع المكحول في الحمرا. أنس يحبه، لأنه قليل الضجيج. قال لي اسمه "عتيق" مع أن عمره لا يتجاوز العشر سنوات. تُسمع فيه فقط موسيقى حية، يعزفها الرجل الذي يترنح على الأرض، ويدق القهوة بالمهباج. أخبرني أنس أن هذا الرجل من السويداء، وأن الناس يأتون من أجل القهوة التي يعدها، دلّني على اسمها في القائمة "mehbaj" قال: حتى هذه يكتبونها باللاتينية. وراح يضحك.

- أنت تشربها دائمًا؟

- لا، أنا أشرب اسبريسو.

طاولته الصغيرة هناك شهدت محاولاتي الكثيرة واليائسة لمعرفة شيء عن غيم، لم يكترث بحاجتي لإيجادها، وبأنني غيرتُ مخطط رحلتي كله، كي آتي إليه، ويدلّني عليها، لم يدعني أشرح له أسبابي. أخبرته عن الأمانة، لم تثر اهتمامه أيضًا. قال لي إنه لا يحب وادي قنديل.

- طيّب، والأيام التي قضيتموها هناك في شباط ٢٠١٤؟

- لم أكن موجودًا.

جزبتُ أن أحدثه عن ريحان، سألته هل كانت هي المنتحرة في وادي قنديل، كما تخيلتُ؟

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

- لا تعرف ريشة؟

- ريشة انتحرت؟!

اعتقدتُ أن كلّ ذلك الإنكار ليس إلّا أسلوبًا لفلت أيّ خيط مربوط بـ غيم حداد. أدركتُ أنني وقعتُ في حبه حين تحوّلت رغبتي الشديدة بالعثور على غيم إلى رغبة أكبر بالتخلص منها. من الواضح أنه يحبها، يتعامل مع ذكراها كما يتعامل مع سوريا، يبتعد عنه، وفي العمق لا يفترق عنه. مثل علاقة الأشخاص بأعضائهم المبتورة.

نحن لا نراها متصلة بهم، لكن إحساسهم بها لا يزول. مثل علاقتي بذاكرتي الفريقة، غيابها جعلها أثقل.

- انسيني، وعودي إلى لارنكا، أنا لا أعيش في هذا الحاضر الذي تعرفينه، بل في ماضي حاضر ٢٠١٤، لذا لا فكرة لي عن معنى المستقبل، لا أعرف إلى أيّ حاضر أعيده. أنت صغيرة وجميلة، امشي نحو المستقبل، صدّقيني يحبّ أن يصير حاضرًا تحت قدميك.

قال ذلك، وهو يزيح خصلة شعر عن وجهي، وينظر عميقًا داخله. قلتُ لنفسي إنه يتمعّن في شبهي بـ لميم.

- لكنني بلا ماضٍ، كلُّ منا ينقصه حقبة، أنا وأنت نكمّل بعضنا.

أجبتُه وأنا أبكي، مع أنني لستُ بكّاءة، كنتُ أبكي، لأنه يراها في وجهي، كنتُ أبكي لأنه يريدني أن أذهب.

- لا تبحثي عن الماضي، ولا تصنعي واحدًا جديدًا، الماضي بقجة ثقيلة، تحمليها فوق ظهرك، تؤخرك عن الوصول، وقد تكسر ظهرك.

لم يقبلني أيضًا، لا أجرؤ أن أخاطبه بجملتها "ما في بوسة؟". راح يحزّ أصابعه على خرزات ظهري البارزة، كأنه يعزف على الكلارينيت، لكنه كان يتخيل أمرًا آخر، همس في أذني:

- فقط مثل هذه المسبحة، يمكن أن توصل إلى السماء.

وضاجعني طبعًا. دائمًا تنهي أحاديثنا بهذا الشكل، ولو كانت بالغة الحزن ومحفلة بوداع هائل. كان يؤلمني ذلك، يؤلمني أكثر أنه يتقصده، وكأنه يحمي حياتي العاطفية من الخروج عن سكتها القديمة. كيف أفهمه أنني أسكن جزيرة، لا قطارات فيها، أو سككًا؟ لم أتعلّم التحرك بين خطين متوازيين، لا يكفيني مصباح قطار، يشق الظلمة أمامه فحسب، أريد منارة تهدي المراكب البعيدة.

صرتُ أتذكر كيف كانت الخالة لورا تبكي حبيبها الذي

هجرها، وأتخيل كم جرحتُ صديقتي إميلي حين قالت إنها مغرمة بي، وأجبتُها أنه لم يعنني أبدًا غير أنها جيدة في السرير، طالبةً منها أن تخرج من حياتي. الأمر ذاته حصل مع صديقي ماثيو. كانت كلمة "حُب" تضجرني وتنفرني من الشخص، تُشعرني بأنه ينوي سلبي شيئًا بالقوة، لذا كنتُ أطرده بقسوة بالغة، وصل الأمر بي إلى شتم ماثيو بدناءة أمام الناس، حين جرّب أن يكلّمني في البار بعد انفصالنا.

****

مثل طفلةٍ تشدّ أمها من تنورتها نحو باب الشقة المغلق دائمًا، توسلتُ مشاركته أمورًا أخرى غير تلك الساعات التي يحددها هو في غرفة الفندق، أو في مقهى "عتيق". فتح الباب، وقبل أن أمشي معه فجرًا على كورنيش المنارة، أخبرته بأنه يذكّرني قليلًا بشارع أشجار النخيل في لارنكا، حدثته عن لارنكا مارينا في مثل هذه الساعة. أسمعته أغنيات ريبيتيكو، قال إنه يحبها بعض الشيء، وإنما ليست من مفضلاته. أسمعني أغنيات لفيروز، قلتُ له أعرفها، وإنما ليست من مفضلاتي. قال: أعرف ذلك. أخبرني بأنه حضر حفلًا لـ جورج دالاراس عام ٢٠١٢، ولـ فيروز عام ٢٠١١ على المسرح نفسه "بلاتيا" في جونيه. عرضتُ عليه أن نحضر حفلًا ما معًا. صار يضحك ويضحك ويضحك.

- حفل؟! هذا كان زمان. منذ خمس عشرة سنة، وأنا أعدّ كلّ استيقاظٍ بمثابة معجزة. أنا آسف لأنكِ عرفتِني وأنا على هذا الحال.

كان صادقًا وطيبًا وهو يقول "آسف"، وكأنه سرق تلك السنوات من عمري أنا. كاد يضمني، لم يفعل، واكتفى بضغطةٍ قوية على كتفي، مثل أبٍ قاسٍ يداري عواطفه، بينما يودّع ابنته العروس في ممشى الكنيسة.

في أحد تلك المشاوير الصباحية، كنا نهبط درج عين المريسة حين انسلّت الحرب بيننا، ونزلت معنا الدرجات،

سمعتُ معنا فيروز، حتى الحرب هنا تسمع فيروز عندما تستيقظ. لا أعرف إن كانت تنام أصلًا.

- ألم تفكّر في العودة مع انتهاء الحرب؟
- الحرب لا تنتهي أبدًا، لا تفادن، فقط تظهر لها أقدام كاذبة مثل الأمبيا. الحرب تغيّر أشكالها، لا أكثر، كما حصل ويحصل في العراق واليمن وسوريا.
- ما الحلّ، إذًا؟
- الكلّ يتوهّم أن الحلّ يكمن في الغفران، لكن الغفران مثل الخلّ الوفي والعنقاء والغول، نسمع به فقط، نراه أحيانًا في الأفلام الساذجة التي لم تعد تُرضي حتى الأطفال. نذعيه أيضًا. لا أحد يغفر لأحد، يُطلَق على النسيان خطأً اسم الغفران.
- يبقى الحلّ الوحيد هو النسيان.
- ليس حلًا بقدر ما هو خشبة وحيدة، نجدها في عرض البحر، نجذف بها، كي نعبر الحياة. النسيان يشبه أن تترك فتيلًا في العراء، يحتاج الأمر عود كبريت صغيرًا، ليشتعل. في فيلم لبناني، اسمه "طيف المدينة" يتناول الحرب الأهلية تمرّ جملة خالدة "من يراهن على النسيان يؤسّس لحرب جديدة". الكلّ يفعلها، لذلك لا تتوقّف الحروب، ولن تتوقّف.
- وأنتَ؟
- أنا؟ مثل الجميع ضحية سابقة، أو لاحقة.
- أحبّك.
- (صمت).

****

قالت لي: سوف أخرج لك الأسرار من كفك. لم أدرك أنها غجرية، لولا جزة النقود التي تحملها، وهي واقفة قرب صديقها الجالس على الرصيف يعزف الغيتار. لا تحمل في ملامحها أو ملابسها الصورة النمطية للفجر القادمين من بلغاريا. لا تضع الحلي حتى. أمسكت قرطي النحاسي الكبير، وشفته. لم أخف منها، مددت لها يدي من دون تفكير. صارت تحزك إصبعها على خطوط باطن الكف، تسرع حينا، وتبطئ حينا، أوقفته عند نقطة، وأغلقت كفي على إصبعها، وهي مغمضة العينين. ثم اقتربت، وقبلتني من خدي. قالت: أنت من أهلي. مررت إصبعها راسمةً خطًا طوليًا، يقسم ذقني، وقالت: النيران التي كانت ستذق هنا، أحرقت هناك. مشيرةً إلى صدري. كنت مستسلمةً كليًا، كأنني دمية، لا أذكر مشاعري، كنت أنتظر أن تقول شيئا، وكأن شفتيها ستنفرجان عن ماضي. قالت: لا تدعيهم يحرقونه مرة ثانية، لا تذهبي إلى مكانٍ فيه هذا. ورسمت بإصبعها قلبًا على كفي. ثم قرّبت الجزة.

حكيت قصة الغجرية العرّافة لأنس، لا أعرف لماذا تذكرتها، الفجر دائمًا يجلب معه الشجن، كلّ أحاديثنا فيه كانت نغمتها حزينة. أنس يقول إن الفجر مقامه صبا. مرة أخبرني عن صديقٍ قديم له من حي الكلاسة في حلب، خرج صباحًا إلى عمله، عاد ظهرًا، ولم يجد البناء بأهله.

- خرج فردًا من عائلة، وعاد وحيدًا.

- ألا يشبهني؟

لم يرد. هو يتجنب أن يُشعرني بالأسى تجاه نفسي، يحاول دومًا دفعي تجاه التفكير بأن حياتي بدأت عام ٢٠١٤، وكلّ ما حصل قبلها لا يخصني. حين عرض علي آخر الأمر مساعدتي في التفتيش عن ماضي، عرفتُ أنه يريدني أن أغادر. رفضتُ، وقلتُ له: سأعود إلى باريس، ولن أرجع أبدًا. قُل لي ابقي، كلمة واحدة، وأظلّ في بيروت إلى الأبد، أرافقك في مشوار كورنيش المنارة،

وفي جلسات مقهى عتيق، وفي ساعاتٍ تحددها أنت في غرفة الفندق، كلمة واحدة فقط.

قال: ارحلي. ورحلتُ.

****

أنهيتُ سنة الماستر في باريس، ورجعتُ إلى لارنكا، لم أخبر ماما ساتي بذهابي إلى سوريا، لم أسمح لتلك الأيام أن تدور في داخلي أيضًا، كانت فقط تتسلّل في الليل محاولةً تمزيق أحشائي، وأنا بدوري أحاول خنقها فيّ. ابتعدتُ عن التمثيل، ودخلتُ سوق العمل، أغرقتُ نفسي بالأرقام، وبحياةٍ سريعة، ألهثُ كلّ الوقت، أوهم نفسي أنني في مخاضٍ يومي، لا بدّ أن ينتهي، لا بولادة، بل بموت لتلك الأيام. مرّة قالت لي ماما إن شيئًا قد تغير فيّ. اعتقدتُ أنها تقصد نمط حياتي الجديدة. قالت: إنّها طريقتكِ في الجلوس، صرتِ تضعين قدميكِ على الأرض.

قبل أن أغادر بيروت، أرسلتُ مع سائقِ المغلّف الزهري إلى حنان النعمة، في داخله الأمانة مرفقةً برسالة اعتذار، وبرواية "أيام وادي قنديل" التي كتبتُها استنادًا إلى مذكّرات غيم حداد، وشخصياتٍ وجدتُها في تلك الأوراق التي أسميتُها "أوراق غيم حداد". أخبرتُ حنان في الرسالة أنني حاولتُ استعادة صديقتها، بذلتُ جهدي من أجلي، ومن أجلها. لكنني فشلتُ. وليس بوسعي سرقةُ ماضي غيم، كما سرقوا ماضيّ يومًا، لذا أترك الرواية مع الأوراق داخل المغلّف، بانتظار عودتها إليه. اعتذرتُ منها أيضًا عن لخبطتي ترتيب المذكّرات. أظنّ أنها ستسامحني حين تجد صديقتها بطلةً داخل روايةٍ جديدة.

كتبتُ بخطّ يدي رسالةً صغيرةً لأنس، وتركتُها عند موظّف استقبال الفندق:

{"وإذا تلتمّ في جنباتي الأصداءُ من كلّ صوبٍ، لا أعثر

فيها على الصدى المتهدج لصوت قال لي إله متعب، وفي
آخر العمر، ولم يقل إله يحبني"
مقطع استعرته من قصيدة "هي ذي الأبواب المغلقة"
ليسام حجار .. لأنك تحبه.}

أوراق ثريا لوكاس - الرّسالة

بيروت/ أيلول ٢٠٢٤

"الأشياء في أمكِنتها إلّا أنتَ

الأشياء بدونِكَ

تَبحثُ عنكَ حيثُ لا تكونْ"

بسام حجار

سوارُ رَقْمي لا يفارقُ يدي، مسحتُ كلّ بياناته، وبرمجتُه، كي ينبض، فقط إن وصلني شيء من أنس رحيم: بريده الإلكتروني، رَقْم موبايله الّذي نادرًا ما يحمله، حتى إنني أدخلتُ كلّ أرقام الفنادق اللبنانية الّتي سَكَنَها، والّتي لم يسكنها بعد. لا أخلع السوار أبدًا، انتقيتُه ضدّ الماء حتى يكون معي تحت الدوش، وإن سبحتُ. مرّةً سألني آيدن هل ستنامين معي والسوار في يدكِ؟ دفعتُه عني، وغادرتُ. كنتُ أفيق في الليل كثيرًا على حلم أنّه نبض، لأجده باردًا مثل رخام قبر، ولا أصرخ ماما. ادّعيتُ أنني تجاوزتُ أيام سوريا وبيروت، حملتُ حياتي الخفيفة، ومشيتُ نحو المستقبل، كما طلب منّي أنس، إلاّ أنني تقبتُ تلك الحياة، كي ترسم خلفي خطًا واهيًا، لكنّه كفيلٌ بأن يدلّ أنس عليّ لو أراد. خمس سنوات خلالها طبعَ السوار دائرةً فاتحة اللون تلفّ مِعصمي، كما تفعل خواتم الزّفاف بأصابع الأزواج القدامى، خمس سنوات من الشحن الدّائم والصّيانة الدّائمة، حرصتُ على عدم استبداله، خفتُ أن يسقط شيء في الطّريق بين سوارَين، خفتُ أن يسقط شيء، اسمه الأمل. بعد سنوات الانتظار الخمس تلك، قبل يومين أخيرًا نبض. بينما كنتُ أغلق الباب، خارجةً باتّجاه العمل. أخذتُ نفسًا عميقًا، جلستُ على مصطبة البيت محاولةً لملمة نفسي قبل رؤية ما وصلني. إيميل من بريد أنس رحيم، رسالة من جملة واحدة "مات أنس رحيم، الدّفن ظهيرة الغد في مقبرة الزّاوية، قرية فنيدق، جرد عكّار، شمال لبنان".

****

تجنّبتُ الإقامة في فندق مرّ عليه، لن أحتمل المكوث ورائحته تدوم

حولي من دون أن تلتصق بجلدي. مرّت في رأسي صور متخيلة للقاء غيم المنتظر في مقهى عتيق. سوف أتأخر قليلًا لأجدها جالسةً على الطاولة الصغيرة ذاتها، هذا أكيد. إن وقفتُ، أقترب وأضمها بقوة، قد نبقى على تلك الحال لساعاتٍ، نبكي بحرقةٍ حتى تنفد الدموع، أو تُصاب إحدانا بالعمى، لم يعد النظر مهمًا بعد الآن. إن لم تقف سأزيح كرسيًا، وأجلس قبالتها من دون أن أسلّم، أنهال عليها بالأسئلة كالصفعات: لماذا لم تموتي؟ كي أكون صادقةً معكِ، في البداية بحثتُ عنكِ، كي أعلمكِ بسرقتي لحياتكِ، ووضعها داخل الزواية، لكن، في رحلة البحث تلك بدأت فكرة موتكِ تبرق مثل حجرة ألماسٍ نفيسة داخل رأسي. كم بلغ عدد ضحايا الحرب السورية؟ مليون؟ اثنان؟ خمسة؟ أكثر؟ لماذا لم تكوني واحدةً منهم؟ إنها لعنة الأرقام التي تكلّمتِ عنها. وأنا، لماذا نجوتُ من قاربٍ، غرق كلّ ركابه؟ هل تعلمين أنّ أصعب ما يمكن أن يحصل مع المرء هو أن يصير الناجي الوحيد؟ كان على إحدانا أن تغرق، أن تموت. لكنه اختار أن يرحل ويتركنا. دائمًا يختار الحلول الأشدّ لؤمًا.

أزحتُ تلك الصور مفسحةً المجال أمام مشاهد لأنس، وهو يفتش بنفسه عن مكان دفنه، متنقلًا من جبلٍ إلى آخر مثل ذئبٍ، يحاول وصول قمرٍ مكتمل، حتى وجد "فنيدق" القرية التي تلائمه اسمًا وتضاريسًا. رجلٌ بحقيبةٍ موضّبة دائمًا لا تناسبه إلاّ محطات العبور. آلمني أنه اختار لمحطته الأخيرة أن تُطلّ على "حمص" مدينة غيم، ليس غيرةً فقط، بل لأنني لا أملك منطقةً سوريّة تخصني، أستطيع أن أنافس بها على موطن نظراته، حتى لو خسرتُ.

****

افتقدتُ صوت دق المهباج الذي كان يُسمع من بعيد، حتى إنني حين وصلتُ سألتُ النادل عن رجُل المهباج قبل أن أنظر إلى طاولة أنس، قال لي إنّه ترك العمل، وهم يبحثون عن عازفٍ بجودته. تقدّمتُ نحو الطاولة، كانت بانتظاري كما خططتُ، تلبس فستانًا بسيطًا أسود بياقةٍ بيضاء، وتنظر باتّجاهي. لا أعرف كيف، لكنها بدت في مثل سنّي، أو أصغر. وقفتُ، لم أضمها كما تخيلتُ، فقط مددتُ يدي، وصافحتُها قبل أن أجلس.

- لن آخذ الكثير من وقتكِ، أنا "ليلى" ابنة أنس رحيم وغيم حدّاد. أنفّذ وصيّة بابا بأن أراسلكِ من بريده حين يتوفّى، وأعلمكِ بتفاصيل الدّفن، في حال

قدمتِ، أعزفكِ بنفسي وأواعدكِ في مقهى عتيق (قال إنّك تعرفينه جيّدًا)، وأسلّمك هذه الورقة من دون أن أفتحها. قال إنّها تخصّك. أنا آسفة، لكنني مضطرة للمغادرة الآن. سلام.

وغادرتْ وسط ذهولي، بقيتُ وحيدةً على الطاولة برفقة ورقة صغيرة وسرٌ عظيم خبأه لي. ابنة؟ وماذا بعد، يا أنس رحيم؟ من الطبيعي ألاّ يذكرها هو، لكن الغريب ألاّ ترِد الفتاةُ في مذكّرات غيم، هل أنجبتها بعد شباط ٢٠١٤؟ هل تزوّجا؟ متى؟ وكيف؟ تذكّرتُ أن عازف المهباج ليس هنا، وهذا الطّرق الّذي أسمعهُ يحصل داخلي.

أخذتُ الورقة، ومشيتُ، ظللتُ أمشي وأمشي، ذارعةً الشوارع الّتي مشيتُها معه، لم أسمح لخطواتي أن تتجاوز الحدود التي خطّتها مشاويرنا، قسّمتُ بيروت إلى بيروت أنس رحيم وبيروت الآخرين، شعرتُ أنّ العالم غرق، وبقيتُ منه شقفة واحدة، هي بيروت أنس رحيم، كما حصل معي سابقًا حين كان العالم مركبًا. نزلتُ درج عين المريسة، وصعدتُه مرّات كثيرة، لم أكن لأتوقّف، لولا ركبتي المعطوبة، هي التي توقّفت، ولستُ أنا، جلستُ على درجةٍ، وارتكيتُ على الجدار، لم أشعر بما حصل بعدها حتى هزّتني امرأةٌ، وعرضتْ أن تساعدني، أو تصحبني إلى المستشفى، لا أعرف إن نمتُ أم فقدتُ الوعي، ولا لكم من الوقت بقيتُ مغمضة العينين على درج بيروت أنس رحيم. شكرتُ المرأة، وقلتُ لها إنني بخير، كما لم أكن يومًا. وانفجرتُ باكيةً بعد أن غادرتْ.

أخرجتُ الورقة من جيبي، شعرتُ برهبةٍ كبيرة من فتحها، لوهلةٍ، خطر لي ماذا لو رميتُها، ولحقتُ بالعالم الّذي ليس فيه أنس رحيم، كي أغرق معه، ولا أصير "الناجية الوحيدة" مجدّدًا؟ إلاّ أنني قرّرتُ المواجهة، قرّرتُ ألاّ أكرّر ما فعلتُه حين هربتُ من بحيرة الملح بعد موت أول طيوري الورديّة، الطير الثاني كان أنس.

****

إلى أنس عبد الرحيم:

لا أعرف كيف يبدأ المرء رسالة انتحار مع أنني قرأت الكثير منها، أملك ورقةً وقلمًا والنية الطيبة. هل يكفي هذا؟ كنتُ مترددةً في خط لفظة "انتحار" في البداية، إلاّ أنني تذكرتُ أن قراءتك للرسالة ستكون بعد قيامي بفعل اللفظة، بالتالي القسوة وقعت، وانتهينا منها. كان بودي أن أكتب الرسالة على جلد حيوان، هكذا تعلّقها في المنزل داخل إطارٍ خشبي، أو تورثها لأجيالٍ من أحفادنا، لا على ورقة ستصفر وتتشقق، وقد تضيع، أو تحرقها. هل يعقل أن تحرقها؟ إن كان ذلك سيشعرك بالدفء، افعله. فكرتُ أن أكتب الرسالة على جلدي، خشيتُ أن تشفيني على طريقة العلاج بالكتابة على الجسد، وأنا لا رغبة لي بالشفاء، أتعبني التعافي. ثم إنني لا أريد للكلمات أن تُدفَن معي، أريد الصمت العظيم فقط. لا أقصد ترك رسالةٍ للمجتمع، كما يفعل المنتحرون، هذه الرسالةُ لك، أكتبُ لك فيها ما أعجز عن قوله وأنت قربي، لأنك ستوقفني عن ذلك، وأعرف أن باستطاعتك إيقافي، أنا الآن أوقفك عن إيقافي. لا تزعل، اسمح لي بذلك هذه المزة فقط. حبيبي، فكر في الأمر على هذا النحو: أسباب الموت كثيرة، خاصةً حيث نعيش، فليكن ما سأفعله أحدها، بهذا الشكل أوفر عليك الرغبة بأخذ الثأر من أي أحد حتى من الله نفسه. ستغضب مني قليلًا، لكن، ستسامحني بعد قليل، سترغب بتقبيلي من جبيني، ولن تجده، لكنني أقسم بحبك، سأشعر بالقبلة، كما لو كانت تلك التي تهبني إياها كلّما غادرتُ البيت. اسمع: أنا اخترتُ هذا الأمر كما اخترتُك، بشغفٍ واعٍ، لا أعرف إن كان التوصيف دقيقًا. أقصد أنني لستُ في حالةٍ هيستيرية، قد أقض فيها أذني مثلًا. يا الله، أخاف أن أنسى أمورًا لم أخبرك بها، تخيل! هذا فقط ما يؤخرني. يدي ترتجف قليلًا، تعرف كيف أبكي دائمًا، يعني هو بكاء عادي، لا تقلق. هل قلتُ لك إنني أحبك لأنك لا تُبكيني؟

أن أحبك ليس أمرًا كبيرًا، ما تفعله من أجلي كفيلٌ بجعل كلّ نساء الأرض يغرمن بك، من ثم، أنا أقع في الحبّ بسهولة، قلبي ليس صعب المنال. لكن، أن أختار البقاء معك إلى الأبد هو الأمر، أنا الآن أفعل ذلك: أدعُ حبك يدوم إلى الأبد. أعرف أنّ ما أقولهُ سيبدو أنانيًا، وكأنني أمنّ عليك برحيلي، لا، لم أقصد ذلك، فلو كان باستطاعتي أن أموت من أجلك كلّ يوم، لن يكون ذلك كافيًا. الآن أنت تحضنُ "ليلى" وتنتظراني، بينما أجلس وحدي هنا، بثديين جافين وخدشٍ صغيرٍ أسفل البطن. أيّ أمٍّ هذه التي تترك طفلةً لم تتخطّ الأربعين يومًا؟ في فترة الحمل، كانت ليلى تكبر في بطني، بينما داخل رأسي فكرة الانتحار تنمو بسرعةٍ، لولا ليلى، لأقدمتُ عليه قبل الآن، فمخاضُ رأسي سبق توسّع عنق رحمي، وخرجت الفكرة منه منتصبةً على قدمين، كائنًا سريع التطوّر، خفتُ أن تشيخ وتموت قبل أن ألحق بها. انتظرتُ أن تخرج ليلى، وأتركها لك، كنتُ أراقب كيف تنتظرها بلهفةٍ، تقرّب رأسك من بطني كي تسمع نبضها، كنتَ تضحك بفرحٍ غريبٍ حين تركل خدّك، في فترة الحمل، شعرتُ أن لديّ ولَدين: أحدهما في داخلي، والآخر ينام قربي. تضخم بطني، ولم تتخلّ عن عادة النوم وأنت تطوّقني من الخلف، رغم أن يديك لم تعودا قادرتين على الإحاطة بي، وكان هذا مضحكًا ولطيفًا للغاية. لم أستطِع البقاء معك ومع ليلى، في حين أنني لا أشعر بشيءٍ تجاه هذا الكائن الطريّ الّذي أخرجته إلى العالم، والّذي يبكي باستمرار، أخاف أن أحملها، لا أحس بأنها ابنتي، ظننتُ أنني حين أراها قد تذوي فكرة الانتحار، لكن هذا البرود كلّه من أين أتيتُ به؟ في صغري كنتُ أحضر إعلانات الحفاضات والبودرة، ثم أطلب من جورجيت أن تشتري لي طفل الإعلان، لطالما حلمتُ بمخلوقٍ صغيرٍ لي، وحين خرج مني، انتزع من وجداني كلّ مشاعر الأمومة. عليّ أن أعتذر منك عن هذا، عليّ أن أعتذر من جورجيت، لأنني لم أصبح أمًا مثلها، عليّ أن أعتذر من نباتاتي، لأنني لم أكن وفيةً لفرعي. أما ليلى، فسأغادر قبل أن تعرف أن

أنها لا تحبها. قل لها ما شئت، لكن، لا تخبرها بأنني لم أحبها. هذا أول أسبوع أمضيه بعيدة عنك، وحيدة تمامًا، لطالما كنتُ وحيدة، حتى معك لم أخرج من تلك الوحدة، بل وسعت لك مكانًا داخلها فحسب. أمضيتُ الأيام الستة الماضية هنا في كتابة أوراقٍ كثيرة تخص حياتي، كنتُ أصارع فيها ذاكرتي، لم أذكر زواجنا فيها، ولا مرة، لم أذكر أي شيء ينتهي بالحمل، نحيتهُ عن معارك الذاكرة، بقيتُ أهرب به ومنه حتى وصلتُ هذه الورقة الأخيرة في اليوم السابع. أفكر في الأمهات اللواتي فقدن أولادهن في الحرب، لطالما شعرتُ بأنهن يرجفننا بالدموع، خاصةً إن لم يذرفنها، هل عليّ أن أعتذر منهن أيضًا؟

مرةً تخيلتُ ليلى داخل صندوقٍ خشبي، كنتُ سأغلقه عليها بعد قليل، وهذا ما دفعني كي أترك البيت، وآتي إلى هنا، خفتُ أن أصير قاتلة. صحيح أنني سأقتلُ نفسي، لكن، لا أعرف لماذا أؤمن بأن ذلك ليس جريمة، ما سأفعله أشبه بحجز بطاقة طيارة باتجاه واحد، ذهاب فقط، أنا أسبقكما وحسب، سوف أصير أمًا هناك، الفرق أنني سأبقى أمًا في السابعة والعشرين من عمرها، لكنني سأحبك هناك حتى لو تجاوزتَ المئة، عش طويلًا، يا حبيبي. إن انتهت الحرب، لا تحزن، لأنني لستُ معك، كي نحتفل، لا أظن الأمر سيحصل على نحوٍ يستحق الاحتفال. إن لم تنتهِ الحرب، لا تحزن، لأنني لستُ معك، كي نرثي الفقد والناس والذكريات، سبق أن فعلنا ذلك كلّه بشكلٍ يغطي ثلاث حروب، ويزيد. إن استطعتَ العودة إلى "ساحة الحطب(********)" لا تذهب برفقة امرأة، ليس منصفًا أن أشعر بالضغينة تجاه مكانٍ، اسمه "ساحة الحطب". إن استطعتَ الذهاب إلى بيت أهلي في حمص، إن وجدته، ابحث عن جديلة شعرٍ طويلة، قصصتها حين كنتُ صغيرة، أعطها لـ ليلى، لا أملاك لديّ سواها. قل لـ جورجيت وفارس إنني أحبهما، وإنني لم أكن لأرحل، لو لم تكن ليلى موجودةً كابنةٍ ثانية لهما، قد تكون بازةً أكثر مني.

أنس، كما لم أعرف كيف أبدأ الرسالة، لن أعرف بالتأكيد كيف أنهيها. قرأت مرة أن الجسد أقوى من العقل، وأنه يقاوم الموت بشكلٍ غريزي، لا أعرف من سيغلب الثاني بعد قليل، مهما كانت النتيجة ستبقى حقيقة وحيدة في هذا العالم الوهم هي أنني أحبك. ما في بوسة؟

٢١- شباط - ٢٠١٤

*********) ساحة الحطب: من أقدم ساحات مدينة حلب، أنشئت عام ١٤٠٠ م. تقع في حي "الجديدة" القديم، خارج الأسوار التاريخية.

البداية

بيروت/٢٠٣٤

في اليوم التالي، حجزتُ ثريا لوكاس بطاقتي سفر، بطاقتين باتجاهٍ واحد (ذهاب فقط)، وإنما بوجهتين مختلفتين: (بيروت – لارنكا)، (بيروت – دمشق). وقفتُ أمام باب صالة المطار، رفعتُ إحداهما في سلّة المهملات، ودخلتُ.

هامش

اقتباسات الكاتب القبرصي " كوستاس مونتس/ "Costas Montis
ترجمتها الكاتبة عن لغة وسيطة هي الإنكليزية

مأخوذة من:

- كتاب "In the Fear of Man"

الترجمة إلى الإنكليزية لـ Pavlos Andronikos

- كتاب " CLOSED DOOR"

الترجمة إلى الإنكليزية لـ David Roessel and Soterios G.Satvrou